@ketab_n
Follow Me
10.4.2017

إريك إيمانويل شميت

أوليس البغدادي

رواية

الفارابي

إريك إيمانويل شميت

أوليس البغدادي

رواية

ترجمة: الدكتورة كيتي سالم

دار الفارابي

Twitter: @ketab_n

أوليس البغدادي

Twitter: @ketab_n

العنوان بلغة الأصل الفرنسية

Ulysse

from Bagdad

DE

ÉRIC-EMMANUELSCHMITT

© 2008 ÉDITIONS AlbinMichel

ISBN : 13: 978-2226188618

Traduit par Ketty Salem

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترَف القول الجريء ينشطه غازي برّو]

Réalisation et traduction de l'ouvrage : Atelier oser dire animé par Ghazi BERRO

بيروت موبايل: **70216140**

Atelier.oser.dire1@gmail.com

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français/ministère français des affaires étrangères et du développement international.

حظي هذا الكتاب بدعم برامج مساعدة النشر من قبل المعهد الفرنسي/ وزارة الشؤون الخارجية والتنمية الدولية الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب: أوليس البغدادي
المؤلف: إريك إيمانويل شميت
ترجمة: د. كيتي سالم
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٥

ISBN:978-614-432-458-5

© جميع الحقوق محفوظة
تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

Twitter: @ketab_n

«ما من غريب إلّا ما هو غير إنساني.»

جان جيرودو، من رواية إلبينور

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أدعى سعد[*] سعد، وهذا يعني بالعربية: أمل أمل، وبالإنكليزية حزين حزين؛ تنزلق حقيقتي، في مجرى الأسابيع وأحياناً من ساعة إلى أخرى، وقد يحدث ذلك في انفجار ثانية من الزمن؛ وذلك وفق تفاؤلي أو بؤسي، حينئذٍ أصبح سعد الأمل أو سعد الحزين.

حين يولد الإنسان، تُسحبُ له ورقة يانصيب، بأرقام رابحة، أو خاسرة. ففي أميركا وأوربا، وكذلك في اليابان اليابان، يحط المرء رحاله وينتهي الأمر: يولد الإنسان مرة واحدة وهذا كافٍ، فلا يحتاج إلى أن يُعيد الكرة. أما حين يرى النور في أفريقيا، أو في الشرق الأوسط...

قد أحلم غالباً بوجودي قبل أن أوجدَ، فأحلم بأنني أحضر الدقائق التي سبقت الحبل بي: حينئذٍ أصححُ واقعي، وأسَيّر العجلة التي تدير الخلايا والذرات والجينات، وأبعدها عن مسراها كي تُعَدِّل نتيجة واقعي، ليس من أجل أن تجعلني مختلفاً، كلّا، بل أريد أن أتفتح

(*) إن ترجمة كلمة سعد بالفرنسية تعني الحظ، ولكن المؤلف ترجمها تجاوزاً بكلمة أمل (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

بالضبط في مكان آخر. في مدينة أخرى وفي بلد متميز. أريد أن أولد من البطن ذاته طبعاً ومن أحشاء تلك الأم التي أعبدها، لكنني أريد بطناً يلدني على أرض أستطيع أن أنمو فيها وأترعرع، وليس في قعر حفرة وجب عليَّ، بعد عشرين عاماً، أن أقتَلَع منها.

أدعى سعد سعد، وهذا يعني بالعربية أمل أمل، وبالإنكليزية حزين حزين؛ كان بودي أن أكتفي بصيغتي العربية، وبالوعود المزهرة التي يرسمها هذا الاسم في السماء؛ كنتُ أتمنى، والكبرياء نسغي الوحيد، أن أنبت وأترعرع وألفظ أنفاسي الأخيرة، حيث ظهرتُ، شأن شجرة، ازدهرتْ وسط أهلها، ثم، بدورها، أغدقتْ بتلات، وقد قامت برحلة في الزمن، وهي ثابتة في مكانها؛ ولكنتُ في غاية السعادة في أن أشارك الناس السعداء في وهمهم، وأن أعتقد معهم أنهم يشغلون أجمل موقع في العالم، دون أن تخولهم أية رحلة القيام بمقارنة ما؛ إلَّا أن الحرب، والدكتاتورية، والفوضى، وآلاف الآلام، وكثيراً جداً من الموتى قد انتزعتْ كلها مني هذه الغبطة.

كلما تأملتُ في التلفاز، جورج بوش، رئيس الولايات المتحدة، اكتشفتُ الشكوك الغائبة التي تنقصني؛ فبوش فخور لأنه أميركي، كأن له دوراً في ذلك... إنه لم يولد في أميركا، لكنه ابتكرها، أجل، لقد صنعها منذ أول براز له في مستشفى التوليد وأحسن صنعها في حفاضاته وهو طفل، حين كان يزقزق في دار الحضانة وأتمها آخر الأمر، بأقلامه الملونة على مقاعد المدرسة الابتدائية. فمن الطبيعي، إذ، أن يقودها،

Twitter: @ketab_n

وهو راشد! يجب ألّا يُحدثه أحد عن كريستوف كولومب، فهذا الحديث يثير غيظه، كما يجب ألّا يُقال له إن أميركا ستستمر بعد موته، لأن ذلك يجرح شعوره. إنه في غاية الابتهاج من مولده الذي تخاله قد صنعه بنفسه. إنه ابن ذاته، وليس ابن والديه، ما أجمل العجرفة! وما أروع الاكتفاء الذاتي البليد! وما أبهى هذا الغرور الذي يَدَّعي مسؤولية كل ما تلقاه! إنني أحسده، كما أحسد كل إنسان ساعده الحظ في أن يتمتّع بسكن في مكان لائق.

إنني أدعى سعد سعد، وهذا يعني بالعربية أمل، أمل، وبالإنكليزية حزين حزين. قد أكون أحياناً سعد الأمل، وأحياناً أخرى سعد الحزين، وإن كنتُ، في نظر العدد الأكبر، لا أساوي شيئاً.

في نهاية هذا السفر، وفي بداية رحلة جديدة، أكتب هذه الصفحات كي أبرئ نفسي. فلقد ولدت في مكان لم يكن عليَّ أن أولد فيه، أردتُ الرحيل عنه؛ وأنا أطلبُ صفة اللاجئ، حينئذٍ تدحرجتُ من هوية إلى أخرى، مهاجراً ومستجدياً وغير قانوني وبلا أوراق ثبوتية وبلا حقوق مدنية وبلا عمل؛ فاللفظة الوحيدة التي تحددني من الآن فصاعداً هي مهاجر غير نظامي أو سري. فأنا لستُ طفيلياً، ولا نفعياً، وبعيداً كل البعد عن المحتال. كلّا، إنني مهاجر غير نظامي، ولا أنتمي إلى أية أمة ولا إلى البلد الذي هربتُ منه، أو ذاك الذي أود الوصول إليه، كما أنني لا أنتمي مطلقاً إلى البلاد التي أقطعها. فأنا مهاجر غير نظامي، هذا بالضبط وضعي، لا يُرحَب بي أينما حللت، وأنا غريب في كل مكان.

Twitter: @ketab_n

أشعر، في بعض الأيام، بأنني قد أصبحت غريباً عن الجنس البشري...

أدعى سعد سعد، لكنني لن أنقل اسم عائلتي، على ما يبدو، إلى أجيال قادمة. إنني محصور في مترين مربعين تحول إليه سكني الموقت، وأنا خجل من التناسل، وبالتالي، من أن أكرر الكارثة. وبئس الأمر بالنسبة إلى أمي، وإلى أبي اللذين احتفلا بمجيئي إلى هذا العالم، احتفالاً بالغاً، فسأكون آخر آل سعد، أي آخر الحزانى أو آخر من كانوا يأملون، لا يهم. إنني الأخير.

Twitter: @ketab_n

١

ولدت في بغداد يوم لاحظ صدّام حسين، بغضب، أولى شعراته البيضاء، فراح يصرخ في القصر حتى كادت عروق رقبته تنفجر، واستدعى حلاقه وطلب منه أن يُغطي تلك الشعرات فوراً بصبغة دهنية سوداء، فاحمة؛ ثم أعلن للرجل ذي الأصابع المرتجفة أنه يعتبره من الآن فصاعداً مسؤولاً عن أبسط بادرة تظهر عن شيخوخته: أي إن عليه أن يفتح عينيه! وبمجمل القول إنني ولدت يوم تجنب العراق مصيبة ما. فهل هذا نذير شؤم أم دليل سعد؟

إن كنتُ أنقلُ هذا التفصيل، فلأن الحلاق قريب بالمصاهرة من عمة تزوّج بابنة أختها، والتي هي، بدورها، ابنة عم والدتي من أمها فقط، أي من الأسرة... وحين أتى إلى بيتنا، ذاك المساء، للاحتفال بقدومي، لم يستطع الحلاق إلّا أن يبوح لوالدي بهذه الطرفة، وقد اختبأ خلف ستارة، وهو يتلذذ بها بصوت خفيض؛ وبالمقابل، لم يعترف مطلقاً، في تلك الليلة، ولا في أية ليلة تلتها، أين تقع تلك الشعرات المنحطة؟ وهل ظهرت على الرأس أو في جزء آخر من الجسم الرئاسي؟ لكن

Twitter: @ketab_n

هذا الإغفال يوجه التحقيق. فالكل يعرف أن الرجال في بلدنا يريدون أن يظهروا طويلاً في منتهى الرجولة، فيعمدون إلى صبغ الشعر حول أعضائهم التناسلية.

على كل حال، كان لوالديَّ سببان ليفرحا: صبي جاء إلى العالم، والطاغية يشيخ.

استقبلني أهلي شأن معجزة، وهذا طبيعي: فبعد أربع بنات، فقد الجميع الأمل بقدومي، والكتلة الوردية الصغيرة التي كانت ترتعش بين فخذيَّ انتزعت صرخات نشوة، وجهازي التناسلي الصغير جداً أطلق الآمال بالسلالات الملكية. وقبل أن أقوم بأبسط شيء ذكي، كنتُ محترماً ومُقدراً؛ ولم أكد أتجاوز عدة ساعات من العمر، حتى أطلقتُ وليمة مأثورة، وفي اليوم التالي، كان هناك تخمات، وذهب الأمر ببعضهم أن كانت أفواههم جافة ونتنة بشكل لا مثيل له لإسرافهم في الشراب.

كنتُ مدللاً كثيراً طوال سنوات طفولتي، فكنتُ أبطأ من الأطفال الذين هم في مثل سني لأفهم كيف كان مواطنيَّ يعيشون ـ أو لا يعيشون.

كنا نقطن شقة تقع في بناية قليلة الارتفاع، رمادية اللون، وعلى مرمى حجر من المدرسة الثانوية حيث كان أبي أميناً لمكتبتها. كانت المدرسة، بالطبع، مدرسة حزب البعث، والمكتبة أيضاً للبعث، بقدر ما كان للبعث ـ الناطق باسم الحزب الرئاسي ـ الإذاعة، والتلفزيون، والمسبح، وصالة الرياضة، والسينما، والمقاهي... وحتى الماخور، كما يُضيف والدي.

Twitter: @ketab_n

بمجمل القول، بدا لي أن ثمة ثلاثة كيانات رئيسية في الحياة ألا وهي: أسرتي والله والرئيس. ألاحظ، وأنا أكتب هذه الجملة، أن الابتعاد وحده يسمح، بكل جسارة، بترتيب العناصر على هذا الشكل، لأن هذا الترتيب، في تلك الحقبة، يرسل عراقياً إلى السجن؛ من الأفضل الترتيب هكذا: الرئيس، الله، وأسرتي.

كانت صور الرئيس، المعلقة في كل مكان، تراقب حياتنا اليومية؛ وتظهر كتبنا المدرسية صوره وجمله وتعلق الدوائر الرسمية صورة وجهه ويفعل ذلك أيضاً أصحاب الدكاكين والمحلات، بدءاً بالمقاهي الصغيرة ووصولاً إلى المطاعم، مروراً بمخازن الأقمشة وأواني الطعام والمواد الغذائية. فسواء عن قناعة، أو عن حذر، أو عن جبن، يرفع كل واحد صورة القائد العربي؛ وتلك الصورة أكثر فعالية من أية تعويذة؛ إنها نسخة لصدّام حسين يظهر فيها جزئياً من إطار، وتحمي من سوء المصير- أي حد أدنى ضروري وإن لم يكن كافياً؛ فالتوقيفات التعسفية، والاعتقالات غير المبررة كانت تتساقط أكثر من المطر. أما أنا، فكنت أفكر أن الرئيس يراقبنا، من خلال صوره؛ لم يكن مجرد صورة محفورة على الكرتون، لا، فهو واقف هنا، حاضر بيننا؛ وعيناه المطبوعتان تخفيان آلة كاميرا وأذناه تموهان أجهزة تنصُتٍ، يتجسس صدّام على ما نفعل ونقول حول صوره، وهو يعرف كل شيء. وشأني شأن كثير من التلامذة العراقيين، رحتُ أنسب إلى صدّام حسين كل أشكال السلطة. إن ذلك لمنطقيٌّ: فلديه كل السلطات.

Twitter: @ketab_n

كان هناك رجال يختفون، من حين إلى آخر، وإن كان لهم أسرة، وزوجة وأطفال ووالدان. فجأة، يتوقفون عن إعطاء أية بادرة حياة: ثمة حلان يبرزان حينذاك: فإما أن يكون هؤلاء الرجال قد انخرطوا في المقاومة ضد صدّام حسين، وإمّا سُجنوا وعُذبوا، ثم قُتلوا بسبب مقاومتهم له. لم يكن أحد يدرس الفرضيتين لأن هناك خطراً عظيماً في تقصي الحقيقة. إذاً، يُترك المختفون يختفون، ولا أحد يعرف إن كانوا قد اختبؤوا في جبال ما كان يُعرف قديماً بكردستان، أو كانوا قد ذوِبوا بالحمض.

كنتُ أعتبر، وأنا طفل، أن ذلك التصرف وحشي، ومرعب، وطبيعي؛ وفق منطق ذهن فتي، فأرى طبيعياً كل ظاهرة أكتشفها، كما كنت متعلقاً بالوحوش التي ترعبني، ومستسلماً إلى القصص المخيفة، وقد غذّاني والدي بأساطير قديمة شأن حكاية جلجامش، فرحت أرى القدر على أنه تعسفيٌ وأسود ومرعبٌ ولم أكن أتخيل الكون بدون صدّام حسين وحكمه المطلق ونزواته وحقده وضغينته ومزاجه وعدم تسامحه وتقلباته المفاجئة؛ كان يثير شغفي؛ كنتُ أقدسه بقدر ما كنتُ أخشاه. فالفارق الوحيد بين عالم الأساطير والواقع، يكمن في أن الغول كان يُدعى صدّام حسين في هذه الدنيا وخارج الصفحات وبعيداً عن الممالك السحرية.

كان الله، بالنسبة إليَّ، منافساً لصدّام حسين، كونه منافسه المباشر، ولأنّ هناك الكثير من النقاط المشتركة بينهما، ولا فروق مطلقاً.

Twitter: @ketab_n

إننا مدينون له بالخشية، وبالاحترام أيضاً؛ الكبار يوجهون له بدورهم الشكاوى الخفية والشكر الرنان؛ ويجب تجنب معارضته باستمرار. وبالمناسبة، كنت أتردد، متسائلاً في حال اضطررت أن أختار، من أتبع: أأتبع الله أم صدَّام حسين؟ إلَّا أنه في مباراة النفوذ، ليست معطيات الله متعادلة مع نفوذ صدَّام. ذلك، لأن الله نادراً ما يتدخل في حياتنا اليومية، لا سيما في بغداد... ثم لأنه يستغرق وقتاً أطول بكثير ليثأر، عن الوقت الذي يستغرقه صدَّام... ودون أن يُحرك ساكناً، يتحمل الشتائم، في حين يعاقب عليها صدَّام قبل أن تُطلق.

كانت تلك، بالنسبة إليَّ، ميزة الله: فهو أقل حباً للدماء، وبارد الطبع، وليس حقوداً على الإطلاق. إنه يمتاز بالشرود، وربما بالنسيان... وقد أجازفُ بفرضية وهي: إذا كان الله يتأخر هكذا في أعماله الانتقامية، فهل يعني ذلك أنه صالح؟ لم أكن على يقين من ذلك، وإن كان شعور مستمر بالارتياح يرجح كفته. كنتُ أعتبر الله محباً، أكثر من صدَّام، فهو يمتاز بالقدم، وإن كان صدَّام، في مجال وجودي القصير، قد شغل الحيز كله. أخيراً، إنني أفضل رجال الله على رجال صدَّام: فالأئمة الملتحون، ذوو الأجفان البنفسجية الذين كانوا يعلموننا القراءة في القرآن، ثم قراءة القرآن، يثيرون اهتماماً وعذوبة، وإنسانية لا يمكن مقارنتها بموقف البعثيين الأفظاظ، والموظفين المشتبه بهم والعمداء القساة والقضاة الشرسين ورجال الشرطة المتحيزين والجنود المتهورين، سريعي إطلاق الرصاص. أجل، إن الله، بلا شك، يحسن

Twitter: @ketab_n

اختيار جماعته بشكل أفضل من صدَّام. على كل حال، يبدو أن صدَّام ذاته يحترم الله. فأمام من ينحني؟

وبعيداً عن صدَّام الذي كان يرعبني، وعن الله الذي يربكني ويحيرني، كانت أسرتي تمُدني بالأمان وبالمغامرة؛ فمن جهة، كنتُ متيقناً بأنني محبوب؛ ومن جهة أخرى، كانت أربع أخوات، وأم تجاوزتها أحداث العصر، وأب غريب الأطوار يثيرون فضولي بشكل دائم. كان بيتنا يصخب بالهيجان وبالضحكات وبالأغاني وبالمكايد الزائفة وبالتعانق الصادق وبصرخات تكتمها الممازحات؛ كان المال ينقصنا بشكل كبير، كما كان ينقصنا حسن التخطيط، حتى إن كل شيء يصبح مشكلة، كالأطعمة والنزهات والألعاب والدعوات؛ لكننا كنا نستمتع في مجابهة هذه الإحراجات، وقد يذهب بنا الأمر إلى أن نشدد على تلك العوائق، لأننا كنا نعشق، بحسب الطريقة الشرقية جداً، تعقيد ما هو بسيط، لأنه يضجرنا. وقد لا يخطئ مراقب خارجي إذا وصف آلية سير بيت سعد «بالهستيرية»، شرط أن يُدرج السعادة العظيمة التي تؤمنها الهيستيريا.

كان والدي يساهم في تشويش تنظيمنا بطريقته في الكلام؛ فباعتباره أميناً للمكتبة، وقارئاً ثاقب الذكاء، وعلَّامة، وحالماً، فقد استمد من الكتب هوس انتقاء اللغة الرفيعة؛ وعلى غرار الأدباء العرب الذين يعشقون الشعر، كان والدي يُفضل محاذاة اللغة من

Twitter: @ketab_n

علٍ، حيث يُسمّى الليل «برداء الظلام الذي ينهال على الكون»، أما الخبز فيُدعى «الزواج المحمص للطحين بالماء»، والحليب «بعسل الحيوانات المجترة»، وروث البقرة «بكعكة البراري». وبالتالي، كان يسمي أباه «بصانع أيامي»، كما يسمي زوجته، والدتنا «بنبع الخصوبة» وأولاده «بلحم من لحمي، ودم من دمي، وعرَق النجوم». وحالما ترعرعنا قليلاً، أنا وأخواتي، رحنا نتصرف كصبية سوقيين، في حين كان والدنا يصف أفعالنا بكلمات نادرة. كان يقول «إننا نتغذى» بدل القول: إننا نأكل؛ و«إننا نسقي غبار الدروب» بدل القول: إننا نبوِّل؛ فإذا ما اختفينا في المراحيض، قال «إننا نلبي دعوة الطبيعة». إلَّا أن تلك الكنايات المزهرة لم تكن لتشكل رسائل واضحة؛ ولأن أبسط صيغه الإنشائية المعقدة لم تكن تصادف عند مستمعيه، إلَّا أفواهاً فاغرة من الدهشة، لاسيما عندنا، نحن ذريته، فكان رب أسرتنا الوقور سعد، يستاء، وهو يفور غضباً أمام كل هذا الجهل، فيفقد صبره ويترجم فوراً فكرته بالتعابير الأكثر بذاءة وفظاظة، وهو يعتبر أنه إذا وجه حديثه إلى حمير، كلمهم على هذا الشكل. وهكذا كان يمر من تعبير «لا يهمني» إلى «إنني أستخف من كل ذلك»، ومن «كفى مراوغة لي، أيها العفريت المضحك» إلى «لا تهزأ مني، أيها النذل!». وبالفعل، كان والدي يجهل الكلمات المتداولة، فلا يعمد إلَّا إلى المبالغات، وهو يعيش في مستوين للغة متباعدين إلى أقصى حد: اللغة الرفيعة، واللغة السوقية، وهو يقفز من الواحدة إلى الأخرى.

Twitter: @ketab_n

أذكر أنه حدث في يوم سبت من شهر كانون الثاني، وقد استيقظنا باكراً، لنذهب عند خال لنا يسكن بعيداً، حين سألني والدي وهو يحلق لحيته:

ـ إذاً، يا ولدي، شأن أوليس الإلهي، ترتعش أمام الفجر ذي أصابع الورد، أليس كذلك؟

ـ عفواً، يا أبي؟

ـ ألن تتجمد مؤخرتك في الخامسة صباحاً؟

النتيجة: كنت أعشق رفقة والدنا لأنه كان يعبر دائماً بطريقة مجازية.

لم أكن أشعر، بالنسبة إلى أمي، بأنني أطيعها؛ كنت أحبها حتى إنني أوافق على كل قرار تتخذه، وافقتُ عليه. كنا نشكل شخصاً بجسدين: كانت أمانيها تصبح رغباتي وتنهداتها تَسيل دموعاً من عينيَّ وفرحها يمدني بالنشوة.

كانت أخواتي يحترمن هذا التفاهم الفريد، بالرغم من دهشتهن منه. وبما أنني كنتُ الصبي الوحيد وبما أنهن كنَّ يُفكِّرن، هن أيضاً، بحياتهن المستقبلية بالقرب من ذكر وحيد، فإنهن يبرّرن مكانتي المميزة بالفارق الجنسي، ولا يغرن مني أو يحسدنني؛ بل، على العكس، كنَّ يتنافسن لنيل رضاي.

يُستنتج من ذلك أنني ترعرعت في الجنة، تلك الأرض الرائعة والمغلقة التي تسكنها نساء وفيات وأب غريب الأطوار ومضحك وإله

Twitter: @ketab_n

مسافر وطاغية توقفه مسافة محترمة من جدران منزلنا، أجل! كان هذا السكن يأوي سعادتي حتى الحادية عشرة من عمري.

وإذا كانت الطفولة تقبل معلمين مطلقي السلطة، فإن المراهقة تطردهم وتكرههم. وهكذا فإن وعيي السياسي قد نبت مع شعري.

ذات صباح، أوقف رجال الرئيس خالي نجيب، أخا أمي، فسُجن وعُذِّب مرة، ثم أعِيد إلى السجن، وعُذب مرة ثانية ونُقل ثانية إلى قعر زنزانة، وهو يعاني الجوع وانتهى إلى رميه في الشارع بعد خمسة أسابيع من اعتقاله، وهو ضعيف ومعوّق ومضرج بالدماء. كان هيكلاً من اللحم للكلاب الجائعة. ولحسن الحظ، تعرفتْ عليه جارة، فطردت الحيوانات وأعلمتنا بالأمر قبل فوات الأوان.

أغدقت والدتي وأخواتي، في البيت، عنايتهن المحبة على نجيب كي يشفى، لاسيما أنه فقد عيناً وأذناً. كان مصاباً بالحمى ويهذي، مع وابل من الكوابيس. راح نجيب يئن طوال أيام كثيرة قبل أن يسترجع مقدرته على الكلام. روى لنا ما حدث له. بدت قصته مقتضبة: شتمه الجبابرة، وبقي عطشان، محروماً من الطعام وضُرب طوال ساعات، كما لم يكلفوا أنفسهم أن يشرحوا له ما هي تهمهم: «خائن!»، «جاسوس»، «خنزير لحساب أميركا»، «نذل تدفع له إسرائيل»، تلك هي الكلمات النادرة التي فهمها بين جلدات الحزام وركلات الأرجل وضربات المطرقة ذات المسامير. كانت الشتائم مألوفة عندنا. استشف نجيب أنهم يعتقدونه مذنباً، ولكن أي ذنب ارتكب؟ كان يتألم ألماً

Twitter: @ketab_n

عظيماً دفعه إلى أن يتوسل معذبيه كي يرشدوه. ويعدُهم بالتالي أن يعترف بكل ما يريدون، أجل، بكل شيء، لمجرد وقف الألم. عبثاً! كان نجيب يُخيب آمالهم، وكانت تلك الفكرة الوحيدة التي شعر بها وسط آلامه: كان تعذيبه مخيباً لآمال جلاديه.

رُمي من سجنه دون أية تفسيرات ترافق إطلاق سراحه شأن ما حدث حين اعتقاله.

كنا نعرف خالنا نجيب حق المعرفة، وهو الذي يطرز الأخفاف، ونعلم أنه لا يوجد أي خط من شخصه عرضة للشبهات، بما أنه ليس كردياً، ولا يهودياً، ولا شيعياً، وليس له أي ارتباط بإسرائيل، وليس بعاشق لأميركا، ومتجرداً من أية علاقة بإيران، لم يكن له أي ذنب؛ كان مذنباً فقط لأنه كان مشتبهاً به.

حينذاك، أصبحنا جميعاً مشتبهاً بنا...

على كل حال، ألم يكن عذاب الخال نجيب الأليم يُشكل مسعىً متعمداً ومنظماً ومنهجياً لجعل الهلع يسيطر؟ ففي نظر الرئيس المرتاب، بدا كل العراقيين مشبوهين، أجل، كلهم مشتبه بهم!

«إذا تآمرتم على صدَّام، نحن، رجال صدَّام، سنعلم بالأمر دائماً. ما أهمية أن نخطئ أحياناً، فمن الأفضل قتل بريء من ترك مذنب يزدهر. ومن له أذنان سامعتان، فليسمع. لم يبقَ أمامكم إلَّا أن تنبطحوا خاضعين وصامتين.»

قدَّرتُ، وأنا في الحادية عشرة، مدى الظلم الذي يعيشه بلدي،

Twitter: @ketab_n

شحذَ ذلك إحساسي، وحفر التمرد في صدري مكاناً راح يتسع. حينذاك، قررتُ أنني، خلافاً للخال نجيب، سأمد رجال الرئيس، بأسباب شرعية ليشكوا بي، فإذا ما ضبطوني يوماً، وإذا ما أحرقوني بالأسلاك الكهربائية، وإذا ما طمروا رأسي في حوض الحمام حتى الغرق، فلن يُعذبوني عبثاً لأنني أكون فعلياً قد ناضلت ضدهم.

ذات يوم خميس، مرَّ والدي أمام غرفتي ولمحني، وقد انهمكت بتسديد ضربات من قبضتيَّ على الجدران؛ كنتُ أؤذي مفاصلي أكثر مما أتلف الجدران، وقتالي لا يُفرق بين أعدائي، لكنني لم أكن أستطيع التوقف عن الضرب.

ـ يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، وعرق النجوم، ماذا تفعل إذاً؟

ـ إنني غاضب.

ـ على من أنت حانق؟

ـ صدَّام حسين.

ـ اغلق فمك. اتبعني.

أخذني من يدي وصحبني إلى خلوة رُتبتْ تحت المنزل. هناك، اكتشفتُ كنز والدي، وهي الكتب التي طُلِبَ منه، منذ عدة سنوات، سحبها من المكتبة، فاحتفظ بها، بدل إرسالها إلى الوزارة لإتلافها وأودعها على رفوف كثيرة في قبونا، مخفية خلف بسط عتيقة.

كان هناك كثير من أنواع الكتب الممنوعة، فبعضها لأنها كردية

Twitter: @ketab_n

وبعض آخر لإباحيتها الأخلاقية وبعض الكتب لأنها مسيحية؛ فبطريقة مضحكة، كانت المؤلفات منضدة على طرفيّ نقيض ـ فمنها مواعظ دينية أو حكاية ماجنة ـ وكلها تخترق الخط الأحمر ذاته، في نظر الرقابة البعثية، ألا وهو التحريض، حتى إن المطران بوسويه والماركيز دو ساد قد تجاوروا، شقيقين في الخزي، وحُكم عليهما، متجاورين، بالشواء بالأسياخ، في جهنم. إلّا أن ميزة تلك المطاردة للمؤلفات التي قادها الحزب، جعلتْ أبسط كتاب منشور يُمنع. وهذا ما أتاح لوالدي أن يحصل على مجموعة رائعة تتصدر فيها أفضل مؤلفات الأدب الأوروبي وكذلك كُتاب المقالات الفرنسيين والشعراء الإسبان والروائيين الروس والفلاسفة الألمان، كما استأثر رفان بقصص بوليسية لأغاتا كريستي بحجة أن العراق كان فيما مضى تحت السيطرة البريطانية، لذا وجب التخلص من أشهر روائية إنكليزية.

إن والدي، وقد أتاح لي الوصول إلى سره، أتم بذلك تعليمي، لا بل بدأه. كان فخوراً ببلده وعاشقاً لتاريخه الغني الذي تجاوز آلاف السنين، يذكر نبوخذ نصّر كأنه التقاه البارحة ويكره النظام الحالي وكان يشعر بحفاظه على تلك الكتب، بأنه يخلد، بالرغم من صدّام حسين الذي يعتبره غاصباً، التقليد العراقي والحضارة العلّامة التي اخترعت الكتابة وأظهرت نهماً للثقافات الأجنبية. أطلق على مكتبته السرية «برج بابل الجيب»، مادامت تبدو له، وبشكل أبسط، أنها تكرر برج بابل

Twitter: @ketab_n

حيث كان يقصده فضوليو العالم قاطبة، من حجاج يتحدثون بلغات مختلفة.

منذ ذاك اليوم، أصِبتُ بحب القراءة، أو بتذوق الحرية ـ وهما سيان ـ وسخَّرتُ مراهقتي للتعرف إلى حشو الدماغ الإيديولوجي الذي كنا نكابده في المدرسة الثانوية، فساعدتني القراءة على حماية نفسي منه، ساعياً إلى أن أحْسِن التفكير بطريقة متميزة، ومن تلقاء ذاتي.

بعد زواج أخواتي، اكتشفتُ، في تلك الفترة، أنني لست بفتاة، وإن كنتُ قد نشأتُ بين نساء لأنَّ البنات لا يشغل تفكيرهنّ سوى الزواج، فهو يشكل هوسهن: ألا وهو تخيلُ طالب الزواج المثالي، الذي عندما يحضر تبدأ الاستعدادات لإقامة العرس، بعدها يذهب بهن الأمر إلى مغادرة بيت الأسرة ـ، أجل، إلى هذه الدرجة ـ ليكرّسْن أنفسهن للزواج؛ وليس للزوج، لأن الرجل ـ على غرار الذكور ـ لا دور له إلَّا هذا الدور، فهو يعمل ويناقش وحول كأس من الشاي بالنعنع، يلتقي أصدقاءه الذين يلعبون بالنَّرد والدومينو، وكذلك الشطرنج. أجل، تلك حال الفتيات، ومن بينهن أخواتي اللواتي لم تفلتن من هذا العرف.

كانت والدتي تصرخ، والدموع تنساب على خديها قائلة: «الأسرة تتوسع»، وهذا يعني «فراغالمنزل». كانت تجهل، مع ذلك، إلى أي مدى كانت محِقة، كما كانت أبعد من أن تشتبه في أن مكتبتنا، «برج بابل الجيب»، بدأت تفرغ هي أيضاً، لأن والدي، وهو موظف بسيط،

Twitter: @ketab_n

راح يخاطر ببيع مجلدات ممنوعة كي يمَول كل حفلة من حفلات الزواج.

وهكذا كسبتُ صهرين ـ عزيز ورشيد ـ اللذين رزقا من أختيّ بثلاث بنات وصبي، حين أعلن صدَّام حسين، في عام ١٩٩٠، الحرب على الكويت.

لم تخفق الحملة فقط، لكن أختيَّ الكبريين قد اتشحتا بالسواد، فقد قُتِل زوجاهما في المعركة، فعادتا لتعيشا في البيت، بعد ترملهما، مع أطفالهما، وباع أبي بعض أثاث البيت مدعياً أنه يعيد ترتيب المكان.

حينذاك، ابتدأ الحصار الاقتصادي، كردع وانتقام من سياسة صدَّام حسين العدوانية ـ وكم أيدْتُ هذا الاتهام ـ وبالتالي قررت الأمم المتحدة وضع العراق تحت الحظر.

لست أدري إذا كان السياسيون الأثرياء، وذوو الكروش، والناقمون، هم الذين قد تصوروا، للحظة مثلنا، نحن العراقيين، كيف سنعاني تلك العقوبات؛ أشك في ذلك، وهذا هو العذر الوحيد الذي أراه لهم. كان هدف الحصار سحقَ صدَّام حسين، لكنه لم يُثقل إلَّا علينا، نحن الشعب، ففقد الدينار قيمته أكثر من ألف مرة، وكنا نذهب لشراء حاجاتنا حاملين أكداساً من العملة الورقية مخبأة في أكياس القمامة أو في حقائب من الكرتون؛ وماذا نشتري في الواقع؟ لم يكن ثمة شيء يُباع. عاد كثير من الساكنين في المدن ليعيشوا في الريف. فلولا الحزمة التي توزعها الحكومة شهرياً ـ من طحين وزيت للطبخ

Twitter: @ketab_n

وشاي وسكر ـ لمتنا جوعاً؛ فبفضل التقنين، اكتفينا بتحمل الوضع. في بغداد، كان الخوف يسيطر، ويتوسع. فبالإضافة إلى الخوف الوحيد من صدَّام، كان هناك الخوف من السرقة ليلاً، إن كان أحد يملك شيئاً ما، ولم يبادله بعد: كان سائق التكسي ينام في سيارته، ومسدس تحت جنبه، خلف باب المرآب المغلق بالقفل، وكانت الأسر تقوم بجولات حراسة كي تتجنب سرقة كيس من الأرزّ، أو صندوق من البطاطا. أما الخوف الأشد حدة، فهو الذي يجول في إعماق كل نفس من أن تصاب بالمرض.

هذا ما حدث لأطفال أخواتي، وقد صدمن من موت أزواجهن، وربما بالتالي فسد حليبهن! أكان ينبعث منهن حزن وقلق يصيب أطفالهن بالعدوى؟ كان صغارهن يصابون بإنتان، ثم بإسهال متواصل.

كنتُ أرافق، في كل مرة، الأم والرُّضع إلى المستوصف حيث أعطانا الطبيب، في المرة الأولى، وصفة طبية تبين أنها غير كافية، وذلك بسبب عدم توافر الدواء الضروري. أما في المرة الثانية، فبالرغم من أن الطفلة كانت تبصق قطعاً من رئتيها أمامه، لكنه رفض معالجتها إذا لم ندفع له مالاً في الخفاء، حينذاك رهنت والدتي حلياً من زواجها، وبفضل ذلك، أنقذنا الطفلة. أما في المرة الثالثة، فلقد أعلن لنا أننا إذا أتينا له بذهب الأمراء على عربة، فإنه عاجز عن تأمين الأدوية الضرورية لأنها لا توجد في البلد، وبالتالي ماتت تلك البريئة. ذهبنا إليه، في المرة الرابعة، فكان يستند وحيداً، بمرفقيه إلى النافذة، في غرفة خالية، فقد

Twitter: @ketab_n

هجر المستوصف ورحل زملاؤه إلى الخارج، تاركين الممرضات اللواتي لم يعد في استطاعتهن دفع أجور مواصلاتهن للمجيء إلى عملهن؛ كان ينتظر مريضاً قد يرغب في شراء سماعته الطبية كي يطعم أسرته. مات الطفل أيضاً.

في عدة سنوات، فقدتْ بكر أخواتي زوجها في الحرب، ثم ابنتها، وابنها إثر الحصار الاقتصادي. كانت تعبة، بوجهها المحفور وبشرتها الكابية ويديها اليابستين ونظرتها المطفأة؛ فكانت تبدو، وهي في الخامسة والعشرين، امرأة عجوزاً.

إن كل عراقي عاش وصمد في تلك الفترة ـ مات الأطفال، في الواقع، قبل الآخرين ـ سيؤكد لهؤلاء السادة في الأمم المتحدة أن الحصار الاقتصادي هو أفضل طريقة لعقاب شعب هذه البؤس، وذلك بدعم قادته وتعزيزهم. إنه ملاط الألم! وإسمنت يُثبِّت الدكتاتوريات! فقبلَ الحصار الاقتصادي، لم تكن حقوق الإنسان محترمة في العراق؛ وخلال سنوات الحصار العشر، لم تُراعَ حقوق الإنسان أكثر مما كانت عليه من قبل، ولكن أضيف إليها استحالة التغذية وصعوبة العناية الطبية وازدياد شلل الأطفال وكثرة السرقات وتطور الفساد والرشوة. فحين أزال الحصار قدرة الطاغية المطلقة، وبالتالي مسؤوليته الكاملة، برَّأ صدَّام بذلك؛ فإذا ما نقصت سلعة غذائية، كان ذلك بسبب الحصار؛ وإذا تأخر إصلاح شيء ما، فبسبب الحصار؛ وإذا توقفت أشغال عامة ضخمة، فبسبب الحصار. وبدلاً من أن يُضعف الحصار المستبدَّ، كانت

Twitter: @ketab_n

نتيجتُه عكس ذلك: أصبح صدَّام حسين من جديد الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية والملاذ العراقي الوحيد ضد البرابرة العدائيين.

إلَّا أن السياسيين المتضلّعين الذين حكموا على شعبنا بعذاب أكبر سيهرمون آمنين في بلدهم، وكلي ثقة بذلك، وقد كُللوا بالأمجاد، ونالوا الأوسمة عن عملهم الإنساني، متمتعين بنوم لا تؤرقه ذكرى الفظائع التي أحدثوها، والتي يجهلونها.

خلال تلك الفترة، كانت تحضرني أحياناً فكرة الرحيل إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة؛ لم أفكر في ذلك بشكل جدي، ولم تحفزني الرغبة، وأكاد أفكر بكسل، شأن من يتصور بشكل مجردٍ حلاً رياضياً، لأنني لاحظت أن الأسر التي رحل أحد أفرادها خارج الحدود تمتاز بوضع أفضل في مجابهة الحاجة: وإذا دُس دولاران في رسالة، فربما يُصحححان مصيراً ما. فاتحتُ والدي بالأمر قائلاً له:

ـ ألا تعتقد أنني أنجح في الخارج بشكل أفضل؟ فكان ردّه:

ـ أن تنجح في أي شيء، يا ابني، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، ويا عرق النجوم؟

ـ أنجح في حياتي المهنية. فليس من المهم أن أصبح محامياً أو طبيباً. ما رأيك في أن أهاجرَ؟

ـ يا ابني، هناك فئتان من المهاجرين: هؤلاء الذين يحملون متاعاً كثيراً، والذين يرحلون بلا متاع. فإلى أية طبقة تنتمي؟

Twitter: @ketab_n

ـ مم...

ـ يفكر الذين يحملون متاعاً كثيراً أنهم، حين يُغيرون مكانهم، يرتبون الأمور؛ في الواقع، لا تنتظم الأمور، بالنسبة إليهم على الإطلاق. لماذا؟ لأنَّ المشكلة تقبعُ فيهم! فيحملون المشكلة ويطوفون بها في بلاد كثيرة ويجعلونها تستنشق الهواء النقي، دون أن يحلوا المشكلة أو يجابهوها. فهؤلاء المهاجرون يتحركون، لكنهم لا يتغيرون. وابتعادهم لا يُجدي نفعاً، لأنهم لا يفترقون؛ وهم يخفقون في حياتهم في الخارج كما أخفقوا بامتياز هنا. إنهم المهاجرون المخفقون، هؤلاء الذين يطوفون محملين بماضٍ يزن أطناناً كثيرة، صُنع من اختياراتهم التي لمسوها عن بعد، ومن نقائصهم التي ينكرونها، ومن تقصيرهم المقنع.

ـ وماذا عن الآخرين؟

ـ إنهم يسافرون خفافاً لأنهم جاهزون ومرنون وسريعو التلاؤم، فيمكنهم بلوغ الكمال. هؤلاء يعرفون كيف يستفيدون من تعديل في المشهد. إنهم المهاجرون الجيدون.

ـ كيف نعرف إن كنا من المهاجرين الصالحين أم الرديئين؟

ـ في عمرك، خمسة عشر عاماً، فذلك مبكر جداً.

كففت عن التحدث في هذا الموضوع، كما لم أعد أفكر فيه. فبين حصص دراسية راحت تقل وتندر ـ وحين لم يهرب أساتذتنا إلى الأردن، كنا ندرس، وقد حُرمنا من الدفاتر والأقلام، وجلسنا القرفصاء على الأرض، لنشترك، ونحن ثلاثون طالباً، بكتاب مدرسي وحيد ـ

Twitter: @ketab_n

رحتُ أبيع أوراق البخور على أبواب الوزارات كي آتي ببضعة دنانير، كما كنتُ شغوفاً بهموم بلدي ومشاكله.

كانت الشائعات تجري عن صحة صدَّام حسين. ذات يوم، شخَّصوا أنه مصاب بالسرطان؛ بعد ستة أشهر، ادعوا أن جلطة قد صعقته؛ ثم قيل إنه قد أصيب بجرثومة نادرة جداً أفقدته البصر؛ أخيراً، سمَّره نزف دماغي في فراشه وجعله أخرس ومشلولاً، لكن صوراً حديثة، أو إطلالات تلفزيونية جديدة كذَّبت تلك الأخبار: كان قائد الشعب يزدهر، بشعره الفاحم، وببطنه المشدود بحزام، وهو منتفخ ورائع، يجهل المجاعة. كان المقتنعون بسوء صحته يكابرون قائلين: «لا تكونوا ساذجين، فحزب البعث يقدم لنا قريناً له، إنه واحد من أقران الرئيس الكثيرين.» لم يكن الطغيان خدعة... فبالرغم من التكذيب، راحت الشائعات تعود، تتناقلها سرعة الكلام العربية، وتكوِّن أوكسيجيننا، شأن أشكال هاربة لكنها مشحونة بالأمل، أمل الخلاص منه. فكان مخترعوها ينخرطون في المقاومة، لكنها ليست مقاومة فعالة ـ لأنها في منتهى الخطر ـ، وإنما مقاومة مُتخيلة؛ فكانوا يمركزون السرطانات بكثير من البداهة، وهم يسقطون الورم دائماً في منطقة استراتيجية لصدَّام حسين، أي واحدة من المناطق التي نتمنى اختفاءها أولاً، وهي بلعومه، ثم دماغه، لكن سرطان الأمعاء الغليظة امتاز بتكرار الحديث عنه.

Twitter: @ketab_n

راح بعضهم يردد، أنه إذا لم ينجح أي مرض في القضاء على الدكتاتور، فربما ينجح الأمريكيون في ذلك، وهم الذين كانوا يتسلحون للهجوم عليه.

وإن لم يكن الأمريكيون مرضاً.

مهما يكن الأمر...

ولكن، لن نستبق الأحداث.

Twitter: @ketab_n

٢

كان صدام حسين يُشيد قصوراً جديدة، بينما شعبه يموت جوعاً. كان يحب كذلك أن يبكي ويدخن السيجار، دون أن يعرف أحد إذا كان الدخان هو الذي يثير دموعه، أو تدخل عاطفة إنسانية.

ـ يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، ويا عرق النجوم، سعد ابني، ألاحظ أنه منذ نبوكد نصَّر، أنتج بلدنا كثيراً من الملوك المتسلطين، ومن الغزاة محبي الحروب الذين لا يبالون بحاجات المواطنين؛ فصلاح الدين، وصدَّام حسين أتيا ليضخما القائمة. حسناً، أظنُ أنني وجدت سبب ذلك...

ـ ماذا؟

ـ بسبب أشجار النخيل.

ـ أشجار النخيل؟

ـ أشجار النخيل. فكل مشاكل العراق تأتي من أشجار النخيل.

ـ آه...

ـ لا بل أذهب أبعد من ذلك: إن أشجار النخيل هي أصل المشاكل التي تُصيب العالم العربي.

Twitter: @ketab_n

ـ هل تسخر؟

ـ إننا نؤمن بالمعضلة السياسية، إلّا أن المشكلة نباتية. فنحن نكد للوصول إلى الديموقراطية، وذلك بسبب أشجار النخيل.

انتظرت أن يقرر والدي شرح فكرته؛ فأبسط حديث معه، يسلك اللف والدوران، وجب عليَّ أن أقدر انتظار المفاجأة.

ـ ليس من المستغرب أن يتشكل أول برلمان في التاريخ البشري

في

إزلندة، بالقرب من القطب الشمالي، في وادٍ صخري يغمره الثلج والجليد: لم يكن هناك أشجار نخيل! أتذكر ذلك؟ حدث ذلك في القرن التاسع عشر.

ـ أذكر ذلك كما لو حدث البارحة، يا أبي.

ـ كان بديهياً ألّا يحدث ذلك، في أقاليمنا، وسط مناخاتنا.

ـ بسبب أشجار النخيل!

ـ بسبب أشجار النخيل، يا ولدي، يا لحماً من لحمي، ويا ذا القائمتين العجيب الذي يُحسن قراءتي بشكل رائع. فعندنا، تُعطي أشجار النخيل المثال السيّئ، كيف تنبت شجرة النخيل، في الواقع؟ فهي لا ترتفع نحو السماء إلّا إذا قُطِعت أجزاؤها السفلية؛ وبهذا الثمن، تتسلق وتهيمن بعظمة، في السماء الزرقاء. فكل حاكم عربي يحسب نفسه شجرة نخيل؛ فلكي ينتصب وينمو، يقطع ذاته عن الشعب ويتجرد منه ويبتعد عنه. إن شجرة النخيل تشجع الاستبداد.

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً. ولكن ما العمل؟ أنشتري مبيداً للأعشاب؟

ضحك وصب الشاي ثانية لكلينا.

في الغرفة المجاورة، كانت أخواتي، ووالدتي، بصخبهن وحماستهن لا يفقهن شيئاً من مناقشات الرجال، وهن يُحضِّرن زواجين جديدين.

ـ من نبوكد نصَّر، وصلاح الدين، وحسين... ينقصنا الوضعاء. فمن فجر العراق، يمارس قادتنا عبادة العظمة.

ـ يا أبي، لا أرى أية عظمة عند صدَّام حسين!

ـ إنه الهذيان بجنون العظمة وبالشعور بالاضطهاد. في هذا المجال، يتفوق علينا جميعاً.

فجأة، كأن والدي قد أصابته عدوى الشعور بالاضطهاد، فبدا قلقاً، وخفض صوته. وبعد نظرة شمولية سريعة في الغرفة المعتمة حيث كان يتحدث، وحده معي، تابع قائلاً:

ـ لم يعد أحد يعرف أين يعيش ولا أين ينام؟ لشدة خوفه من الاغتيالات.

تظهر أقران له أمام الناس. من قبل، كان يُثني المتمردين بالرعب، أما الآن، فهو يثبطهم بأن يذوب في المشهد، فلا يتعرفون عليه.

قلت متنهداً: ـ أعرف ذلك، وقد أخفيت عنه أنني قد انضممت في الجامعة إلى مجموعة من المقاومين في السر نطمح في كنفهم إلى قتل صدَّام حسين.

Twitter: @ketab_n

ـ فبعد أن قتل أعداءه، قتل معارضيه، ثم أصدقاءه، ثم مساعديه؛ اقتصر محيطه، اليوم، على أسرته القريبة؛ أنتظرُ اللحظة التي بها سيصفيهم أيضاً.

ـ هذا هو التعليم الأساسي الذي سيتركه لنا صدَّام: في أسوأ الظروف، يمكن دائماً القيام بأفضل ما يمكن!

انفجرنا بالضحك، لأننا نضحك كثيراً في حكم الدكتاتورية، فالضحك يشكل العتاد للاستمرار في الحياة.

تابع والدي قائلاً وقد اكتسحت التجاعيد جبينه:

ـ هذا ما خرَّب في هذا البلد: ألا وهو الثقة. ولأنه لا يثق بأحد، فقد أقام مجتمعاً على شاكلته، أي جماعة يخاف فيها كل فرد وكذلك يخشى كل إنسان الخيانة وحيث يُراقَب المواطن وهو يُرَاقب جيرانه ويبقى قريبُك شخصاً بعيداً عنك وخائناً وواشياً وعدواً مقتدراً. هذا المريض بعقدة الاضطهاد قد أصابنا بالعدوى، فأصبح العراق أشد مرضاً منه. وإذا ما توقف ذلك، فهل سيكون في استطاعتنا أن نشفى؟

بدأ شبح الحرب يمتد على البلد.

منذ هجوم إرهابيين إسلاميين على الولايات المتحدة وقد دمروا برجين قُتل فيهما ثلاثة آلاف نسمة، رحنا، وأعيننا مرفوعة إلى السماء، نعد الأيام التي سبقت هجوم الجيش الأميركي. لم يكن هناك بالتأكيد، أية علاقة مباشرة للعراقيين في انهيار بنايتي نيويورك في أيلول من عام

Twitter: @ketab_n

٢٠٠١ لكننا أحسسنا أن هذه الفضيحة قد سلَّحت ذراع الرئيس بوش، فبعد أفغانستان، سيحول ذراعه نحونا.

كنتُ أتمنى ذلك، على العكس من رفاقي.

كنت أرى في الجيش الأميركي، خلافاً لرفاقي، محررين محتملين يحطون رحالهم عندنا.

وخلافاً لما يحسه رفاقي، فإنني لم أغذِ أية كراهية ضد الولايات المتحدة؛ فالمكتبة الأبوية، «برج بابل الجيب»، قد منعتني من أن أنمّي هذه النقيصة.

خلال اجتماعاتنا السرية، في الصالة الخلفية لمقهى «ديليس»، كنتُ ألزمُ الصمت؛ لأنني أعرف أنه لا أحد من الطلاب يستطيع أن يفهمني. لم يساعدهم الحظ في الاستفادة من قراءات مختلفة. وبالرغم من إرادتهم في قتل صدَّام حسين، فإن كراهيتهم للولايات المتحدة شكلتْ عنصراً رئيسياً من ثقافتهم السياسية، ألا وهو عنصر الاحتجاج.

ذلك أن الطاغية قد بسط حيلة رابحة: فبعد وصوله إلى القمة، لم يترك إلَّا إيديولوجية واحدة تنمو بحرية، وهي كراهية كل فكر أميركي؛ لم يقمعها كما لم يشجعها. كان قد تخلى عن السيطرة عليها؛ فهي عبارة عن عظم يُرمى للشعب، الذي يستطيع أن يقضمه وفق هواه. ومن حين إلى حين، إذا كان ذلك يدعم غاياته، فإن الدكتاتور يُقنع العراقيين بأنه يشاركهم ضغينتهم: ففي الماضي، استغل كره الأمريكيين ضد إيران

Twitter: @ketab_n

وضد الإمارات العربية حين سنحتْ له الفرصة وضد إسرائيل على الدوام. أما الآن، فإن بوش يهدده كما يهدد برنامجه النووي، لذا سخَّر صدَّام هذه الكراهية لتضليل التحالفات ولإعطائه صبغة شرعية جديدة بالنسبة إلينا؛ وهكذا، كان له عدو مشترك مع أسوأ خصومه.

في الجامعة، شخص واحد قد لمحني، لا بل استشف موقفي خلف صمتي. إنها ليلى. كنتُ مستعداً أن أراهن على أنها تتبنى وجهة نظري.

كانت ليلى تفتنني. فهي تنحدر من أسرة مؤلفة من أربعة إخوة أكبر منها، فتقدم بذلك قريناً لي، أنا الذي أتيتُ بعد أربع بنات. كانت ليلى، وقد تدربت على رفقة الصبيان، انسلتْ إلى مجموعتنا بيسر ورشاقة، وحين لم تكن تحضر دروسها في القانون، تنضم إلينا في المقهى حيث كنا نكرس ساعات لنعيد بناء الحضارات.

كانت امرأة تدخن بمتعة.

وإن من رأى ليلى بسيجارة تنساب بين أصابعها، فتشمها بحركة سريعة تحت منخاريها المرتعشين، وتُقرب قداحة التبغ، بحدقتيها اللتين تلمعان، وقد مدت رقبتها والانتظار يفترس وجهها، فتنتفخ شفتاها، وهي تهمس قائلة: «سترين، يا حسنائي، كم ستعطرين بمجرد اشتعالك»، أجل إن من رآها يدرك أنها تعرف ماذا يعني الموعد مع اللذة. هناك شرر وطقطقة. حتى الورق يتأوه فرَحاً. بعد ذلك، تحمل ليلى السيجارة إلى فمها وتمتصها بقوة عازفة موسيقى، ثم تغمض جفنيها وتحني رقبتها إلى

Twitter: @ketab_n

الخلف، كأن السيجارة تخترقها؛ فبسبب تقلص ما، وبعض التشنجات ـ كان صدرها يرتفع، أما كتفاها فتستندان إلى الأريكة وتتباعد ركبتاهاـ، فيشعر المرء بأن جسدها كله ينادي الدخان، فتتلقاه وتغبه، وهي راضية باجتياحه لها. فإذا ما فتحت عينيها ثانية، راحت رموشها ترف، بقزحية غير محدِدَة النظر، فتوحي بمحظية، مرتعشة ومذهولة، بخديها اللذين اصطبغا باللون الأرجواني، فبرزت بعد ليلة غرام مع السلطان؛ وقد يُخيل لثانية، أنها خشيت ألّا تكون قد لبست ثيابها من جديد. ثم تمر اليد التي بها السيجارة أمام الفم وتجذب شفتاها الشيء وتمسكه، فينبعث الدخان من حنجرتها ومن منخاريها، مرناً ومتراخياً وهائماً، بلون أبيض رائعٍ يتناقض مع اللحم الأسمر الذي يخرج منه.

طوال ساعات، كانت ليلى تشهق الدخان وتزفره، بانتظام، شأن أمواج المحيط على الشاطئ؛ وفي كل مناسبة، كان ذلك يبدو طبياً كأنه يحدث لأول مرة.

ففي فترات متقطعة، تبدو أنها تكتشف ثانية أننا هنا؛ فتركزُ حينئذٍ حدقة عينها المتوسعة علينا كي نلاحظ، بالرغم من المغامرة التي تعيشها مع تلك السيجارة، أنها تتابع حديثنا وتدعمنا وتطيب لها رفقتنا. فإذا لم تكن تتحدث على الإطلاق، فإنها تستمع بعظمة. كان كل واحد منا يترقب الموافقة من عينها السمراء الدكناء. ما من شاب ينطلق في فكرة دون أن يبحث عن موافقتها؛ فإذا ما ارتجلنا أحياناً خطابات مؤثرة، فلكي ندهشها: فكان صمتها يشع ذكاءً أكثر من رنين كلماتنا.

Twitter: @ketab_n

كنا نحتاج إليها، نحتاج أن تكون هنا، بيننا، تحتل مركزاً أساسياً وبسيطاً شأن نواة ثمرة.

كنا كلنا نعشقها قليلاً، وهذا ما يستشفه الجميع. أما أنا فكنتُ واقعاً في حبها.

كنتُ لا أبوح بولهي بها، خوفاً من الصد؛ فرحتُ أكتفي بنظرات ملتهبة، وبلمسات أيدينا المطولة. غالباً ما كنتُ أطلق تنهداً عظيماً وأنا أثبت نظري عليها؛ فكنتُ أشعر، من بريق حدقتيها، أنها استلمت رسالتي.

ثمة رفيق لم يشاطرني تكتمي، وهي التي أعلمتني بذلك، ذات مساء حيث كنتُ أرافقها حتى مدخل شارعها؛ ألقتْ في وجهي الخبر متحفظة، من طرف شفتيها، شأن نبأ عادي.

ـ عرض بشير عليَّ الزواج.

بقيتُ مُتسمراً في قارعة الطريق ثم صرختُ:

ـ متى؟

رفعت كتفيَها، وقد فوجئتْ من رد فعلي، وفكرتْ قائلة:

ـ يوم الجمعة الماضي، في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين، صباحاً. أو ربما في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين، وحتى الثلاثين والدقيقة الثانية والثلاثين... ربما الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والثلاثين... أتريد أن يحدد لي الوقت بالضبط؟

طأطأت رأسي، خجلاً.

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا تقولين لي ذلك؟

ردت قائلة:

ـ معك حق، لماذا أقوله لك؟

ابتسمتْ لي، فأشحتُ بوجهي وأضفت، وذقني يرتجف:

ـ وماذا أنت فاعلة؟

ـ في رأيك؟

كنت أغلي غضباً. كانت تعارضني بسؤال جديد، أمام كل سؤال أطرحه عليها، متمنية أن أكشف عن خوالج نفسي. كان الموقف حرجاً جداً بالنسبة إلى شاب عاشق، بل يكاد يكون قاسياً.

ـ ليلى، هل أنتِ متلهفة للزواج؟

ـ لماذا؟ هل عندك حل ما؟

بدأتُ أدرك خطتها، لكنني لم أستطع أن أقتنع بأنها كانت تمد يدها هكذا؛ رحتُ أتهم ذاتي بأنني أغذي أوهاماً.

ـ متى ستعطيه جوابك؟

ـ يوم الجمعة صباحاً بلا شك، الساعة الحادية عشرة. إنه توقيت ممتاز لهذا النوع من الأحداث، أليس كذلك؟

تظاهرت بأنني غارق في تأمل غيمة، فوق صورة عالية لصدَّام حسين وقف فوقها ثلاثة طيور سود.

ـ وماذا سيكون جوابك؟

ـ هذا يتوقف على أمور كثيرة، يا سعد.

Twitter: @ketab_n

ـ على أي شيء؟

ـ يتوقف على تفكيري. وعلى عناصر أخرى ستساعدني في أن أتخذ قراراً.

ـ آه صحيح؟

ـ أجل. هذا يتوقف عليك، على سبيل المثال.

ـ يتوقف عليَّ؟

ـ عليك. ما رأيك في ذلك؟

ـ في بشير؟ إنه مُغَفّل!

ابتسمتْ، سعيدة!

ـ بشير، إنه واحد من أفضل أصدقائك، وهو مُغَفَّل؟

ـ مغفَّل تماماً.

ـ منذ متى؟

ـ منذ يوم الجمعة الأخير في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين، أو الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين، وحتى الدقيقة الثانية والثلاثين... اختلفت المصادر.

ضحكتْ بصراحة. كانت تقدر كلامي. لم أذهب من قبل بعيداً هكذا في البوح بمشاعري. ألححت على طريقتي.

ـ يا لوقاحته، هذا البشير! يعلن المتكتم ميله بخبث وهدوء، وراء ظهرنا، دون أن يُعلمنا.

ـ لماذا؟ أكان عليه ان يرسل لك بطاقة دعوة؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنه يعرف أن كثيرين منا... هم...

ـ هم ماذا؟

ـ مثله... يعشقونك.

راحتْ ترتعش.

ألححت قائلاً:

ـ ليس ذلك بموقف شريف. إنه يباغتنا.

ـ نحن؟

ـ نحن.

أحسستُ حرارة قوية حتى كاد أن يُغمى عليَّ. فبالرغم من معرفتي ماذا يجب أن أقول، كنتُ عاجزاً عن ذلك. لا شيء يُجدي نفعاً. لم يكن الكلام يخرج من فمي.

انتظرتْ، ثم أدركت أنني لن أنجح في كسر تحفظي.

ـ وأنت، يا سعد، ماذا يتوجب لتتشجع فتبوح بحبك لامرأة؟

ـ تلزمني حرب!

صرختُ بذلك دون أن أفكر.

قلبتْ عنقها إلى الخلف، وقد انشرح صدرها، فراحت تستنشق الهواء.

ـ ممتاز، لن تتأخر الحرب. أسعدتَ مساءً، يا سعد.

ـ أسعدتِ مساءً، يا ليلى.

Twitter: @ketab_n

لم أستطع النوم، في ذاك المساء؛ كما لم تستطع، هي أيضاً، أن تنام، وهذا ما أكده لي في اليوم التالي جفناها القاتمان.

بالتالي، لم نكن نتحدث أكثر من الأشهر السابقة؛ وبالمقابل كان بيننا من الآن فصاعداً سر يجعل الصمت مثقلاً بالرغبات وغنياً بآمال مستقبلية ومشدوداً كخيط القوس قبل أن ينطلق السهم. كنا نتقاسم الصمت المفعمَ بالوعود.

بدت الولايات المتحدة تهدد، من خلال صوت رئيسها بوش. حتى إن صدَّام حسين ذاته أحس الخطر، فلكي يتجنب المجابهة ـ أو ليؤجلها، سمح بدخول أرضنا لخبراء من الأمم المتحدة جاؤوا للتأكد من أن العراق لا يملك إلسلاح النووي. وفي نهاية تفتيشهم، كتبوا تقريراً. لكن بوش لم يُصدق نتيجتهم السلبية، كما لم نصدق نحن ذلك. كنا مقتنعين بأنَّ صدَّام يملك السلاح الفائق؛ وإلَّا ما جدوى كل الآلام التي نعانيها؟ فإن ما يبرر هذه السلطة العظيمة التي نرزح تحت ثقلها والتي أبادت جزءاً من السكان، هو أنه قوي، الأقوى، بالضبط. كنا نتبادل، فيما بيننا، أنغاماً اتفقنا عليها: إن صدَّام يملك القنبلة، ومن الأفضل إذا كان يُخفيها!

فإذا استثنينا ثلة من المسالمين، وبعض الأمهات اللواتي يخشين على أبنائهن، كان الناس جميعاً يتمنون الحرب.

فبعد عشر سنوات من الحصار الاقتصادي، لم تعد بغداد أعوامي العشرين تُشبه بغداد طفولتي. كانت هناك دائماً الشوارع

Twitter: @ketab_n

العريضة، لكنها بقيت قفراً؛ قد تسير فيها أحياناً سيارات أجرة عتيقة، بسقوف رُصت عليها الفرشُ والأكياس، التي تحمل من الأردن المواد الغذائية المفقودة لدينا؛ فإذا استثنينا بعض السيارات الحطام، فإن السيارات النادرة والجديرة بتسميتها سيارة تغامر في دخول المدينة والتي كانت مصفحة، لا يمكن أن يصيبها أذى ويملكها أسياد النظام. فالمستشفيات، التي كانت موضع فخر للعراق، أصبحت توحي بمراكب غارقة، بمصاعدها الصدئة ومعداتها العتيقة وقاعاتها القذرة وصيدلياتها الفارغة وطاقمها المؤلف من الأشباح.

كان من العسير أن نعمل، ليس بسبب الكهرباء وحدها التي تُقطَع ثماني ساعات في اليوم، بل لأن انخفاض قيمة النقد قد أضعف الأجور حتى إنها أمست هزيلة جداً. كنا نفاجئ أساتذتنا في الجامعة، في مفترق إحدى الطرق، وقد انهمكوا في بيع الصودا وعلب البسكويت؛ باع أهلنا بأبخس الأثمان كل الأشياء الثمينة التي يملكونها من حلي ولوحات وتُحف وكتبٍ؛ فبعد بيع أثاث غرفة الاستقبال، لجأ بعضهم إلى بيع مجالي المطبخ والنوافذ والأبواب التي أتوا عليها كلها؛ أصبحنا نسكن بيوتاً باردة ومعتمة وعارية. لم تكن تستعمل أمي ماء الحنفية، الملوث بالمجاري غير الصالحة، دون تصفيته وغليه؛ وما عدا ذلك، كانت والدتي لا تخصص للطبخ إلّا وقتاً قليلاً، وذلك بسبب نقص المواد الغذائية؛ وبالمقابل، كانت هي وأخواتي يمضين نهارهن لإيجاد اللفت، أو السلطة الهزيلة، أو فخذاً واهناً ندعي أنه فخذ «حمل»،

Twitter: @ketab_n

دون أدنى يقين إن كان فخذ قط أو كلب. وبسبب مطاردة الجرذان، أو الحيوانات الأليفة، أصبح اجتياز شارعنا اختباراً للأنف، وذلك لأن كل زاوية منه تفيض بالجثث المُفَرَّغة، وبالهياكل التي هي عرضة للفساد، وبالجيف التي تضيف بعضاً من تفسخها إلى الرائحة الغامضة والعامة، كما كان هناك مجارٍ ممتلئة ومحطات تنقية مهجورة وغير صالحة للاستعمال.

كان الناس يتمتمون قائلين: «فليطلق الأميركيون القنابل! لن تسوء الأمور أكثر مما نحن فيه، ليس ثمة ما نفقد. فسواء كان المرء مؤيداً لصدَّام أم معارضاً له، فليقم العراق بالقتال سواء انتصر أم انهزم، فالجميع متفقون على أن الحرب وحدها هي التي تضع حداً للحصار الاقتصادي».

فيما عدا ذلك، تضاربت الآراء.

كيف يمكن أن تكون الأمـور غير ذلك؟ ونحن مختلفون. والأخطر من ذلك أيضاً هو: أن كل واحد منا يحمل في داخله كائنات كثيرة مختلفة.

فمن أنا في حد ذاتـي؟ هل أنا عراقيٌ؟ وعربيٌ؟ ومسلمٌ؟ وديموقراطيٌ، وابن؟ وأب في المستقبل؟ ومفتون بالعدالة وبالحرية؟ وطالب في الجامعة؟ ومستقل؟ وعاشق؟ كل ذلك؛ إلَّا أن كل ذلك غير منسجم معاً. فالإنسان يستطيع أن يقدم أنغاماً كثيرة وفق تركه لهذا الصوت أو ذاك يتحدث به، فأيُّ صوت عليَّ أن أفضله؟ فإذا اعتبرت

Twitter: @ketab_n

نفسي عراقياً أولاً، حينذاك وجب عليّ أن ندافع ضد المحتل الأميركي وأتعاضد مع صدَّام. وإذا نظرت إلى نفسي كديموقراطي، فمن الأفضل أن أتحالف مع الأميركيين وأطيح الطاغية. وإذا حددت موقفي كمسلم، فلن أتحمل الكلمات ولا الأسلوب ولا الحملة الصليبية لبوش المسيحي ضد الإسلام. وإذا فضلتُ مثلي الأعلى في العدالة والحرية، وجب عليَّ، على العكس، أن أقبل بوش كي يُحسن خنق صدَّام الطاغية والمُتْرَف. ومع ذلك، أليس على العربي الذي في داخلي أن يحذر من الغربي عديم الذمة الذي يطمع بأرضي أو بعصير أرضي الأسود، البترول، وبشكل خاص من هذا الغربي، أي الأميركي الذي يدافع عن إسرائيل بلا شرط، حتى حين تنقُضُ هذه الأخيرة التزاماتها نحو عرب فلسطين؟ وبمجرد أن أعبِّرَ هكذا، أشكّلُ حينذاك جوقة موسيقية مؤلفة مني وحدي، لكنها جوقة بنبرات متنافرة وبآلات نشاز، وهي عبارة عن ضجة صاخبة.

لا شك، أنه في لحظة محددة، أمام مخاطب حقيقي، كنت أعرف أنني سأرضى بأن أكون محدثاً منفرداً: حينذاك، لا يتردد في داخلي إلَّا سعد واحد، فأبسِّط الأمور، وأفَضِل مثلاً سعد الديموقراطي... مع ذلك، إذا ما سجَّل أحد خلال يوم أحاديثي المنفردة والمتتابعة، ثم مُرِّرت في آن واحد، لسمعت من جديد الغوغائية. إنها سيمفونية متنافرة، وصخبٌ يعود إلى تصادم هوياتي.

أفضيت إلى والدي بتمزقي وبالصراعات في داخلي.

Twitter: @ketab_n

ـ يا أبي، كنتُ في الماضي ألوم نفسي لأنني غالباً ما أغير أفكاري؛ أما اليوم، فإنني أدرك أنه لا مفر من ذلك.

ـ معك حق، يا ابني. فأصعب شيء في مناقشة ما، ليس الدفاع عن رأي، ولكن أن يكون لك رأي.

ـ ورأي واحد فقط!

ـ أجل، لأن هناك كثيراً من الأشخاص في أعماقنا جميعاً. والغبي فقط هو من يظن أنه الساكن الوحيد في بيته.

ـ وكيف يتصرف؟

ـ لقد أخرسَ أجزاء كثيرة من ذاته، وأقفلَ عليها في خزانات. وبالتالي، فهو يتشدق بالكلام بوضوح، وبصوت منتَظَم.

ـ إنه يُحسد عليه، أليس كذلك؟

ـ يُحسد الغبي دائماً على غبائه.

ألح الوالد كي أصب الشاي ثانية، ورحت أبذل جهداً لأسترجع هدوئي.

ـ أجل، يا ابني، إننا نتمنى أن نلقي خطاباً بسيطاً وحازماً ونهائياً. وقد يُقنعنا بتقديم الحقيقة على شكل شرائح. لكن كلما نمَّى الإنسان ذكاءه، فقدَ هذا الطموح؛ فيكتشف حينذاك عقده، ويتحمل توتراته.

ـ أود ألَّا أناقض نفسي.

ـ لكننا هكذا نتعرف إلى الغبي، فهو لا يتناقض مطلقاً. لماذا يسمُّون البُلهاء بالأجراس؟ لأن الجرس لا يعطي ألَّا نغماً واحداً.

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً، إنني لست بجرس جيد. إنني جرس متصدع.

ـ يا ابني، لا يدق الجرس دقاً صحيحاً إلّا حين يكون مكسوراً: حينذاك يعطي أنغاماً كثيرة معاً.

في مقهى «ديليس» حيث كان الطلاب يتجابهون بشكل مباشر، كان الصخب يصل إلى ذروته، مما يوحي أن البلد سيدخل حرباً أهلية قبل أن يصل أول صاروخ أميركي، ذلك أن المشاعر المتضاربة في كل مناقشة تكاد تنتهي بالمجابهة الجسدية. كان السنَّةُ متمسكين بخط صدَّام حسين خوفاً من أن يفقدوا نفوذهم، أما الشيعة فلقد ظهروا أكثر تحفظاً؛ لكن بعضهم رفض مع ذلك الوقوع في التطرف الذي ينادي به الإسلاميون العنيفون، في حين كان بعض العراقيين المتهورين، المنادين علناً بالديموقراطية وبالتعددية، يستنكرون باسم الغائبين، من الأكراد والمسيحيين أو اليهود، منددين عنهم ما يعانيه الأكراد ـ هؤلاء الذين نجوا من المجازر ـ وعن المسيحيين الذين لم يرحلوا ـ أو عن العراقيين اليهود ـ فهل بقي واحد منهم؟

فسواء لأنني كنتُ غارقاً في تناقضاتي، أو لأتقرب من المرأة التي أحبها، أنضمّ إلى صمت ليلى. فإذا ما تحادثنا، فخارج المقهى حين أرافقها، ونادراً ما كنا نتحدث في السياسة. فبعد أن اعترفت لي أن أباها قد عُذِّب وسُجن سنوات كثيرة لمجرد مجانسة ـ كان يحمل اسم أسرة شيعية شهيرة، معادية لصدَّام حسين ـ طوتْ هذا الموضوع نهائياً. وبالمقابل، كان حديثها لا ينضب بمجرد أن تتطرق إلى حبها

Twitter: @ketab_n

للغة الإنكليزية التي تجيدها بشكل تام، واكتشفنا ميلاً مشتركاً لأغاتا كريستي.

أفضت لي قائلة:

ـ لا شيء يبعث في نفسي الهدوء والراحة بقدر قراءة رواية من رواياتها، فقراءتها مُطمئنة.

ـ مُطمئنة؟ إلَّا أن الصحف والمجلات تُسميها «ملكة الجريمة»!

ـ أي شيء أكثر طمأنينة من عالم لا يوجد فيه إلَّا جرائم عائلية، مرهفة، وقد أخرِجت بشكل فني، ونُفِذتْ من مجرمين أذكياء يستعملون سموماً معقدة. بالنسبة إلينا، هنا، نحن الذين نعيش في عالم فظ ومتوحش تسيطر فيه القوة، كم هو لذيذ هذا الجو الغريب والساحر.

ـ معك حق. بالإضافة إلى ذلك، فإن عُقَد رواياتها لها بداية ونهاية وكل مشكلة تلاقي حلاً لها؛ فيعود السلام بعد توضيح الجريمة.

ـ هذا كل ما في الأمر! إنها تموجات موقتة فوق سطح ماء ساكن... يا لها من جنة! كم أود أن أعيش في إنكلترا. حين أتقاعد، أصبح عجوزاً رائعة تحل ألغاز جرائم بين تحضير فطيرة بالتفاح وتقليم أزهار «الجيرانيوم» التي أعتني بها.

في آذار من عام ٢٠٠٣ حين شنَّ الأميركيون الحرب على العراق، كنتُ، بلا شك، أسعد رجل على وجه الأرض، لأن العاشق انتصر دون منازع. لقد أجرى مجزرة على الشخصيات المختلفة التي قد تتصرف في داخلي، فقتل العراقي والعربي والمسلم، ولم أفكر، خلال بضع

Twitter: @ketab_n

ساعات إلَّا بالإشارة التي أرسلها بوش إليَّ: كان يوم الإشهارات: إشهار الحرب وإشهار الحب!

حين رأيت أن ليلى لم تذهب إلى الجامعة، هرعتُ إلى بيتها. وحالما صفَّرتُ مرتين في أسفل بنايتها، ظهرت من نافذة الطابق الثالث، وقد صففت شعرها، وتجملت، بعينين رطبتين.

صرختُ قائلاً:

ـ ألا تأتين؟ يجب أن أكلمك.

بمجرد وصولها إلى أسفل السلم، أخذتها بين ذراعيَّ، وألصقتها بجدار البهو ورحت أتفحص بحرارة هذا الوجه المتكامل، والشفة المبرومة، والسن الصغيرة.

ـ ليلى، إنني أحبك.

ـ وأنا أيضاً.

ـ وأريد أن أتزوجك.

ـ أخيراً...

قبَّلتها. فذاب فاهانا.

ـ ليلى، إنني أحبك.

ـ لقد قلتَ ذلك.

ـ إن الأمر في منتهى السهولة الآن.

ـ في الواقع، كانت الحرب هي التي تلزمك بالضبط.

ـ ليلى، أحبك.

Twitter: @ketab_n

ـ ردد ذلك على مسامعي حتى نهاية العالم.

حين عدت، في المساء، إلى بيتي، لا شك أن سعادة جريئة قد ارتسمت على وجهي. ارتاعت أخواتي وأمي من هذا الصراع الذي قد يحرمهن من رجالهن، فظنن أن نشوة القتال قد أصابتني عدواها ونظرنَ إليَّ، بعدوانية.

كان والدي أسرع الجميع في سؤالي.

ـ يا سعد، يا لحماً من لحمي، ويا دماً من دمي، يبدو كأنك عائد من مكة.

ـ يا أبي، إنني عاشق.

انفجر ضاحكاً واستنفر النساء، وهو فرح، ليعلن لهن، قائلاً:

ـ إن سعداً عاشق.

سألت أخواتي بغبطة:

ـ من هي؟ هل نعرفها؟

ـ كلّا. تُدعى ليلى، وتدرس الحقوق معي في الجامعة.

ـ و...؟

راحت أخواتي يلقين عليَّ وابلاً من الأسئلة، إنهن يرغبنَ في معرفة المزيد، ويتمنينَ، بشكل خاص، أن يعرفنَ كيف يصف رجل عاشق المرأة التي يحبها.

ـ هيا، يا سعد، اروِ لنا متى وقعت في الحب؟ ولماذا؟

أجبت بنشوة:

Twitter: @ketab_n

ـ لو ترونها وهي تُدخن...

استمر ضحك الأسرة متواصلاً حتى المساء؛ كانت والدتي، وقد قلقت من فكرة تركي لها من أجل امرأة غريبة، استسلمت لتلك الغبطة؛ أما أختي التي تكبرني مباشرة، فقد أطلقت علينا، أنا وليلى حوالى منتصف الليل تسمية «المشعل ورجل الإطفاء».

إنني أجرؤ على كتابة ذلك، ولست مبالياً إذا كرهني الناس: بالنسبة إليَّ، لم يكن ثمة شيء أكثر إثارة من تلك الحرب على الإطلاق! فبينما كانت الفرق الأميركية تتقدم لحصار بغداد، وبالرغم من الحواجز ومنع التجوال، كنا نلتقي، أنا وليلى، مرات كثيرة في اليوم، فنرتمي في أحضان بعضنا، ونتبادل القبلات، ونحترق شوقاً، وكل واحد منا يضغط على الآخر حتى يكاد أن يسحقه، ونجد صعوبات متزايدة كي لا نتبادل الغرام. كان علينا أن نضبط أنفسنا، بسبب ديننا، وبسبب أسرتينا؛ حين كنا في ذروة شهوتنا، وقد راحت ليلى ترجوني ألّا أتخلى عن وعدي كبرهان على حبي لها، وقد كدت أنسى هذا الوعد؛ وحين كانت هي التي ترجوني أن أستسلم لها، كنت أهمس في أذنها قائلاً: «لا أريد أن تلومني زوجتي لأنني لم أحترمها وهي شابة.» فحين يصبح الأمر فوق طاقتنا، كنا نفترق، بعنف، وغضب، فنضطر إلى أن نسير مسرعين، طويلاً، كل واحد من جهته، كي نهدأ. ففي بغداد المشتعلة، وبسبب المعارك والقصف وصفارات الإنذار التي تطلق موجات طويلة من الهلع، كنا نهتزُّ شأن سمكتين من أسماك القرش أثارتهما الدماء، كان

Twitter: @ketab_n

جسدانا يغليان بحياة غير محتشمة. ربما خططت الطبيعة ذلك؟ ربما في حكمتها الحيوانية، قد زلقت الشهوة خلف الخوف وكذلك الشهوة المتقدة والمنتصبة التي يزيدها الخطر عشرة أضعاف وكذلك التوتر الذي يصعب كبته فهو يؤَمن انتصار الجنس على الموت؟ بمجمل القول، كانت الحرب أكثر إثارة للجنس من الدكتاتورية.

بعد عدة أيام من المعارك، اكتسحت الدبَّابات الأميركية العاصمة حيث سيطر شعور بالهزيمة. واعتبر غالبية البغداديين أنهم قد هُزموا؛ حتى هؤلاء الذين كانوا مغتبطين من إطاحة صدَّام رأوا أنه من المهين عدم استطاعتهم وحدهم الإطاحة به، وأنهم احتاجوا إلى هؤلاء الأميركيين المكروهين؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن الخسائر البشرية أضحت ثقيلة.

لكن الوعود الأميركية راحت تنهال، شأن المؤن، وكان الجمهور يرغب في أن ينسى وأن يبتهج، حتى إنهم، يوم أطاحوا تمثال صدَّام حسين، في ساحة الفردوس، كنا كثيرين نبكي ونصرخ صادقين فرحاً.

فمع ثلاثين طناً من البرونز سقطتْ أرضاً، كانت ثلاثون سنةً من الرصاص تعض التراب. انتهى الطغيان. وسيكون لنا الحق، أنا ورفاقي، في مستقبل حر وديموقراطي وبدون تعسف أو استبداد. كان قلبي يقفز فرحاً في صدري. صرختُ حتى بُح صوتي من الصراخ، وهتفتُ بكل الشعارات المقترحة على حناجرنا الفتية والمتحمسة. فبالرغم من وجود القوات البحرية الأميركية المبالغ فيها، وكذلك

Twitter: @ketab_n

الصحفيين الأجانب، كنا نتآخى جميعاً. يا إلهي، كم كنتُ مستعجلاً للقاء ليلى لأروي لها الحدث!

في الساعة الثامنة مساءً، بعد أن قبّلت أشخاصاً أكثر مما قبّلت في حياة كاملة، وراحتاي تدميان من كثرة ضربات العصا لصور الطاغية، وأنا أبكي من السعادة على كثير من الأكتاف المجهولة، تركت هذه الغبطة بأسف واتجهت نحو حي ليلى.

حين اقتربت من شارعها، أدركتُ فوراً ماذا حدث.

فبدلاً من بنايتها، فُغرت فسحة خاوية، تراكم فيها التراب والدخان الأسود. كان البناء قد أصيب بقذيفة من صاروخ. لم يبقَ إلّا أحجار متفرقة، وكتل من الإسمنت بورق مرسوم بَهُتَ لونه وجبس ترابي وعوارض ملتوية تمد أيديها الشوهاء نحو السماء.

ـ ليلى!

ركضت على الأنقاض وصرخت اسمها بما بقي لي من صوت.

ـ ليلى!

انقضضت على المتسكعين، وقد تمزق بلعومي من الصراخ، وأنا أجوب المخازن المجاورة، ودخلتُ البنايات الملاصقة.

ـ ليلى!

لم أجدها في أي مكان.

عدت إلى الخرائب، وقد انتابني الهلع، فاقتلعتُ المجرفة من يد أحد العاملين في الإنقاذ.

Twitter: @ketab_n

ـ ليلى!

رنَّ صوت في ظهري قائلاً:

ـ ماتت ليلى، يا سيدي.

حين استدرتُ، تعرفتُ على الحارس المُقعَد، بشاربه الفضي، والذي رآني، مئة مرة، أصحبُ ليلى إلى بيتها.

ـ إبراهيم؟

ـ نعم، يا سيدي سعد. كنتُ في المقهى المقابل حين حدث كل ذلك. وكما تعرفُ، تسكن ليلى مع أهلها الطابق الثالث. هناك نفذت القذيفة، فاشتعل هذا الطابق، وكان الأول في الانهيار.

ـ هل أنت... أنت متأكد من ذلك؟

ـ إنني آسف، يا سيدي، آسف.

طأطأ رأسه، وقد هدَّه الحزن.

كانت تُسمع، في الشوارع القريبة، أصوات البهجة والموسيقى والمفرقعات التي تحتفل بسقوط صدَّام بتمثاله البرونزي. كان الغسق، ببطئه وألوانه الذهبية، يحمل هواءً ندياً من الجبال، وبغداد، السعيدة، تستعد للرقص طوال الليل.

Twitter: @ketab_n

٣

- كيف أبكيها ولم أرها ميتة؟

كان والدي، وهو يسعل سعالاً خفيفاً من الضيق والانزعاج، يحاول أن يسيطر على انفعاله، قبل أن يجيبني. تابعتُ قولي:

- إنني أشد برودة من الحجر. لا أشعر ولا أفكرُ ولم أعد أرغب في شيء.

- اشرب قليلاً من الشاي.

أخذتُ الكأس بيد متراخية، كي أسايره.

لم يكن البيت يرن بأية ضجة؛ كنتُ أعرف هذا السكون المُفتَعَل؛ من المنطقي أن تكون أمي وأخواتي قد اختبأن في الغرفة المجاورة، بأنفاسهن المكتومة وبآذانهن الملتصقة بالحاجز، وهنّ يأملن أن يتفوه والدي بالكلمات الملائمة. فمنذ ثلاثة أسابيع - أي منذ موت ليلى - وأنا في شقتنا، أعاني وهناً، دون أن ألفظ أكثر من نصف جملة في اليوم، وكذلك كنت ضحية خمول وبلادة أفقدتا أسرتي صوابها. كانت مهمة والدي أن يعزيني ويقويني، وأنا متربع أمامه، على سجادتنا الوحيدة.

Twitter: @ketab_n

بعد ستة وعشرين يوماً من القتال، أعلن الرئيس بوش انتصاره، في صباح أول أيار من عام ٢٠٠٣. أما رئيسنا، صدَّام حسين الرهيب، فلم يرُدْ، شأن جرذ اختبأ في قبو؛ وكان هذا الصمت وحده دليلاً على انتصار بوش. توقفتِ المعارك الرسمية. أراد جيش الغزاة من الآن فصاعداً أن ننظر إليه كجيش من المحررين والمنقذين. كنا في أسرتي، مستعدين لمنحهم تلك الثقة.

ـ انتهت الحرب، يا ابني.

ـ وكذلك سعادتي، يا أبي.

ربتَ كتفي، وهو عاجز عن الإجابة، وقد اضطرب لاكتشافه مشاعر تتفق مع مشاعري على هذا النحو.

ـ إنك شاب.

صرخت بعنف:

ـ وماذا يعني ذلك؟ ألا يتألم الإنسان حين يكون شاباً؟

ـ بلى. إلَّا أن المستقبل لا يزال أمامك؛ تستطيع الحياة أن تتغلب على هذا الألم. لن ترى ليلى على الإطلاق لكنك ستلتقي نساءً أخريات.

ـ إذاً هكذا كما يقول المثل: « تفقد واحدة، فتجد عشراً!»، هل أنت مقتنع بما تقول؟

ـ كلّا، ولا لثانية واحدة... إلَّا أن... فلنرَ... لستُ مع ذلك مخطئاً حين أوكد لك أن عقوداً تنتظرك. قارنْ ذلك مع رجل في مثل عمري

Twitter: @ketab_n

على سبيل المثال؛ بالنسبة إليَّ، إذا توفيت والدتك، فلن يعود لديّ وقت لكي...

ـ أنت تكون قد عشتَ معها ثلاثين عاماً!

ـ سامحني. أرغم نفسي على إيجاد أفكار معزية. في الحقيقة، أنا منهار تماماً، حتى إنني عاجز في هذا الوضع عن اصطياد فكرة. حينئذٍ، شأن أي أبله، أكرر تفاهات سمعتها ألف مرة وأنا آمل أن... آه، سامحني، يا سعد، سامحني! في الواقع، إنني متألم عنك، ولا أعرف ما أقوله لك، يا ابني.

دون أن يشك في ذلك، لقد لفظ أخيراً الكلمات الصائبة: التجأتُ إليه، وجفناي ينملان، وخبأتُ رأسي في جنبه، وأجهشت بالبكاء طويلاً، وبطيئاً، وأنا جامد شأن جسد يدمي.

قطع دويٌ هذا السلام، فاندفعتِ النساء المذعورات داخل الغرفة.

ـ عاد القصف ثانية!

كانت أمي ترتجف.

قفزتُ على ساقيَّ، وانحنيت على النافذة وشممت الهواء المحيط بي.

ـ أعتقد أن ما يحدث يقع على بعد مئة متر من هنا. لن تصيبنا القنابل. لا تقلقي، يا أمي.

ـ أنت على صواب، يا سعد! ابني يموت حزناً، فخطيبته قد

Twitter: @ketab_n

تحولتْ إلى رماد والبلد يغوص في الفوضى والقنابل تنفجر دون أن نعرف من أين تأتي، يجب على المرء أن يسكر كل مساء كي ينام لأن المدينة أصبحت صاخبة كثيراً، لكن ذلك يلائمني، يجب عليَّ ألَّا أقلق!

لا أحد من الناس يستطيع أن ينكر سخطه وغضبه: فمنذ أن انتهت المجابهة وفق الخطة المرسومة لها، أخذ الوضع يزداد سوءاً. فبعد حرب الأقاليم، أعقبتها الحرب الأهلية. لم يستغرق الأمر أكثر من عدة أسابيع حتى أصبح الناس جميعاً يخاصمون بعضهم بعضاً؛ وكما استشفه والدي، لن يبرأ العراق بدون صدَّام حسين، وبقي البلد مصاباً بعقدة الاضطهاد، والمرض راح يستفحل، مضاعفاً فتكه.

فالسُنة الذين كانوا يسيطرون على المجتمع في عهد صدَّام، وقفوا ضد الحظوة التي نالها أهل الشيعة، والذين كانوا أقلية، فراحوا يرتقون، منطقياً، مدعومين من قوى الاحتلال، إلى مناصب استراتيجية. قُسِمت بغداد إلى مناطق شيعية، ومناطق سنية، ومناطق أميركية، فأصبحت المناطق كلها فسحة من عدم الأمان حيث يتواصل الناس بالرصاص أو بالمتفجرات، وقد استوحوا تصرفاتهم من مناهج «القاعدة» الإرهابية وراحت الهجمات الانتحارية تتضاعف. لا يمضي يوم ولا ليلة بدون خوف لأن كل عمل قد أصبح خطِراً: فالذهاب إلى السوق يُعَرِّض لقنابل بشرية وركوب الباص يُعرض للسيارات المفخخة واجتياز الشارع يعرض لرصاصات طائشة والعودة إلى البيت واللجوء خلف جدرانه لا يخمي من رمي القذائف.

Twitter: @ketab_n

كنتُ متحفظاً من التورط في تلك الصراعات، مستغرقاً في حزني. وبالإضافة إلى عدم خروجي من البيت، ودروسي المعلقة، وتجنبي مقهى «ديليس»، كانتْ أفكاري تتخبط في البلبلة؛ لم يكن عندي إلّا انطباع واضح وهو عدم جدوى العمل، لذلك علينا دائماً أن نعاني ونتحمل.

ذات صباح، وأنا أغتسل، لاحظت ثلاث نقاط قاتمة تحت قدميَّ، أريتها فوراً لوالدي.

ـ إنها ثآليل يا ابني.

ـ لم أصب بها يوماً!

ـ غالباً ما تظهر الثآليل، إذا ما رافقنا ميتاً إلى قبره.

ـ هل يأتي ذلك من التوابيت؟ أم من الجثث؟

ـ كلّا.

ـ على كل حال، لم أرافق أحداً إلى القبر...

ـ إنها صدمة عاطفية، يا ابني. سألجأ إلى استعارة لأوحي إليك أن الثآليل تولد من الأحزان.

ـ نجحتَ بتفوق: بخمسة على خمسة! لقد أُصِبتُ بصدمة، أليس كذلك؟

ـ إن الثآليل هي أزهار تُنبتها النفوس المعذبة على جلدها.

وقد أمسك رجلي بيد، وسوّى نظارتيه باليد الأخرى، فحص أزهار الأقحوان الثلاث القاتمة.

Twitter: @ketab_n

ـ هناك طريقتان لإزالتها: إمّا أن تدهن جلدك بمستخلص مغلي من الليمون والخل الأبيض، وإما أن تسمي تلك الثآليل.

ـ أختار العلاج رقم واحد. لا أرى كيف أسمي ثآليلي...

ـ لكن الطريقة الثانية ناجعة أيضاً. أعرف صديقاً جرجرَ ثؤلولة طوال عشرة أعوام. كانت قاسية، وعنيدة، ومقاوِمة، ولم يفلح في علاجها أي قشط، أو محلول. في اليوم الذي سمّاها فاطمة، اختفت.

ـ فاطمة؟

ـ فاطمة، والدته، وقد كانت امرأة شرسة ومرعبة، عانى منها أقسى العذاب دون أن يقُرَّ بذلك في نفسه في الماضي. فبمجرد أن تطلق عنواناً صائباً على ثؤلولة، أي ذاك الذي يُفسر أصلها، تمحوها.

ـ هل حدث ذلك معك؟

ـ أجل.

احمرّ وجهه، وخفض صوته.

ـ لقد نمت عندي ثؤلولة خلال العامين الأولين من الزواج مع أمك.

ـ هل وجدتَ اسماً لها؟

ـ نعم.

ـ وماذا كان؟

ـ سعد، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، ويا عرق النجوم، هل تعدني بالحفاظ على السر؟

Twitter: @ketab_n

ـ أقسم برأسي.

ـ كانت تُدعى ثؤلولتي مريم. وهي شابة تمنيتُ أن أتزوج بها. قبل أمك، تماماً.

ـ قبل؟

أصبح وجهه قانياً وتمتم وهو يُشيح بعينيه قائلاً:

ـ تقريباً.

تلقيتُ بوحه ببسمة حانية ثم رحت أفكر: كيف تدعى ثآليلي؟

ـ أبي، هل تحمل الثآليل دائماً أسماء نساء؟

ـ غالباً ما تحمل ثآليل الرجال أسماء نساء. لكنك لا تركز تفكيرك على ذلك: هناك ثآليل تُدعى الندم، والأفيون، والويسكي المكثف.

كنتُ إذن أجرجر ثلاث ثآليل، عمَّ كانت تُعَبِر؟ كنتُ في حيرة من أمري، أهي آلام وهموم... أم سلام؟ وسعادة؟ وحرية؟ ومستقبل؟ وحب؟ وأطفال؟ ودراسة؟ وعمل؟ من الآن فصاعداً، كان كل شيء يطرح مشكلة، بالنسبة إليَّ. كان حزني الشديد يمنعني من أن أفكر وأستبطن، فطلبت من والدتي أن تعد لي محلولاً بالخل والليمون.

كان في استطاعتنا أن نتأقلم مع الفوضى ـ لقد كنا معتادين الدكتاتورية تماماً ـ أجل، حاولنا جهدنا أن نتحملها ونعيش فيها شرط أن تبقينا بمنأى عن المصائب، وإن كانت تقض مضاجعنا في حياتنا اليومية. لكن الفوضى انقضت على أسرة سعد، في يوم من أيام تموز من عام ٢٠٠٣.

Twitter: @ketab_n

كيف أروي المأساة؟ سأكتفي بنقل الأحداث، شأن محضر ضبط، أعرضه، بلا تأثر ولا انفعال، وفق نظام قاسٍ جرت بموجبه تلك الأحداث.

في منتصف صباح ذاك اليوم من ١٢ حزيران، من عام ٢٠٠٣، تقرر أن يذهب الرجال، أي أنا وأبي، إلى السوق، وهي رؤية تزداد جاذبية لأنها تتيح لنا لقاء زوجيْ أختيَّ الصغريين في مكان عملهما. كان أحدهما يبيع التبغ، أما الآخر فيحرس مدخل دكان لأواني الطعام.

جلسنا في سطح مقهى نتجاذب أطراف الحديث طوال ساعة من الزمن، ونحن نتمتع بالشمس، التي لم تكن حارقة كما ستصبح قريباً خلال الصيف لتصل إلى خمسين درجة.

ـ يا أبنائي، يا لسعادتنا ونحن رجال فيما بيننا حتى إننا نسينا المهمة التي أوكلتنا إياها النساء وهي: أن نملأ سلالنا.

في تلك اللحظة، راح شخص يخترق الجمهور، بسرعة، وهو يدفع المارة.

صرختُ قائلاً:

ـ سارق آخر يهرب.

انتصب صهري ، حارس المخزن بتوقد.

ـ آمل ألا يخرج من عند رب عملي!

قفز قلقاً، وسط الجمهور.

اقترح عليه صهري الثاني وهو يلحق به قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ سأساعدك.

رأيناهما يتقدمان نحو الهارب، الذي راح يتصرف بغرابة، أقرب إلى المجنون منه إلى السارق؛ لم تكن جولته تقتصر على الاتجاه مرة نحو اليمين، وأخرى نحو اليسار، بل لم تكن له جهة محددة، كما كان يضحك بملء شدقيه، ومقلتاه بالغتا الاحمرار، وهو يؤدي حركات غريبة تحت جلبابه الفضفاض.

فجأة، وقد أوشك صهراي أن يحاذياه، تسمر السارق، محدقاً إلى السماء، وقلبَ رأسه وأطلق زئيراً.

ومض بريق أبيض، تلاه دوي. فانفجار.

اهتزت الأرض؛ وارتجفت الأعمدة التي استندنا إليها. وقع والدي بجانبي، وقد فقد توازنه، فأمسكت به قبل أن يصطدم رأسه بالأرض.

وبينما كنتُ أنهِضه، استولى الهلع على الجمهور، فدوَّت صرخات من كل مكان. صرخاتٌ من وقع المفاجأة وصرخات فزع وصرخات ألم.

لقد انفجرت قنبلة.

فالشخص الذي حسبناه سارقاً يهرب بسرعة، كان قنبلة بشرية، مناضلاً يحمل تحت جلبابه حزام متفجرات أفلت صاعقه في قلب السوق.

صرخ والدي بألم:

Twitter: @ketab_n

ـ صهراي!

صعدت على الطاولة محاولاً أن أرى المشهد. فحول النقطة التي فجر الإرهابي نفسه، كانت هناك عصيدة من اللحم والدم.

أشحتُ وجهي، بحركة عفوية قائلاً:

ـ لا أعرف.

ـ ماذا؟

ـ لا أعرف، يا أبي. فالمشهد رهيب.

ـ هيا نأتي بإسعافات!

هرولنا مسرعين، تاركين المقهى لنصل إلى شارع رئيسي أكثر فساحة.

قرر أبي قائلاً:

ـ اذهب إلى اليسار، هناك أحياناً سيارات إسعاف تقف أمام المقر. أما أنا، فسآخذ جهة اليمين، لأعلم الأميركيين.

وأسرع أبي نحو منظّم جنود.

ماذا خطر في باله؟ ولماذا صرخ بالعربية وليس بالإنكليزية؟

لماذا لم يصغِ إلى تهديداتهم حين طلبوا منه ألّا يقترب؟

أعتقد أنه كان مضطرباً، وقلقاً يحرص على أن ينقذ حيوات؛ فلم يدرك أنه لا يحدثهم بلغتهم.

اندفع نحوهم وهو يصرخ، بصوت متهدج، خنقه الانفعال، فاتحاً ذراعيه عالياً في الهواء، بعينين جاحظتين. كان يلهث بقوة حتى إنه لم

Twitter: @ketab_n

يسمع نداءاتهم تأمره بالوقوف؛ أراد أن يتصرف بسرعة منعته من أن يرى القوات الأميركية تصوب بنادقها عليه؛ كان في منتهى القلق على الجرحى حتى إنه لم يتخيل تهديداً من هؤلاء التكساسيين التائهين في بغداد التي فقدت صوابها، والذين هالهم دوي الانفجار، فراحوا يخشون في كل ثانية انتحارياً جديداً. إذن، هرولَ نحوهم وهو يجهل التحذيرات، والإنذارات.

هذا ما جرى. آلمني أن استشفيت ما كان سيحدث ولقد حدث.

دوَّت الطلقات. ركض أبي بضع خطوات. ثم انهار. كأنه قد دُهش.

ومات على الفور. لقد صُرع دون أن يفهم شيئاً.

أما أنا، فكان طعم الدماء في فمي. أردت أن أصرخ، وأن أنقض على الجنود، وأن أشتمهم، وأثأر للقتل، لكن واحداً منهم قد أدرك خطأه، فأشار إلى من هو أصغر منه بالوقوف قرب الجسد، وقاد الجنود المشاة، دون أن يلتفت، نحو الساحة حيث، قبل عدة دقائق، وقع الانفجار. اقتصر مصرع أبي على اعتباره هفوة...

لن أروي ما جرى بالتالي، أي صعوبة استعادة الجثة، وإغماء والدتي، واكتشاف صهريَّ ـ أو ما تبقى منهما ـ ودموع أخواتي.

أما أنا، فلم تكن عندي دموع، لقد حبستها في احتياطي أفرغه حين أتمم مهامي، وحين أكون قد قمت بالإجراءات الرسمية، وأجريت

Twitter: @ketab_n

الواجبات اللازمة للموتى، ورتبت غسلهم المأتمي، ودفنت عظامهم في التراب.

عرضنا الأجساد الثلاثة في البيت. جاء أهل الحي جميعاً لتقديم احترامهم لوالدي شأنه شأن قديس. هنا، أمام كل هذا الورع، والحنان، والمحبة الصادقة نحو الإنسان الذي أحببته أكثر ما أحببت في العالم، شعرت بصعوبة كبيرة كي أضبط أعصابي ولا أنهار، لا سيما حين يأتي التكريم من مجهولين؛ رغبتُ، في مرات كثيرة، أن أعود إلى الطفل الذي كنته بين ذراعيه، ذاك الطفل الذي كان يظن والده أنه لا يعرف كيف يواسيه، وكم كان يُحسن مواساته.

بعد ثلاثة أيام من رحيل والدي، في الفجر، في الساعة التي كنا نتناقش فيها، بشكل تقليدي، في غرفة الحمام، جنباً إلى جنب، ونحن نغتسل، رحتُ أنشِّف رجليَّ كما علَّمني والدي، وأنا أرش عليهما بودرة «التلكْ» حين ظهر لي شبحه. جلس على الكرسي الصغير، وتنهد، وابتسم لي وهو ينظر إليَّ أنهي عنايتي بجسمي.

ـ إذاً، يا ابني، كيف حال أزهار همومك؟

ـ يا أبي، تحدثْ بوضوح.

ـ ثآليلك، أيها الأبله!

ـ إنها دائماً في مكانها، أعالجها بالمحاليل...

همس:

ـ طبعاً، وبدا كمن يعرف النهاية، لكنه لا يريد أن يفصح عنها.

Twitter: @ketab_n

تنهد من جديد قائلاً:

ـ يا ابني، هل أنت متأكد من أن الأميركيين هم الذين أطلقوا النار عليَّ؟ ألم يكن ثمة إرهابيون قد انتصبوا في كمين، في الخلف، من أنصار صدَّام حسين؟

ـ كلّا، يا أبي. إنهم الأميركيون.

ـ إنك مخطئ. أرى أن البعثيين كانوا قابعين على اليمين، في الشارع المؤدي إلى دكان السمَّان، تحت إفريز صفيحة التوتياء، وكانوا يوشكون أن يصوبوا على الأميركيين. فتلقيتُ الرصاصات مكانهم.

ـ هكذا إذاً؟

ـ أجل، في الواقع، لقد أنقذتُ حياتهم، لهؤلاء الأميركيين.

ـ كلّا، يا أبي، لقد قتلتكَ الرصاصات الأميركية. إنه خطأ، خطأ مأسوي، هم الذين قتلوك.

ـ حقاً؟ ألديك البرهان؟

ـ أجل. لقد رأيت كل شيء.

ـ آه...

ـ ثم، ماذا يُغير في الأمر، سواءٌ أكانت رصاصة أميركية، أو عراقية، أو شيعية، أو سنية، أو رصاصة طائشة؟ فأنت ميت.

ـ كلّا، فليس الأمران سيان. إنني آسف. لقد قُتِلتُ من محررينا. وهذا قاسٍ، كفكرة. لاسيما بالنسبة إليَّ لأنني لم أكن يوماً أكره

Twitter: @ketab_n

الأميركيين، يجب عليَّ أن أعتاد تلك الفكرة. ستقول لي، لديَّ الوقت...

ثم اختفى.

كان بودي أن أقول له: إننا نحن أيضاً، علينا أن نعتاد، أجل، أن نعتاد غيابه الذي دمرنا، وأن نعتاد أن نفقد ثقتنا بمحررينا.

بالمقابل، كنتُ راضياً لأنه لم يسألني أكثر من ذلك عن لحظاته الأخيرة لأنه لو فعل، لكنتُ اعترفت له بما حدث لي خلال المشهد. لست أدري بأية معجزة من تبادل الخواطر أو من التقمص الشعوري، خلال تلك الثواني القليلة، استبصرت أبي بعيون الأميركيين الخائفين؛ أجل، لم أتابع المشهد من وجهة نظري الشخصية فقط، باعتباري الابن، لكنني تابعتها كذلك من وجهة نظر الجنود الأميركيين. ماذا لمحوا؟ رجلاً عربياً! فجأة ينقض عليهم، وهو يهتز بطريقة مشوشة، ويصرخ بتلك اللغة الفظة، والمتقطعة، والرنانة التي لا يفهمونها! إنه عربيٌّ! عربيٌّ قذر! عربيٌّ غريب الأطوار! عربيٌّ مرعبٌ لا يمكن أن يؤمَنَ جانبه، تحت طائلة الانفجار معه! إنه واحد من هؤلاء العرب الشنيعين الذين يجب رشهم قبل التفكير في ذلك! إنه واحد من العرب المتحمسين حيث علينا أن نبقى عندهم أبداً كي نطيع الرئيس بوش، ونقيم الديموقراطية، ونضخ البترول! إنه واحد من هؤلاء العرب الأرذال الذين يُصرون على التحدث بالعربية، وعلى التفكير بالعربية، وعلى صنع أطفال عرب، وعلى العيش في الأراضي العربية! اللعنة على العربي: والدي!

Twitter: @ketab_n

كانت أمي توحي بأنها تسيطر على الأحداث. ولم تكن تشكو، وهي تجفف دموعها، فتجابه الوضع الجديد، وتعيد تنظيم وجودنا في البيت.

راحت من الآن فصاعداً تتصرف، كأم أكثر من تصرفها كزوجة ـ فمن الواضح أن الزوجة قد ماتت في اليوم ذاته لموت والدي. وأخواتي كنَّ يرافقنها بصعوبة، شأن من يمشي في نومه، وهن يتابعن رحلة الحياة على ظهر سفينة شبحية. كنَّ مسافرات وحيدات، كلهن أرامل، بدون مال، يحملن أطفالهن بين أذرعهنَّ.

حللت مكان أبي، وسعيت إلى تلبية حاجاتنا، وقد أصبحتُ رب الأسرة.

تخليت عن فكرة إكمال دروسي كي أتدارك الأمور المستعجلة: من إيجاد عمل، وتفريغ صناديق، وتنظيف مطابخ، وحراسة المخازن ليلاً، أي عمل متوافر.

لم نعد نتحدث عن المستقبل فيما بيننا، وذلك باتفاق صامت. وقد اجتهدنا للاستمرار في البقاء، فاكتفينا باليوم وبالغد صباحاً كأفق وحيد لنا.

حدث، ذات مساء، أن اقتربت والدتي مني وأنا مستلقٍ على حصيرتي، خائر القوى، ومرضوض الكليتين من التعب، وانطلقت قائلة لي:

Twitter: @ketab_n

ـ يا ابني، أريد أن ترحل. هنا، صارت الحياة جحيماً.

كان وجهها من شدة ما غسلته المآسي قد أضحى قناعاً هادئاً، خالياً من التعبير، ولم يعد يهزه أي انفعال.

ـ يا أمي، إذا أقمتِ في الجحيم مع أخواتي، فسأبقى فيها معك.

ـ أعتقد، يا سعد، أنك في الخارج تكون أكثر نفعاً لنا. هنا، المستقبل لا مستقبل له. إذا رحلت إلى مكان آخر، فستعمل بشكل أفضل وبجهد أقل، وتصبح غنياً، وترسل لنا دولارات.

وقد استدرت نحو الجدار، قابلتها بكتفيَّ وبصمتي: لم يكن ذلك موضع بحث، حتى إنني رفضت النظر في هذا الحل.

خلال تلك الأشهر الهشة، كانت سلمى، الأكثر حيوية بين بنات أخواتي، ترافقني إلى كل عمل جديد أشغله، وقد كُلفت بأن تعرفَ مكاني في كل ساعة من ساعات النهار، كانت تقوم برحلاتها المكوكية بين الشقة وبيني، وهي تُعلم مجموعة النساء، وتُطمئنهن عن مصيري، مؤكدة أنني أكلتُ السَّلَطة كلها، التي أحضرتها لي، وتعلن لهن عن ساعة عودتي.

تعلقتُ بتلك الصغيرة بطريقة غير منتظرة، لأنها كانت تلحق بي في كل مكان، بابتسامتها المشرقة، وتطيب رفقتي لها. ألم تكن تمثِّل الكائن البشري الوحيد الذي كنتُ أمضي معه ـ عدة ثوانٍ ـ في الضحك، والدردشة، والمزاح؟

Twitter: @ketab_n

حدث ذات مرة، وقد سررت من رؤيتها بعد مهمة منهكة، أن دعوتها دون أن أفكر «بخطيبتي الصغيرة». احمرّ وجه الصغيرة احمراراً شديداً، وقد تأثرت في أعماق وجدانها، حتى إنني أشفقت على تلك الفتية البكر التي لم تعرف أباها على الإطلاق، فاعتدت أن أصرخ دائماً «لكن ها هي خطيبتي الصغيرة!» بمجرد أن تظهر، فرحة وبشوشة، على باب عنبر أو مستودع.

أحياناً، كنت أوبخ أمي.

ـ عليك ألّا ترسلي سلمى كساعية عبر المدينة! إن ذلك في منتهى الخطر! يمكن أن يحاصرها متعصبون، وقد تصاب بشظية قنبلة، أو تتلقى رصاصة طائشة، أي شيء كان. إنني أقلق...

ـ إذن، يا سعد، عليك أن تقدر كم نحن، أنا وأخواتك، قلقات عليك! إن سلمى تطمئننا عدة مرات في اليوم. فلولاها، لتخيلنا في كل ساعة أنك ميت. إنها ملاك يحمينا جميعاً.

ـ سلمى تحمينا لكننا لا نحميها.

ـ ألم تعد ترغب في رؤيتها؟

ـ لم أقل ذلك مطلقاً. كل ما في الأمر، هو أنني أقلق.

فخوفاً من أن أحرَمَ من سلمى، لم أكن أستمر في محاكمتي، ولا في غضبي. وهكذا، كانت البنية الرائعة تأتي مرات كثيرة في اليوم لتنير الأماكن المظلمة، والقذرة والنتنة، حيث كنتُ أكسب بشق النفس عدة دنانير.

Twitter: @ketab_n

إن الكائن البشري، كي يُريح ضميره، يتخيل أسوأ الأمور، وهذا ما يُلهيه عن فتح عينيه على الواقع الذي يطرأ: لقد ارتكبتُ تلك الغلطة، وسأحمل وزر الندم عليها طوال حياتي.

لم تكن سلمى ضحية تلك الاضطرابات السياسية في بغداد؛ جرحها مسمار بكل بساطة. حين أرتني فخذها الذي خُدِش، كانت تضحك هي نفسها من طيشها. اشتد ضحكها حين رحت أقوم بألعاب سحرية على جرحها وأدعي أنني ساحر أتمتع بقدرات خارقة ثم حين أستطيع أن أبدد الألم بقبلة رنانة على جلدها الناعم.

لم يعر أحد اهتماماً بأعراضها الأولى، لأننا كنا جميعاً نعاني سوء التغذية، وقلقين، ومنهكين، ولسنا في صحة جيدة. بالإضافة إلى ذلك، كانت الطفلة تتمتع ببهجة بالغة وبنشاط كبير، حتى إنها كانت تنظر بازدراء إلى الإنتان الذي راح يسري في جسمها.

فحين ضعفت واضطرت إلى ملازمة الفراش، ظننا أنها مصابة بالزكام، وفي أسوأ الحالات بنزلة وافدة. اكتفينا بأن أعطيناها الحليب الساخن وقد أغنيناه بصفار البيض، كما وصفتْ لها بعض قشور نباتات جبلية تجدد القوى. رحنا نطمئن أنفسنا بتفاؤل جميل وجبان.

ذات صباح، بلونها الضارب إلى الخضرة، وبالحمى المرتفعة شككنا بإنتان عام يفترسها.

تقرر أن أذهب إلى عملي بينما تأتي أخواتي بطبيب، وتطرق والدتي أبواب الجيران لتجمع بعض المال لمعالجتها.

Twitter: @ketab_n

لسوء الحظ، في نهاية اليوم، لم تستطع والدتي أن تجمع إلّا مبلغاً زهيداً، كما أن أخواتي لم يعثرن على طبيبٍ واحدٍ لا يزال يمارس الطب: ففي فوضى ما بعد الحرب، هاجر الأطباء القلائل الباقون من القطاع الخاص في بغداد، إلى الأردن، وإلى لبنان أو إلى سوريا. لم يعثرن إلّا على عنوان واحد، هو عنوان الدكتور بن سعيد، في الأحياء الفخمة، لكنه وجب وضع كفالة بخمسين دولاراً عند البواب، ليسمح لنا دخول عيادته. كان هذا الشرط مستحيلاً بالنسبة إلى أسرة فقيرة.

حين اكتشفتُ خطورة الوضع، إثر عودتي، مساءً، وأنا منهكٌ، أعلنتُ قائلاً:

ـ سأهتم بذلك بنفسي.

لففت سلمى بغطاء، وضممتها إلى صدري، وذهبت في شوارع بغداد بحثاً عن مستشفى مفتوح.

وجدت مستشفيات فاغرة، لأنها خالية، ولم تعد مجهزة. وصلتُ أخيراً إلى مستوصف يعمل حيث استقبلني طبيبان شابان. شحب وجهاهما حين فحصا سلمى.

قالا لي بإنسانية:

ـ سيدي، إن وضعها خطر جداً، يجب إدخالها المستشفى بأقصى سرعة. ليس عندنا هنا أسِرّة ولا أدوية. اذهب إلى الجهة الأميركية. إنه الحل الوحيد. عليك ألّا تتردد، وألّا تُضَيع ثانية واحدة. شرحا لي أين أذهب. يقع المكان على بعد كيلومترات كثيرة. فإذا ذهبتُ ماشياً،

Twitter: @ketab_n

فسأسير ساعات كثيرة؛ وإذا ركبتُ سيارة، فلن يبقى لي مال بعد دفع الأجرة.

قررت المجازفة بكل ما لديَّ: ناديتُ سيارة أجرة وجلست فيها باسترخاء، وسلمى ترتجف على صدري. كانت السيارة المتمايلة تزأر في الشوارع العريضة والمُقفِرة، وتوقفت على بعد مئة مترٍ من المكان. نبهني السائق قائلاً:

ـ قف، لن أذهب أبعد من ذلك. يخاف الأميركيون من العرب، ومن كل سيارة تحوم. لا تعتمد عليَّ، فإن زناد بنادقهم في منتهى العصبية.

ترجلت، وتقدمت نحو الحاجز، منهكاً ـ نمت ثلاث ساعات في الليلة الفائتة، واشتغلت أربع عشرة ساعة متواصلة، وكنتُ أموت قلقاً على سلمى.

فكرت بوالدي، وأنا أتقدم. يجب عليّ ألَّا أتصرف مثله تحديداً، وألَّا أفزِعهم، وألَّا أركض، وألَّا أقوم بحركات مباغتة، وألَّا أتكلم العربية.

حين وصلت إلى مئة مترٍ من الحواجز، وجه العساكر كشاف نور باتجاهي، زعقوا بشيء ما فيما بينهم، وأمروني أن أعود أدراجي.

توقفت.

ظهر أربعة رجال، لإقناعي بالرجوع، وأمسكوا أسلحتهم، وكرروا أمرهم لي بالرحيل.

Twitter: @ketab_n

ـ لا أريدُ أي أذى لكم. أتيتُ مع طفلة لأنني بحاجة إليكم. أريد أن يراها أطباؤكم. لقد أرسلني إلى هنا أهل المستوصف. أرجوكم: إنها قضية حياة أو موت.

تحدثتُ إليهم بلغة إنكليزية راقية، وقد استفدتُ من دراستي الجامعية، وأنا عارف أنني سأفاجئهم بإجادتي قواعد اللغة وحسن اللفظ.

بدلاً من أن يطمئنوا، أثار هذا الكمال قلقهم. نظر بعضهم إلى بعض بشيء من الريبة، ثم نظروا إليَّ شأن كائن مشبوه.

كررتُ عدة مرات قصتي، وأنا أتوسل إليهم أن يثقوا بحسن نيتي. هكذا، تقدمت في مسعاي.

فجأة، صرخ أحدهم قائلاً:

ـ حذارِ، معه قنبلة في يديه. انتبهوا!

سمعت، فوراً، طقطقة الأسلحة.

ـ كلّا، لا تطلقوا! ليست بقنبلة، إنها ابنة أختي. ابنة أختي!

ـ ضع الحزمة على الأرض. ضع الحزمة على الأرض، قف، ويداك مرفوعتان عالياً.

ـ هذا ليس حزمة، إنها فتاة صغيرة.

ـ ضع الحزمة. ضع بسرعة الحزمة وإلّا أطلقتُ النار!

كان التوتر العصبي قد جعلهم سريعي الغضب. رأيت اللحظة

Twitter: @ketab_n

التي سيرشوننا بها برصاصهم، أنا وسلمى، كما صرعوا والدي، فسواء بسبب الخوف، أو الحذر ـ وما الفرق؟

على أرض الشارع المزفتة، وضعت سلمى برفق، وهي تكتوي بالحمى، منهكة، وثقيلة، وكانت نائمة في تلك اللحظة.

تراجعت خمس خطوات، وأنا أطيعُ بالتالي أوامرهم.

اقتربوا من الكومة المشبوهة، وقد صوبوا أسلحتهم، قلقين، وحذرين، ومستعدين لإطلاق النار.

لا تصوبوا على ابنة أختي، أرجوكم، وأنا أتوسل إليهم بأعصاب منهارة.

كنت أفكر، وقد شددت فكيَّ حتى أدميا، وأنا أقول في نفسي:

«شرط ألّا تتحرك، وألّا تتأوه، وألّا تراهم، وأن تبقى غير واعية بما يحدث، هذا المساء، حولها.»

انحنى أحدهم، وهو الأشد بطولة من الفرقة، أبعد الغطاء بحذر، بفوهة بندقيته وكشف عن وجه سلمى.

صرخ بالواقفين خلف الحاجز:

ـ إنها طفلة!

هل سيتوقف أخيراً هذا الكابوس؟

أجاب القائد، وقد التجأ خلف الحاجز.

ـ تحقق بالكاشف!

Twitter: @ketab_n

ماذا؟ ماذا أصابهم الآن؟ جاء أحد الجنود ممسكاً بيديه نوعاً من شراقة فولاذية هزَّها فوقها.

ـ إنها لا ترن! إنها سليمة!

هنا، لم أستطع الامتناع عن تصحيح تلك الكلمات.

ـ كلّا، ليست سليمة! إنها ابنة أختي وهي مريضة! أرجوك، إني بحاجة إلى أطبائكم.

مضت برهة من الحيرة والتردد.

فهموا ما كنت أشرحه لهم منذ عشرين دقيقة، بعد أن تخلّصوا من هلعهم. أعدت القصة كلها بلهجتي البليغة.

صمتوا.

انتهى القائد إلى القول، بشيء من الأسف:

ـ تأكدوا منه، هو أيضاً.

اقتربوا مني وهم يأمرونني بألّا أتحرك، وفحصوني بكشافة المعادن، ثم باليد من جديد.

ـ هذا جيد!

ـ حسناً، دعوه يدخل.

انحنيت على سلمى، وأخذتها ثانية بين ذراعيَّ، وقبّلتُ صدغيها الملتهبين، وهمست لها بالعربية:

ـ سترين، يا خطيبتي الصغيرة، سننجح في مسعانا.

لم يبدُ منها أي رد فعل. هل سمعتني؟

Twitter: @ketab_n

رافقنا رجال إلى الأرض المحددة الأميركية. لا يخال المرء نفسه في بغداد: كانت مدينة مختلفة داخل العاصمة المدمرة، فهي مدينة حديثة، وكاملة، ومنوَّرة، تزينها الينابيع والحدائق المُزهِرة. كانت تنساب من بعض النوافذ موسيقى حالمة من كمانات رخيصة ومقزِّزة، ومن نافذة أخرى، كانت فرقة موسيقية تعزف «الروكن’رول».

كنت أسكن حياً خرباً ولا أشتغل إلَّا في مناطق خطرة، لذا لم أكن أتصور أن ما أراه ممكن على الإطلاق.

لم تعد سلمى من الآن فصاعداً تتحرك. هل كان ذلك بسبب المصابيح المنتشرة على طريقنا إلى المستشفى، بدا لي أن جلدها قد اتخذ لوناً غريباً؛ لكنها ما زالت تتنفس، كنت متأكداً من ذلك.

في قسم الطوارئ، استقبلنا طبيب عسكري، وأشار إلى الجنود بالالتحاق بمواقعهم، وأمرني أن أضع سلمى على سرير مغطى بشرشف من الورق. تركته يفحصها؛ حين خرجت منه حسرة، فلكي أخدع قلقي وأذكره أنني أتكلم الإنكليزية، سألته برفق:

ـ إذن، حضرة الطبيب، ما بها؟

استدار نحوي، وبدا فجأة قد اكتشف وجودي.

ـ إنتان دموي منتشر في كل الجسم، أيها الشاب. وضعها خطر جداً.

ـ هل ستشفى؟

Twitter: @ketab_n

تفحص عينيَّ وهو يلفظ ببطء، هذه الكلمات:

ـ سأعطيها إبرة، كي يطمئن ضميري ونحن نعلم أننا بذلنا قصارى جهدنا، لكن يجب ألَّا نتوهم: فات الوقت، أيها الشاب.

انهرت على كرسي، دون أن أنبس ببنت شفة.

اهتم عدة لحظات بسلمى ثم أمسكني من كتفي.

ـ ابقيا كلاكما في الغرفة المجاورة. ضع الطفلة على السرير، وخذ أنت الأريكة. سأبقى في الجوار.

بعد أن أقمنا في الغرفة، أغلق الباب بحذر.

لم أطِعْهُ: لم أترك سلمى على الفراش، لكنني أبقيتها ملتصقة بي، على صدري، وأنا أصلي إلى الله كي ينجيها.

قبيل الصباح بالضبط، شعرت بتعب هائل، فقررت أن أغمض جفنيَّ بضع ثوان.

في الفجر، حين استيقظتُ، كانت خطيبتي الصغيرة، مسجاة، ميتة، بين ذراعيَّ.

ـ لقد تجاوز الحد، هذه المرة، يا سعد، لن أبكي.

لم تحرك والدتي ساكناً.

بعد أن أعدت سلمى إلى أختي، اكتسبت أمي تقاطيع قاسية، لا تنم عن الألم، وبرودة جمَّدت أوصالي أكثر من أي شيء آخر.

كانت تراقبني بحدة.

Twitter: @ketab_n

ـ سعد، لا أريد أن تتوقف حياتك قبل موتك بزمان. إلّا أن ذلك هو ما يجري هنا.

ـ لا شك أن الحياة قاسية، ولكن...

ـ ربما تلك إشارة من الله بأن لم يعد لك امرأة على ذوقك هنا: وهذا يعني أن عليك أن تهتم بأسرتك. لم يبق وقت تضيعه. فإذا أردت أن تساعدنا، عليك أن تهاجر.

ـ ولكن...

ـ لا تناقش: عليك أن ترحل.

ـ لستم بحاجة إليَّ هنا؟

ـ لكنتُ ركضت بساقيَّ كما فعلتَ من مستشفى إلى آخر. كان المال هو الذي ينقصنا. لو كان معنا دولارات، لاستطعنا أن ندخل عيادة الدكتور بن سعيد، ونحصل على مضادات حيوية. لا أريد أن أعيش ذلك مرة أخرى بعد اليوم. يا ابني، لن أتوسل إليك، لكنني أطلبه منك: هاجر. إنك شاب، يقظ، وذكي، وقوي. ستعمل في الخارج وترسل لنا ما تدخر. ليس هناك أحد سواك لإنقاذنا.

ـ وأتركَكنَّ وحدكنَّ؟ أتعتقدين أن والدي كان سيوافق؟

نظرت إليّ، وبدت مترددة، ثم نظرت لحظة خلفها لتتأكد من أن بناتها لن يسمعنها.

ـ تناقشت معه في هذا الموضوع، وهو موافق.

ـ متى؟

Twitter: @ketab_n

ـ أمس مساءً.

حنت جبينها، وهي تخشى ردة فعلي. هل كانت تظن أنني سأعتبرها مجنونة؟ شجعتها على الفور قائلاً:

ـ آه، لستُ أنا الوحيد الذي أراه! أنت ترينه أيضاً؟

رفعت رأسها وراقبتني بنظرة قاسية، كما لو تفوهتُ بسخافات.

ـ طبعاً، يا سعد، إنني أراه، كل مساء بعد أن أتناول شرابي الساخن. ابتدأ بالظهور في اليوم الثالث لوفاته.

ـ ثلاثة أيام، أنتِ أيضاً...

ـ ثلاثة أيام.

ـ ماذا فعل خلال تلك الأيام الثلاثة؟

ـ لست أدري. تعود مسألة كونه ميتاً على ما أظن، أو أنه بحث عن الطريق المؤدية إلى هنا. إنه متكتم جداً في هذا الخصوص. ومعك أيضاً؟

ـ معي أيضاً.

ـ بمجمل القول، لقد برز في مساء اليوم الثالث، وأستطيع أن أقول لك إنني لم أستقبله بالتحيات، لا بل وبخته بسخاء بسبب الرصاصة الطائشة التي قتلته.

لزمنا الصمت، وقد حرص كل واحد منا على التكتم على أحاديثنا مع شبح أبي.

اختبأ هذا القسم الحميمي منا في مفرق شخصيتنا وذكرياتنا.

Twitter: @ketab_n

قبلتها.

- أشكرك يا أمي، على ثقتك. سأرحل.

- إلى أين ستذهب؟

- خطرت ليلى على بالي فأجبت، دون أن أفكر:

- إلى إنكلترا.

Twitter: @ketab_n

٤

كيف يمكن قطع آلاف الكيلومترات حين لا نملك ديناراً واحداً؟

في ذاك الصباح، وقد استحال على الغيوم أن تمنع الشمس من البزوغ، راحتْ تدفعها بمزاج عكر، وتعارضها بجمود رصاصي، تاركة خيطاً قذراً ورمادياً يرشح ، ويفتقر إلى النور بقدر افتقاره إلى الظل. ومن غرفة حمَّامي، من الكوة، لمحتُ السطوح الكئيبة، والشرفات التي تطفح بالحزم، والغسيل، والفرش، شأن الأقبية.

لم يكن ثمة أي طائر قط. كان صوت المؤذن وحده يقطع هذا الخمود، وقد اتسع بسبب مكبرات صوت الجامع التي تخنخن بنبرته المكتومة.

كيف السبيل لقطع آلاف الكيلومترات حين لا أملك ديناراً واحداً؟

أنهيتُ حلاقتي بصابون لحى عتيق، الذي يتيح لي، بفضل عطر الصندل المختلط بالأرزّ، أن أتخيل نفسي في رفقة والدي، ثم بدأت الاعتناء برجليّ.

Twitter: @ketab_n

كيف يمكن قطع آلاف الكيلومترات حين لا أملك ديناراً واحداً؟

ـ تعمل في البيع، يا ابني.

ـ آه، أنت هنا؟

جلس والدي، كعادته على الكرسي الخشبي الصغير والقصير، بقميصه الملتصق بجسمه وبنطاله المخصص للنوم.

ـ أجل، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، إنني هنا معك، وأسعى لأخفف همومك. في الواقع، ما حال ثآليلك؟

ـ لم تتحسن.

ـ إنك تحيرني! هل أنت مصمم فعلاً على الرحيل؟

ـ إنك على علم...

ـ أرى أن قرارك بلا تروٍ. كن واثقاً من نفسك، فالمشاكل ستُحل تدريجاً.

ـ تعم الفوضى، يا أبي!

ـ هيا، إنها عابرة.

ـ كلّا، يا أبي، إنك واهم. يمكن أن تستمر، ولن تكون الحال أفضل غداً، بل قد تتفاقم أكثر فأكثر... إذاً، حين لم نعد ننتظر أي تقدم أو تحسن، وجب الرحيل.

ـ مم، أرى محاكمتك للأمور: لن تتحسن الحال غداً، لكن الوضع سيكون أفضل في مكان آخر.

ـ هكذا.

Twitter: @ketab_n

ـ إذا لخصْتُ الفرق بيننا، يا ابني، فأنا متفائل يقول «غداً»، وأنت متفائل يقول «هناك». فتفاؤلك منتشر في المكان، أما أنا فقد ثبته في الزمان.

ـ لا تنتقص من قيمة المسافة بين موقفي وموقفك. إن تفاؤلك الراسخ يعني القدرية.

ـ وإن تفاؤلك الرحَّال يعني الجبن والهرب.

ـ وعلى عكس ما تؤكد أمي، فأنت لا تشجع هذا القرار.

بدا مُحرَجاً، فتنحنح قائلاً:

ـ في البدء، كنتُ أفضل أن تبقى هنا، ولكن...همم... أنت تعرف أنه لا يمكن مناقشة أمك طويلاً... ينتهي بها الأمر دائماً إلى أن توقعك في الفخ، وأن تقطعك من أولى أفكارك، وتحشرك في آرائها.

ـ غالباً ما تساءلت، يا أبي، إن لم تكن ضعيفاً.

ـ حسناً، اسأل نفسك، الآن، إن لم تكنْ قد صرتَ ضعيفاً.

تلقيت جوابه شأن لكمة صاعدة إلى ذقني. فقبل أن يوجه لي تلك الضربة، لم ألحظ أنني أدون فصلاً جديداً من رواية قديمة يدَّعي فيها الرجال أنهم أحرارٌ ومستقلون لكنهم ينفذون رغبات النساء اللواتي يدرن شؤون أسرهنّ. فلكي أخفي حرجي، حولت الحديث إلى هموم عملية.

ـ إن بطاقة من بغداد إلى لندن، لا يمكن البحث فيها: أولاً تلك البطاقة لم يعد لها وجود؛ ثم إنني لن أحصل على تأشيرة دخول ـ

Twitter: @ketab_n

ليس عندي جواز سفر؛ أخيراً لم أجمع المبلغ، لا للسفر ولا للإقامة في لندن. يشكل المال صعوبة كبيرة هنا، على كل حال! لو كان المال متوافراً عندي، لاتصلت بمهربي الأشخاص. يبدو أنهم في شارع «الجزَّارين»، ينقلونك إلى الخارج مقابل ألف دولار.

ـ يقولون... إن اليقين الوحيد هو أنهم يريحونك من ألف دولار.

ـ على كل حال، لا أملك ألف دولار.

ـ بعْ شيئاً ما.

ـ ماذا أبيع؟ إن حلي والدتي قد طارت منذ زمن طويل. ولن تجد كتبك من يبتاعها. أما الأثاث، أي ما بقي منه، فنحتاج إليه، ولن يدرّ شيئاً. الشقة؟

ـ كلّا، يا ابني. من يرغب، في الساعة الحالية، في شقة في بغداد؟ من الأفضل شراء قطعة أرض مباشرة في المقبرة.

ـ إذاً؟

ـ إذاً فكرتُ في أنك تستطيع أن تبيع نفسك، أنت. أي قوتك. وشبابك. ونشاطك.

ـ لستُ متأكداً من فهم...

ـ ليس عندك شيء يدر مالاً إلّا أنت، يا ابني. هناك حاجة إلى شبان بواسل.

ـ هل تلمح إلى...

قاطعتنا أمي التي دخلت، مسرعة، لتأخذ مشطاً من غرفة الحمَّام؛

Twitter: @ketab_n

أما أبي، البالغ الاحتشام، والذي لم يكن يقبل أن يراه أحد عارياً قط ما عداي، فلقد اختفى.

بيد أنني قد فهمت رسالته. ماذا عندي للبيع؟ حياتي... في ذاك الوقت، كان المتعصبون يَظهرون مستهلكين جشعين لجمع المتطوعين. اقترح عليَّ والدي أن أصبح إرهابياً، وأن ألتحق «بالقاعدة»، الحركة الإسلامية المعروفة بقدرتها، والتي نما فرع نشيط لها على الأرض العراقية؟ فبمساعدتها، وأنا في خدمتها، يمكن عبور حدود ممنوعة.

فجأة، بدا لي الموقف واضحاً: وجب عليَّ أن أتقدم إلى الجماعات المسلحة السرية؛ أو بالأحرى أن أتظاهر بالتطوع للسفر إلى القاهرة.

ففي غمرة اضطرابي، لم أفكر أن المرء ينضم إلى الحركة الإرهابية بشكل محموم وليس وفق حسابات، وقد وضعتُ خطة وفتوراً ـ يسمي بعضهم تلك الوصفة «بالوقاحة» ـ للانخراط في فعالية يتبناها المرء بدافع الهلع أو العبادة، والثأر أو الطموح، أي الهوى على الدوام.

قصدتُ المسجد الملاصق لمدرسة أخواتي القديمة، وهو بناء صغير بدون ترف وبلا أي نمط معماري. وقد أوحى إليَّ رفاقي في الجامعة، بكلام مبطن، وباللجوء إلى تلميحات خفية، وبالصمت، وبعلامات التوقف، أنني إذا أردت... حسناً... عليَّ أن أذهب إلى هناك!

خلطتُ صلواتي بالمراقبة، وطوال ساعات، رحتُ أدرس الناس

Twitter: @ketab_n

الذين يترددون على المكان، فمنهم من يأتون ليتوجهوا إلى السماء ومنهم من يجيئون إلى المسجد للتآمر.

حين تأكدتُ من تحليلي، في منتصف النهار، اقتربت من رجل طويل القامة، قوي، بأنف حاد ولحية خشنة ويشكل القطب الذي يدور حوله الشبان ذوو الدماء الملتهبة.

ـ أريد أن أكون مفيداً.

ـ إنني لا أعرفك.

ـ أدعى سعد سعد.

ـ أكرر لك أنني لا أعرفك. عمَ تتحدث؟ ولماذا توجه حديثك إليَّ؟

ـ إما إنني مجنون، وإما ستساعدني. لقد مات والدي تحت الرصاص الأميركي، وكذلك صهراي؛ فأنا بمفردي، أعيل أسرتي، المؤلفة من أربع أخوات، وأم، وثلاثة أولاد أخوات، وفتاتين من أخواتي.

ـ وإذاً؟

ـ إنني أكره الأميركيين.

ارتجف جفنه رجفة لا تكاد تُلحظ. كان سواد الشعر وزرقة العين يشكلان تناقضاً يشير إلى عنف المزاج الدموي، والذي يمثل ظلاماً أو ضياءً.

صرخ:

Twitter: @ketab_n

ـ وماذا إذاً؟

ـ أريد أن أكون نافعاً.

ـ إنك كذلك، أيها الأخ، إذا كنتَ تهتم بشؤون أسرتك.

ـ هذا ليس كافياً. أريد القيام بأكثر من ذلك. أريد أن أقتل. أريد أن أقاتل.

انبثقت الكلمات وحدها، ورحتُ أكتشفها بالتتابع مع لفظي لها. من المؤكد أن خطابي، أصلاً، قد صُنع بطريقة إرادية، لكن جزءاً من نفسي قد أنتجه بدون جهدٍ، وجزءاً قد أفصح فيه عن ذاتي، وكان جزء مني لا يكذب، لا بل راح ذلك الجزء يبتهج بتلك الكلمات المقيتة.

أصغى إليَّ وأنا أتهجم عنيفاً بكلامي طوال عشر دقائق دون أن يقاطعني. بين الفينة والفينة، كان يلقي نظرة سريعة على الآخرين، وكانت حدقتاه تسألان «هل تعرفونه؟»؛ فيهز المتجولون جبينهم بالنفي.

أخيراً، تنهد وقاطعني قائلاً:

ـ لماذا اليوم؟

ـ أن...

ـ كيف لم تنخرط في المقاومة حتى الآن لتدافع عن بلدك؟ لماذا لم تكمن خلف حاجز حتى الآن؟

لم أتوقع هذا السؤال؛ إلّا أن الجزء المتقد فيَّ، ذاك الجزء الذي يريد أن يبدو إسلامياً، قد وجد التفسير بكل يسر:

Twitter: @ketab_n

ـ كنتُ أحترم والدي الذي حرص على أن أكمل دراستي للقانون. كان رجلاً ورعاً وجليلاً وفي منتهى الشجاعة، ولكنتُ خنزيراً إن لم أطعه. أما الآن وقد مات ـ قتله هؤلاء الأوغاد الأميركيون ـ فلم يعد لي سبب يكبح جماحي.

هزَّ رأسه باقتناع.

ـ الساعة السابعة، هذا المساء، أمام مقهى سعيد.

وابتعد بخفة مذهلة، وبسرعة تؤكد أنه حقاً قد أخذ وقتاً ليصغي إليَّ.

فكرت «لقد ربحت!». وإن بقي كثير من المجهول في طريقي، انتظرتُ المساء بعصبية وأنا أطرح على نفسي مئة سؤال: ما العمل لأتجنب أن يوكلَ إليَّ مهمة هنا؟ كيف أحرضهم على دفعي خارج الحدود؟ ستعلمني الأحداث التالية أنني لم أطرح السؤال الصحيح بين المئة سؤال. لكنني أستبق...

في الساعة السابعة، وقفتُ أمام مقهى سعيد حيث كنتُ ضجراً ومنزعجاً وأنا أشعر بأنني مراقب؛ كان كثير من العساكر يقطعون الساحة، عمداً كما بدا لي، ويندفعون ويحدقون إلى وجهي، ثم يرحلون من جديد. ربما كانوا مخبرين أرسِلوا ليتأكدوا من هويتي.

في الساعة الثامنة، ظهر الرجل ذو اللحية المقصوصة على شكل فكي سمك القرش، ومرَّ عن يميني وقال لي، دون أن يتوقف:

ـ اتبعني كما لو أنك لا تعرفني.

Twitter: @ketab_n

تقدم في متاهة شوارع، ثم انعطف أربع مرات نحو مجموعة من الأبنية. ما معنى هذا التجوال؟ أكان يدل بعض الأفراد عليَّ؟ أو يتأكد من أن لا أحد يتبعني؟

أخيراً، أسرع وهو يركض في حارة صغيرة وضيقة. دخلتُ فيها، وأنا أخشى أن أضيعه، حين أوقفتني ضربة قبضة فطُرِحْتُ أرضاً.

ـ إنه هو!

إن المارد الذي سطَّحني أشار إليَّ لأربعة مردة آخرين انهالوا عليَّ، وكمموني وربطوا ساقيَّ وذراعـيَّ. وبعد ذلك، رموني في صندوق سيارة، بلامبالاة كمن يرمي صرة غسيل. أمرني أحدهم أن أحشر رأسي.

ثم أغلق عليَّ غطاء الصندوق.

كان السواد كاملاً.

ثمة محرك، فطريق. ثم هزهزة، فضربات مكابح، تلاها تسارع، ثم توقف عطالة وثرثرة، ثم قُطِع المحرك، فشتائم وموكب. ثمة أبواب سيارات تُصفق، ثم انطلاق جديد. محرك، طريق. دروب. هزهزة. وشظايا حجارة، ثم قُطِعَت مسافة طويلة. توقف.

عاد النور من جديد، إنه مصباح أشعِل في الظلام. أعماني هذا النور. ساعدني الرجال في الخروج، وقطعوا الروابط التي شدت على كاحليَّ وأمروني أن أتبعهم. أين أنا؟

Twitter: @ketab_n

دخلنا بناء، ونزلنا إلى القبو، فتحوا باباً، ورموني منه. أغلِق المصراع ثانية. إنها زنزانة.

تلك هي نهاية الرحلة.

كنتُ أجهل أين أنا ولماذا؟

مرت ساعات كثيرة أيضاً، ساعات استفدت منها كي أهدئ من روعي، وأحاول أن أفهم الوضع. إنهم يحذرون مني، ويختبرونني. يريدون أن يراني هؤلاء الذين يتعرفون فيَّ إلى عميل للأميركيين أو، في أسوأ الحال، إلى عميل للإسرائيليين. آمل ألّا أذكرهم بأحد! وهذا ما فكرت فيه. نرجو ألّا تكون الطبيعة قد لعبت دوراً بائساً فمنحتني قريناً...

وقد استشففت أن استجواباً قوياً سيأتي قريباً، فهيأت نفسي، وأنا أخشاه بقدر ما آمله. يجب أن أوحي إليهم بالثقة وأن أقنعهم أنني من جماعتهم وألّا أدع أحداً يتحدث من أعماقي إلّا سعد الذي يكره الأميركيين، قتلة أبيه. ما دام هذا السعد موجوداً، عليَّ أن أقفل بقفلتين على شخصيات سعد الأخريات ـ الشخصيات اللواتي يفكرن بعمق ويدركن الفروق الدقيقة ـ وأن أضعهن خلف باب مبطّن وكتيم.

حين فقدتُ مفهوم الزمن ـ بسبب الجوع والعطش والقلق ـ جاء أربعة رجال ليصحبوني ودفعوا بي أمام مكتب.

كان الرجل المتربع وراء الآلة الكاتبة قد بدأ بالصراخ:

ـ لقد تعرفنا إليك، أيها الكلب! إننا نعرف من أنت! إنك مشيت نحو قبرك حين توجهت إلينا.

Twitter: @ketab_n

أثبت لي هذا الصراخ أنهم لا يعرفون شيئاً عني، وأنهم مستاؤون من ذلك. قلت في نفسي: تشجع!

ـ أريد أن أكون من جماعتكم.

ـ من نحن في اعتقادك؟

ـ هؤلاء الذين يناضلون ضد أميركا.

ـ أنت صديق الأميركيين!

ـ إنني أكرههم، لقد قتلوا والدي.

ـ عندنا براهين.

ـ طبعاً لا تملكون أي برهان.

ـ إنك تعتبرني كاذباً؟

ـ لا أنت، ولا أي شخص يمكنه أن يثبت أنني أحب الأميركيين لأنني أكرههم.

استمر النقاش حاداً، وعنيفاً ومتقطعاً، طوال ثلاث ساعات، لم أفقد خلالها ولا لثانية واحدة رباطة جأشي، ولا زمام أمري.

أعادوني إلى زنزانتي بعد أن شتموني.

بعد عدة لحظات، أعطوني قطعة خبز، وماءً في إناء معدني. هيا، بما أنهم يريدون أن أعيش، فإن الامتحان قد ظهر إيجابياً.

استسلمت لحالة من الارتياح، وأنا أتغذى. لا شك، أنه بعد تحقيقاتهم وهذا الاختبار، سيضمونني إلى فرق المبتدئين.

أظهرت هذه الرؤية ما مدى سذاجتي.

Twitter: @ketab_n

بمجرد أن تحسن حالي، عادوا ليأتوا بي، أخذوني إلى صالة أخرى، وهناك، حالما رأيت السياط والأحزمة الجلدية، أدركت ما ينتظرني.

أرعبتني فكرة تعذيبي، فاسترخيت في هلع جردني من أي تعبير، حتى إن ذلك قد أوهمهم بأنني جريء وصلب المراس. ابتدأ التعذيب. صحتُ، وصرخت، وقاومت، لكنني لم أترك الشخصية التي رسمتها لنفسي: وهي الذي يكره أميركا والأميركيين. كلموني مرات كثيرة بالعبرية أو بالفارسية، وهم يعرضون عليَّ اختصار عذابي، ليحددوا إذا كنتُ أعرف تلك اللغات العدوة؛ كنتُ، في كل مرة، ألوذ بالصمت. لكن الضربات كانت تعود. للحظة، كان جلدي قد أصيب بجروح أليمة تحرقني ولمحت دمائي في بركة صغيرة على الأرض، حينذاك تلقيت في كليتيَّ ضربة جديدة بالغة العنف حتى إنني استشففت نوراً مفاجئاً، فأحسست نوعاً من النشوة المباغتة وفقدت الوعي.

استيقظتُ، في اليوم التالي، في غرفة ذات أسرة كثيرة. كنتُ ممدداً وحدي بين رجال مسلحين يعملون هنا وهناك، في الغرف المحيطة، دون أن يعيروني أدنى انتباه، أدركتُ أنهم أصعدوني من القبو، وهذا يعني ترقية. جاء مراهق يلبس البياض، أخرس بلا شك، وأعطاني حبات أسبرين وضمد جروحي.

في منتصف النهار، عاد الرجل المقنع بلحية وجلس بالقرب مني.

ـ طاب نهارك، يا سعد.

Twitter: @ketab_n

ـ طاب نهارك. إن طريقتكم لغريبة في معاملة أصدقائكم.

ـ إنها ناجعة. لسنا واثقين من أن أصدقاءنا هم فعلاً أصدقاؤنا.

ـ وفي حالتي؟

ـ سنرى.

فسّرت ذلك بأنني قد اجتزتُ بعض الحواجز.

ـ ماذا تعرف أن تفعل؟

ـ جسدياً، لا شيء يُذكر.

ـ عندنا متوحشون، ومردة ما يكفي. تنقصنا خبرات أخرى، أكثر فكرية. هل أتممت دراستك للقانون؟

ـ تقريباً.

ـ كم لغة تتكلم؟

ـ الإنكليزية والإسبانية، وبعض مبادئ من الروسية أيضاً.

ترددت في عرض مهاراتي اللغوية. هل ستجذب عليَّ صراحتي المفاجئة مشاكل؟

ختم حديثه قائلاً:

ـ نحتاج إلى أشخاص مثلك. ستعود إلى أمك وأخواتك بمجرد أن تستطيع المشي.

ـ وماذا بعد؟

ـ إنك تطرح أسئلة كثيرة.

ثم اختفى.

Twitter: @ketab_n

بعد ثلاثة أيام من النقاهة، غطوا عينيَّ بشريط، ودفعوني داخل سيارة حرارتها خانقة، وأنا أتأرجح، فُتِحت بعض جروحي؛ وقد صممتُ على إقناع خاطفيَّ ببطولتي، فأحجمتُ عن أي صراخ، وأية إشارة في وجهي؛ أفلتت مني بعض التأوهات حين كان هيكل السيارة يدخل في الحفر.

بعد عدة ساعات، أخرِجت من السيارة؛ فانطلقتْ ثانية؛ وحين نزعوا شريط عينيَّ، تعرفت إلى مقهى سعيد.

اقتربتُ من المصباح الوحيد الذي كان لا يزال مضاءً ورأيتُ في زجاج المقهى وجهاً متورماً. حين اكتشفتُ عينيَّ المنتفختين وشفتي المشقوقة والبقع الزرقاء والضاربة إلى الصفرة التي تظلل جلدي وشعري الملتصق بقشور النُدب، ضحكت، طويلاً، بصوت عالٍ وبإعجاب. في الحقيقة، كنت فخوراً جداً من نفسي.

تقدمت نحو الحي الذي أسكنه، بمشية بطيئة، وصعبة. حين قطعتُ الزاوية، لاحظت صبياً يجول في شارعنا؛ تسمر في مكانه حين رآني.

ـ سعد سعد؟

ـ نعم.

ـ مساء الخير، أنا أمين، ابن عم ليلى.

نظرت إليه، وفجأة، انفجر الألم في رأسي، راح يدق، وشعرت بالألم. فبدلا من أن أجيبه، قطبتُ وجهي وأنا أمسك صدغيَّ.

Twitter: @ketab_n

ـ هل أنت مريض؟

انهرت أرضاً، وظهري إلى الجدار. قعد القرفصاء على مستواي وحدق إليّ. أثناء ذلك تلاشى الألم، بموجات بطيئة، وعلى مضض.

ـ سأكون على ما يرام...

سألني باحترام خجول:

ـ هل كنتَ في عراك؟

ـ كلّا، إنني أخرج من تدريب.

بعدة جمل، وبدون أن أفكر، رويتُ له الدرس الذي كررته لنفسي في تلك الأيام الأخيرة: أردت أن أضحي بذاتي لبلدي، كنتُ أناضل ضد المستعمر الأميركي، وإنني مستعد أن أبذل حياتي لطرده، ولإقامة حكومة تحترم بلدنا والنبي، بمجمل القول، قدمت له الأغنية ذاتها التي تستطيع أن تبعد الألم.

بعد قليل من العبوس المتعجب، هزَّ رأسه بالموافقة. ساد الصمت. راح، بين الفينة والفينة، ينظر بطرف عينه، بانزعاج، حوله، شأن من يتساءل ماذا يفعل هنا. وبالتالي، طرحت عليه السؤال:

ـ هل جئتَ بهدف محدد؟

ـ كلّا...

ـ أي إن الصدفة هي التي قادت خطواتك إلى هنا؟

ـ ليس كذلك...لقد أتيت بالضبط لأقول لك إنني... أنا أيضاً... مثلك... حزنت على ليلى.

Twitter: @ketab_n

ـ مثلي؟ طبعا لا!

ـ كما يتأسف ابن عم... أستميحك عذراً، أدرك أنها كانت فكرة غبية. لا أحد منا يرغب في أن...

ختمت الحديث قائلاً:

ـ أجل، لا جدوى من ذلك!

حينذاك، نهضتُ، وحييته وصعدتُ إلى بيتي دون أن أستدير، ودون أن أتقصى سبب زيارته الحقيقي؛ لن أعرف السبب إلَّا بعد سنوات كثيرة.

أطلقتْ أسرتي الصيحات لأنها تصورت أسوأ الأمور، وبعد عدة إيضاحات مقنعة، استسلمتُ لعناية النساء ولتدليلي؛ لم أعترف بشيء يتعلق بجوهر الأمر، لكنني أعلمت أمي ببساطة أنني قمت بمسعى يتيح لي الهجرة.

في الفجر، وباطنا قدميَّ ملتهبٌ، جررت نفسي إلى غرفة الحمَّام حيث أعددتُ، في طشت من الماء الساخن، مزيجاً من عصير الليمون وحبات الخردل. حين غطَّستُ كعبيَّ في السائل، ظهر والدي.

ـ لن تفعل ذلك، بالرغم من كل شيء؟

ـ مغطس من الخردل؟

ـ كلّا، إرهابي!

من أصابع قدميَّ شعرت براحة غمرتني. استسلمت لها عدة ثوان قبل أن أتمتم قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ إنه اقتراحك، أليس كذلك؟

ـ عجباً، يا ابني! لماذا لا تستطيع أن تفهم ما أقول من أول مرَّة؟

ـ لأنك لست واضحاً فيما تقول من أول مرَّة! الكل يعرف ذلك. وأنت أيضاً تعرفه.

ـ تباً، لم أنصحك بدخول حركة إرهابية.

ـ «بع جسدك، شبابك، قوتك»، ما معنى ذلك؟ لو كنتُ فتاة لتخيلتُ أنك ترسلني إلى الماخور. لحسن الحظ أنني رجل...

أطلت والدتي برأسها وسألتني بتحفظ قلق:

ـ لستَ على ما يرام، يا سعد؟

ـ بلى، يا أمي.

ـ إنك تتحدث وحدك.

ـ كلّا كنتُ أتحدث مع...

سكتُّ، ففهمتْ. أدارت عيناها في الغرفة الخالية.

ـ آه، هل كان هنا؟

ـ أجل.

ـ قل له إنني أقبله وأنتظره، هذا المساء، لتناول الشراب الساخن.

ـ لن أقصِر في ذلك.

حين ابتعدت أمي، استغرق والدي عدة دقائق للظهور ثانية. فبالرغم من وجهه الغاضب، كان قد هدأ.

Twitter: @ketab_n

ـ سامحني، يا ولدي. لقد أسأت التعبير، لم أكن أريد أن أدفعك إلى الإرهاب.

ـ يا للأسف. لم يكن حلاً سيئاً.

ـ إنه حل يثير الغثيان. سعد، يا ابني، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، هل تعرف وصايا الإرهابي الكامل؟

ـ كلّا.

ـ إنها سبع وصايا. أتعتقد أنك قادر على تبنيها؟

ـ تابع.

ـ أولاً: ألّا يكون للمرء إلّا فكرة واحدة. فانطلاقاً من فكرتين، يبدأ الإنسان بالتفكير؛ لكن المتعصب يعرف، فهو لا يُفكر.

ثانياً: هدم كل ما يعارض تلك الفكرة. عدم القبول مطلقاً بوجهات نظر مختلفة، وإن كانت أقل تبايناً.

ثالثاً: قتل هؤلاء الذين يحتجون على تلك الفكرة. فالمعارضون لا يستحقون الحياة لأنهم يُمثلون خطراً على الفكرة، وعلى أمان الفكرة.

رابعاً: يعتبرون أن الفكرة أغلى من حياة أي إنسان، بما فيها حياتك. فالمتعصب هو من واجه قيمة أغلى من الأفراد.

خامساً: ألّا يندموا على العنف لأنه يُشكل القوة المؤثرة للفكرة. فأيادي العنف نظيفة على الدوام، وإن كانت تقطر بالدماء.

سادساً: يُقدر الإرهابي الذي يسعى إلى الشهادة أن كل الأهداف

Twitter: @ketab_n

التي يصيبها عنفك العادل هي أهداف مذنبة، لأنها تختلف عن تفكيره. فإذا كان ثمة هدف من أهدافه يتفق مصادفة معك، فلن يعتبر الإرهابي الذي قدم حياته أنك ضحية بريئة، لكنك شهيد ثانٍ.

سابعاً: لا تدع التردد يدخل نفسك. بمجرد أن تشعر بوسواس، أو بحيرة يتسربان إليك، أطلق النار: هكذا تقتل الشك والتساؤل معاً. ولتسقط الروح النقدية.

ـ أحسنت، يا أبي، يا لرؤيتك الثاقبة. من أين تستقي تلك المعرفة؟

ـ رأيت هؤلاء الذين يصلون إلى هنا، إلى مملكة الموتى؛ وفق ذلك الطراز الجديد للانتحاريين، يصل منهم عناقيد كثيرة كل يوم.

ـ هل تناقشتَ معهم؟

ـ يا ابني، لا تتناقش مع إرهابي، تصغي إليه وأنت تؤيده برأسك. على كل حال، لا يحاور الإرهابي، إنه يخاطب نفسه.

ـ هناك أيضاً؟

ـ أين، هناك؟

ـ عند الموتى؟

ـ أن يكون الإنسان ميتاً لا يجعله أكثر ذكاءً، ولا أشد جاذبية.

رفع عينيه إلى السماء، وأطلق تنهداً مؤلماً قبل أن يُضيف:

ـ إن سماعهم قد شكل بالنسبة إليَّ سلسلة مباريات من الملل.

والآن أجب عن سؤالي: هل أنت قادر أن تتبنى هذه الوصايا السبع؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلّا، طبعاً.

ـ إذاً أوقف هذا النفاق وتلك المهزلة، يا ابني، ابتعد من هنا بسرعة. حين ترك المرء الذكاء والظرافة يُزهران فيه، فهناك حماقات لا يمكن قبولها.

ـ مع ذلك، فإن من السهل إفساح المجال لينطلق حقدنا.

ـ طبعاً، لكن أحقادك بالغة التنوع كي تكون منسجمة فيما بينها. فمن جهة، أنت تكره الأميركيين الذين قتلوني. ومن جهة أخرى، أنت تمقت المتعصبين الذين رمَّلوا أختيك الشابتين. كيف الاختيار بين حقدين لا يمكن جمعهما؟

ـ من الأفضل التخلص من الحقد؟

ـ ها هو ذا. في ذاك الصباح، حين أزعِجنا، كنتُ أريد أن أقترح عليك مسعى آخر: وهو أن تضع نفسك في خدمة بعض التجارات التي تحتاج إلى رجال نشطاء وشجعان. أتذكرُ صديقي شريف الحسَّاد؟

ـ الذي يعمل في المتحف؟

ـ اذهبْ إذاً وقابل أخاه، فهد الحسَّاد. إنه ليس شخصاً يوصى به، فهو أبعد ما يكون عن ذلك؛ إلّا أنه، في الأيام المضطربة التي نعيشها...

ـ فهد الحسَّاد؟

ـ إنه وغد بامتياز، سبّب خيبات كثيرة لأهله ولأخيه شريف بشكل خاص. يمكن أن يساعدك...

Twitter: @ketab_n

حين اقتربت من المتحف، في غرب المدينة، حيث لم أذهب منذ سنين كثيرة، ظننتُ أنني ارتكبتُ خطأً. فالجدران مُحَفَّرة والنوافذ مُكسرة والشبك مبقور، وكلها توحي أن البناء، بالرغم من حداثته، قد كان خرباً؛ مع ذلك، وجدتُ في مدخل الخدم، خلف محرس مجاور، شريف الحسَّاد، صديق والدي، وواحداً من أقدم الحرَّاس.

ـ سعد، يا ابني، تبدو هيئتك توازي المتحف في خرابه.

ـ نهارك سعيد، يا شريف.

ـ كيف حالك منذ وفاة والدك المسكين؟ وكيف حال والدتك؟ وأخواتك؟ وبناتهن؟ وابن اختك؟

حين لبيتُ فضوله فيما يتعلق بأسرتي، وبعد نصف الساعة التالية، التي قص لي فيها التهافت، والذي كانت ضحيته مجموعات من خمسة عشر ألف قطعة خُرِّبت أو سُرِقت تحت أعين الجنود الأميركيين اللامبالية ـ طرقت الموضوع.

همس لي والدي، قبل أن يموت، أنني في حالة الحاجة، أستطيع أن أتوجه إلى أخيك.

ـ فهد، هذا النذل، الذي لا فائدة منه! أفضلُ أن أموت من أن تذكرني باسمه! لا يمكن لأبيك أن يقول هذا مطلقاً!

ـ بلى، يا شريف. كان يحتقر أخاك، ولم يُخفِ ذلك عني، لكنه نصحني، إذا ما كنتُ في أمس الحاجة، أن ألح عليك في طلبي.

ـ هل الأمور سيئة إلى هذا الحد؟

Twitter: @ketab_n

ـ لم أكن بحاجة إلى المبالغة، وأنا أروي له أسابيعي الأخيرة، ليرق قلبه، وليبذل جهداً وليتذكر العنوان.

تمتم بتذمر وهو يدس في يدي قصاصة ورق:

ـ خذ، تستطيع لقاء أخي هناك. إنه يعمل في بابل شأن كل الطفيليين الذين على شاكلته.

بعد أن فاوضت أحد الجيران، ليأخذني إلى بابل بشاحنته الصغيرة، مقابل ساعات كثيرة من أعمال تصليحات، وصلتُ بعد قليل، ولم أتسكع في المدينة التي كنتُ أعرفها، شأن كل تلميذ عراقي، فقد أرغِمت، خلال نزهة بسيارة نقل كبيرة، على زيارة بابل الزهرية اللون التي أعاد صدَّام حسين بناءها، في ديكور على الطراز العتيق بالنسبة إلى حديقة الملاهي، حيث كان كل شيء زائفاً بشكل واضح. توجهت إلى باب فهد الحسَّاد، الذي كان يسكن فيلَّا هائلة، مجاورة لمخزنه، حيث يبيع هدايا تذكارية تجذب السائحين.

ـ أرسلني أخوك إليك.

أجاب التاجر الضخم قائلاً:

ـ ليس لي أخ.

ـ إنني أكلمك عن أخيك ذاته.

ومددت له الورقة التي كتبها شريف والتي تعرف فيها على خطه.

أدخلني الرجل البدين، بأسف، إلى منزله حيث اجتزتُ عدة أفنية

Twitter: @ketab_n

مزهرة قبل أن أجلس مستنداً إلى وسائد في غرفة ندية يفوح منها عطر الياسمين.

شرحت، للتاجر البالغ الثراء، بؤسي، وتصميمي، وقراري السفر إلى الخارج. أصغى إليَّ وهو يتصنع اللامبالاة؛ لكنني أدركت جيداً أنه يحكم عليَّ، ويسبر شخصي، ويقيِّمُني. حين تأكد من أنني تحت رحمته، قبل أن يلفظ عدة كلمات:

ـ لقد أنشأتُ تجارة مع مصر. وإنني أرسل أشياء إلى القاهرة. وطبعاً، أنت تعرف قيادة السيارة؟

لم يكن هذا السؤال يعني «هل عندك شهادة سواقة؟» ولكن «هل جلستَ قبل الآن خلف مقود؟»، وإلّا لما وافقتُ؛ شأن الشباب الذين من جيلي، كنتُ أقود سيارات منذ الرابعة عشرة من عمري دون أن أدرس قانون السير مطلقاً، كما لم أتبع دروساً؛ عندنا، يعرف الإنسان أن يقود بمجرد أن يلمس مقوداً، فالسيارة هي التي تصنع السائق، وانتهى الأمر.

ـ اشتغلْ عدة أسابيع معي في المخزن، بعد ذلك، إذا كنتَ تلائمني، تشارك في قافلة تتجه إلى مصر.

قبلتُ عرضه فوراً.

في فترة التعلم هذه، استنتجت أنه يريد بشكل خاص أن يختبر أمانتي ـ أو بالأحرى عدم أمانتي ـ لأنه تأكد من أنني أتقبل خداعه دون نقد أو تحفظ.

تحت مظاهر مخزن للهدايا، كان فهد الحسَّاد يُدير، بشكل سري،

Twitter: @ketab_n

تجارة تحف. لقد نظم هذا الرجل حياته كما رتب بيته: على نمط البصل.

فحين يرفع المرء قشرة، يكتشف خلفها طبقة جديدة وهكذا دواليك، ويكاد يصل إلى ما لا نهاية... فكل منفذ عنده يخفي منفذاً وكل غرفة تخبئ غرفة سرية وكل أثاث يحوي أثاثاً آخر، أضيق وأثمن. كان مخزنه للفخار يحمي ورشة صناعته التي بدورها تحجب صالة إيواء. لأن مخزن التحف يحوي قسمين: قسم التحف الزائفة الحقيقية وقسم التحف الزائفة البحتة.

كانت التحف الزائفة الحقيقية نسخاً صُنِعت في ورشته فيبيعها باعتبارها أصلية، يبيعها للبسطاء وللساذجين، وهم كثيرون في الواقع.

أما القطع الزائفة البحتة فكانت قطعاً مسروقة يمررها باعتبارها زائفة كي يُقدمها وينقلها بلا خطر، لكن جامعي التحف الخبراء يتعرفون إليها ويقدرونها، ويشترونها بقيمتها الحقيقية، أي يدفعون ثمنها ذهباً.

إن الحرب، ثم ما بعد الحرب قد أتاحا لفهد عصراً ذهبياً، لأن المتاحف، والمواقع الأثرية، وقصور أصحاب السلطة قد نُهبت. كان يتحدث عن ذلك بكل بساطة.

ـ لولا وجودي، يا سعد، لكان عالَم الآثار قد تداعى وانهار. لولا وجودي، لكان السارقون قد بددوا القطع، وأضاعوها، وخربوها، وكسَّروها، لأن هؤلاء الأوغاد الذين لا يفقهون شيئاً لا يتخذون أية حيطة أو عناية. إنني موافق على التهريب؛ وليس على التخريب!

Twitter: @ketab_n

أعلمتُ، بسرعة كبيرة، هؤلاء قاطعي الطرق أنني لن أشي بهم، وسأغلق فمي، وأقدم لهم قطعاً نقدية جديدة، خضراء، أي دولارات كي أريح ضمائرهم وأخلصهم من غنيمتهم. لولا وجودي، يا سعد، لكانت كنوز البشرية قد ضاعت هباءً منثوراً، فمن حلي آشورية وتحف عاجية من القرن الثامن قبل الميلاد، وقطع آجر مزخرفة بعشتار من المينا وقد زُينت بصور (*mushklushu*)(*) وبألواح كُتبت بإشارات رمزية، وبألواح حسابية، لا بل هناك لوحة محفورة من قصر نمرود.

وبالرغم من أنني شككت بأنه موَّل كثيراً من الغزوات بإرسال رجال مأجورين، فإنني كنت أستمع إلى روايته فاغر الفم. فسواء أكان مجنوناً، أم أنه يتمتع بوقاحة، فلقد كان يعتبر نفسه صادقاً، وأرفع حافظ للآثار وجد على وجه الأرض، لآثار بلاد ما بين النهرين. وإذا صدَّقناه، فإن المتحف الوطني، إذا رأى النور ثانية، فعليه أن يحمل اسمه.

بالرغم من ثرثرته، فلقد كنتُ أفهمه بشكل أفضل مما أفهم الإرهابيين الذين حاذيتهم. كان فهد فردي النزعة لا يفكر إلّا بنفسه، وبثروته، وبمتعته، وبنجاحه؛ بدا لي أن فهمه أسهل من المتعصبين المستعدين لقتل أنفسهم مع أبرياء وسط سوق؛ كان لغشّه واحتياله مظهر طيب، ومريح، ومطمئن إذا قورن بأنواع الجنون التي كانت تُلهِب بعضهم.

(*) إنه حيوان أسطوري من بلاد ما بين النهرين. يعني اسمه بالسومرية: حية/ تنين أحمر، ومؤلف من عدة حيوانات. وهو رمز الإله مردوك، حامي مدينة بابل. (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

حين تأكد من أن الوساوس لن تخنقني، أعلن لي عن الرحلة القريبة المنتظرة:

ـ ستذهب بالسيارة إلى القاهرة مع حبيب وحاتم. ستأخذون معكم خلسة بعض القطع الآتية من مدينة الحضر، من (Parthe). إن ما أطلبه منكم هو تجنب النقاط الجمركية وكذلك موظفي الحدود؛ إذا أوقفوكم، فأنتم لا تعرفونني. ما عدا ذلك، تأخذون ما شئتم من الوقت، وتمرون حيث تريدون، ما دمتم تسلمون ما معكم إلى العنوان الذي أحدده لكم. موعدنا يوم الثلاثاء. هل يلائمك ذلك؟

ها أنا ذا، لقد ربحت. في عدة أشهر، وجدت وسيلة للهرب من العراق.

رجعت ثلاثة أيام إلى بيتنا، في بغداد، لأبشر عائلتي بالخبر السعيد.

جهدت أمي وأخواتي، في السهرة التي أمضيناها معاً، في أن يعتبرن أن الخبر سعيد. كان القلق يقضم فرحنا؛ والخوف من أن نضيعَ بعضنا بعضاً، وألّا نلتقي ثانية يكدر أحاديثنا؛ فبدلاً من أن تكون علاقاتنا عذبة، ومحبة، جعلها هذا الخوف باردة، ومراقَبة منا، ومتصنعة. ترددتُ، وأنا مضطرب، وتعيس، بين الهرب بعيداً أو العدول عن رحيلي.

في منتصف الليل، جاءت والدتي إلى الممر المظلم حيث أنام، وركعتْ أمامي، وعلى راحتيها غطاء صغير مطوي.

Twitter: @ketab_n

ـ سامحني يا سعد، إنك تغادرنا غداً، وليس معي قرشٌ أعطيك إياه. فالأمهات الأخريات اللواتي رأين أولادهن يهاجرون، قد أمنَّ لهم المال ليسافروا. أما أنا، فلا أملك شيئاً. إنني امرأة يُرثىَ لحالها، ولا أستطيع أن أقدم لك أكثر من هذا الغطاء، لم أكن أماً على مستوى المسؤولية قط.

قبلتها وأنا أقول لها إنني لا أوافقها على ذلك البتة. بكت على كتفي. كان مذاق دموعها حزيناً، ومُراً.

ثم أمسكتُ بقطعة القماش البسيطة وأنا أعلن لها:

ـ لن أضيعها بتاتاً. حين أستقر في إنكلترا، سأضع هذا الغطاء، تحت الزجاج، في إطار من الخشب المحفور، والمزين بالورق المذهب، وسأعرضها وسط غرفة استقبالي، فوق المدفأة الجدارية. وكل سنة، في أول كانون الثاني، سأشير بها إلى أولادي وأشرح لهم قائلاً: «انظروا إلى هذا القماش، إنه غطاء جدتكم. يبدو، ظاهرياً، كبساط غير جميل؛ لكنه في الواقع بساط طائر. قطعتُ عليه القارات، لأستقر هنا، وأوفر لكم حياة جميلة، بتربية ممتازة، في بلد مزدهر ينعم بالسلام. لولا هذا البساط لما كنتم هنا حولي، كلكم، سعداء.»

ـ الوداع، يا سعد، يا ابني.

ـ إلى اللقاء.

وقبلتها للمرة الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

٥

كانت سيارة «الجيب» السريعة والنشطة تلتهم الطريق وتقذف خلفها، الغبار.

انتصبتُ واقفاً، وقد أخرجت صدري العاري من السقف المفتوح كي أشعر بالسرعة بشكل أقوى وأبتلع الكيلومترات وأشرب الهواء الذي يشفي غليلي.

بما أننا لم نكن نصادف أحداً، اختفت بغداد وراءنا إلى الأبد، فكنا نهرب إلى مشاهد جديدة، مطمئنة لنا ومتواطئة معنا؛ لو لم نصادف بعض الصوى ولو لم نتبع خط الممرات، لظننت أننا نقطع أرضاً عذراء، جديدة ومجهولة، خُلِقت لنا هذا الصباح. شعرت بأنني سكران، لا يمكن قهره، في بعض اللحظات، بين خريرين يصدران عن المحرك، فالصخر راح يهرب على جانبيَّ، شأن سرب من الأسماك.

كان حبيب وحاتم، رفيقاي في السيارة، وقد سلكا كثيراً تلك المسافة، يعرفان أية دروب يأخذان لتجنب الحواجز أو التفتيش.

قلت بتعجب في أذن حبيب:

Twitter: @ketab_n

ـ إنك مرتاح جداً خلف المقود. أين تعلمتَ القيادة؟

فضحك.

ـ هل نقدم امتحاناً لنضاجع امرأة؟ إنه من الطبيعي لرجل أن يقود سيارة كما يضاجع امرأة. هل تسمع، يا حاتم، ماذا يسأل الصبي؟

ـ أجل، يا رجل(*)!

توقفنا عند مدخل صحراء.

أعلن حبيب قائلاً:

ـ وقفة. سنستريح قليلاً.

ـ أجل، يا رجل!

ـ هيا يا سعد، اذهب لتملأ صفائحنا من البئر هناك، خلف الصخور.

صرخت:

ـ بكل سرور.

ـ حسناً، يا رجل.

كنتُ سعيداً أن أوكلتْ إليَّ في نهاية الأمر مهمة أقوم بها. ما نفعي إذاً؟

ولماذا ضمني فهد إلى مواكبَيه المألوفين؟ كان حبيب وحاتم يتقنان عملهما ويدبران أمورهما أفضل مما في استطاعتي.

(*) ـ يردد حاتم دائماً كلمة *Man* «يا رجل» بالإنكليزية (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

بينما كانا ممددين تحت شجرة ليدخنا، قال لي أحدهما: «آه، يا رجل، يا للمتعة» ـ رحت أكد دون أن أوفر قواي بين السيارة والبئر الواقعة على علو مئة متر. حين ملأت آخر صفيحة، وشعرت بأنني أتممت واجبي، قررت أن أستريح عدة دقائق قبل أن أعود إلى صندوق السيارة وأن أغسل رجليَّ في البركة التي تتموج عند فوهة البئر.

بينما كنتُ أدلك أصابع قدميّ، حضر والدي ليجلس عن يميني.

ـ إذن يا ابني، ها أنت تقيم عند آكلي اللوتس؟(*)

ـ ماذا؟

ـ آكلو اللوتس.

ـ ألا يمكنك أن تتحدث شأن كل الناس؟

ـ كلّا، إنني أتجنب ذلك.

ـ ألا يزعجك ألّا يفهمك أحد مباشرة؟

(*) Les lotophages: سنجد في هذه الرواية تلميحات كثيرة إلى أوديسة هوميروس التي تصف عودة أوليس بعد حصار طروادة والذي دام عشرة أعوام، كما استغرقت عودة أوليس عشرة أعوام أخرى تتخللها سلسلة أحداث يلمحُ إليها كاتب هذه الرواية ويعيش بطله بعضاً منها بشكل حديث. أما آكلو اللوتس فهم شعب توقف عنده أوليس بعد أن عصفت بسفينته ريح الشمال فساقته إلى الجنوب، في جزيرة قبرص. رحَّب أهلها بأوليس وبرفاقه، وقدموا لهم فاكهة هم يأكلونها وهي فاكهة اللوتس، وأكلها يُفقد المرء ذاكرته. هكذا، لم يعد رفاق أوليس يرغبون في العودة إلى "إيتاك"، مما دفع أوليس إلى إرغامهم على ركوب البحر للعودة. (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

ـ هذا يُسعدني. فالتعرف إلى الأبله واكتشاف الجاهل وملاحقة الوضيع، كل ذلك شكَّل دائماً متعة من ألذ متعي.

ـ لكن، يا أبي، لقد اختُرعت الكلمات للتفاهم بين الناس.

ـ هذا غباء، فلقد اخترعت الكلمات كي يتميز الناس وتتعارف النخبة فيما بينها.

ـ هذا رائع! هكذا أنا الذي لا أفهمك دائماً، تعتبرني أدنى منك؟

ـ أجل، هذا أيضاً يشكل إحدى متعي.

ـ أنت بغيض.

ـ كلّا، إنني أكوِنك وأربيك، وأعدُّك بعناية فائقة. ألم تلحظ أنني لا أتوقف عن معاشرتك مهما تخبطت؟

ـ مم...

عن بعد، بان الليل من انخفاض النور، وقد ملأ الصحراء بسكون غريب، موقفاً همسات حياة رقيقة. بدأت الظلال، شيئاً فشيئاً، تنبثق عند سفح الصخور، زرقاء ورمادية، تكشف نتوءات وأعماقاً مجهولة. خُيل إليَّ أن الظلام لا ينحدر من السماء لكنه يخرج من الأرض، ناشراً حزناً مميتاً، أشد اختراقاً من البرد، إنها كآبة لا لون لها وحزن يدفع الذئاب إلى العواء.

التفت نحو والدي وابتسمت له.

ـ ألاحظ أنك اخترت متابعتي. هل ستسافر معي حتى لندن؟

ـ قد تضطر إلى أن تحتاج إليَّ، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ هل انقطعتَ عن زيارة والدتي؟

ـ موقتاً.

ـ سيعتريها الحزن.

ـ لقد كانت حزينة قبل أن أشرح لها: إنها تفتقدك، يا سعد.

شعرت فجأة بالحزن، فخجلت من شعوري بكل تلك النشوة وأنا أهرب من بغداد لأقوم بترحالي الطويل. أدركَ والدي حنيني الذي لاح عليه الشعور بالذنب فقال لي ممازحاً:

ـ على كل حال، لن تُصغي إليَّ أمك وأنا ميت أكثر من إصغائها إليَّ وأنا حي. سواء كنتُ هناك أم لم أكن، فستهمل أجوبتي، وتتشدق مكاني. إذاً قررتُ أنه من المجدي أكثر أن أرافقك، يا ابني.

ـ شكراً.

ـ لا تتسرع في بهجتك. إنني أرافقك لكنني لا أوافقك على السفرة التي تقوم بها. إنني وازنتها بقسوة. فأنت لستَ نموذجاً يُقتدى به، يا ابني!

ـ نموذجاً لأي شيء؟

ـ لستَ نموذجاً عراقياً. تصور أن يفعل الجميع مثلك: فلن يعود هناك عراق.

ـ لم يعد ثمة عراق منذ زمن طويل.

ـ يا ابني!

ـ قبل أن أكون نموذجاً عراقياً، يهمني أن أكون نموذجاً إنسانياً.

Twitter: @ketab_n

أريد أن أقدر على العمل وأن أربح مالاً وأساعد أسرتي وأؤمن استمرار الحياة للنسوة اللواتي يعملن في البيت وللأطفال الذين يحتاجون إلى أن يتعلموا. هل تجد سلوكي شائناً؟

ـ كلّا، لكنني أفكر ببلدي...

ـ أنت مخطئ. ماذا يعني البلد؟ إنه صدفة لا أدين له بشيء.

ـ يا ابني، لا تشوش أفكاري! هذا السفر الذي لا أزال ألومك عليه ابتدأ بداية سيئة، مع هذين المتهورين، غير المسؤولين، وبالحمولة التي أوكلها إليكم فهد السافل!

ـ ماذا؟ تهريب تحف فنية؟ هناك أسوأ من ذلك.

ـ أجل، هناك الأسوأ ونحن نتخبط داخله!

ـ إنني لا أفهم شيئاً.

ـ شأنك دائماً! لقد قلت لك كل شيء لكنك لم تفقه شيئاً.

اختفى والدي، وقد تركني في حالة ارتباك مضطرب، يُعذبني حدس مر المذاق.

بعد نصف ساعة من التفكير ـ عبثاً ـ في الشكوك التي وضعها في أعماقي، رجعتُ إلى رفيقيَّ. كانا يدخنان بجدية، وبصمت في عتمة المساء.

ـ آه، يا رجل...آه، يا رجل... آه، يا رجل...

كان حاتم في نشوة وهو يسحب نفساً من غليونه متأملاً الدخان

Twitter: @ketab_n

المتصاعد نحو السماء التي بدأت تُظلم. لم يكن حبيب يلفظ بنت شفة لكنه بدا في الدهشة عينها وهو يغب غليونه.

ـ ها أنا، أيها الشابان، لقد ملأت الصفائح. هل نرحل؟

ـ كلّا، يا سعد، سنخيم هنا.

ـ أجل، يا رجل.

ـ هذه المرة، إنه من الصنف الأول، إنه ممتاز، ورائع، وفي منتهى النقاء!

ـ أجل، يا رجل.

تنهدا، وهما عاجزان عن إضافة كلمة واحدة.

أعلنت احتجاجي على هذا القرار. لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بالتسكع على هذا النحو. لماذا التوقف؟ يجب أن نبقى في حركة دائمة وأن نفلت في كل لحظة من التعرف إلينا. وإلّا فما فائدة أن نتحرك ثلاثتنا معاً؟ كان الاتفاق مع فهد أن نتابع على المقود.

بدوا، وهما مستلقيان، يبتسمان بهدوء، كأنهما لم يسمعاني. فجحظت عيونهما بين جفون متصلبة، وقد احمرت شأن المصابين بالأرق، كانا يستنشقان الدخان بطريقة منتظمة، ويمسحان عيونهما بقماش كميهما.

رشحت ريح قلقة من الظلام.

فكلما تقدم الوقت، راحا يستنشقان الدخان بنهم شره.

تقدمت نحوهما لأثير رد فعل:

Twitter: @ketab_n

ـ رِدًّا، بالله عليكما! ماذا يحدث؟

ـ خذ، يا رجل... استنشق نفخة، وستفهم.

حين اقتربت من حاتم وقد انحنيت على يده، اكتشفت ما حدث. كانت ثلاث رزم من التي ننقلها قد وضعت على الأرض، وفُتِحت بالرغم من أمر فهد القطعي، فأظهرتْ خطة شيطانية.

كان التاجر المحتال، وهو أمين لمنهجه، قد صنع رزماً روسية ـ وفق نموذج الدمى الروسية، تلك الدمى الخشبية التي تحوي دمى أخرى أصغر حتى أصغرها الذي لا يتجاوز حجمه كشتبان الخياطة. إذا كنا ننقل رسمياً تماثيل صغيرة تباع للسائحين، فنحن نعرف أنها تُخفي رُقماً سومرية تعود إلى أكثر من ألفين وخمسمئة عام؛ إلّا أن هذا الخداع يُخفي أيضاً واقعاً آخر: فنحن ننقل حمولة من المخدرات.

هل كان حبيب وحاتم يجهلان ذلك؟ بالطبع لا، لأنهما سلخا الرزم دون أن ينتظرا.

ـ الأفيون؟

ضحكا بهدوء كأنهما حذران، وبصوت جاف وخشن وعذب.

إذاً، كنتُ الوحيد الذي سُخر منه.

ـ استنشق، يا سعد، إنه من أفخر الأنواع!

ـ أجل، يا رجل، خذ نفساً!

للحظة ثانية من الزمن، كدتُ أستسلم إلى عرضهما. لماذا،

Twitter: @ketab_n

في نهاية الأمر، لا أستفيد من ذلك؟ فإذا ما أوقِفتُ بتهمة تهريب المخدرات، أكون أقلّه قد تذوقت بعضاً منها قبل ذلك، لمَ لا؟

منعني الغضب.

ـ هل كنتما تعرفان ذلك؟

ـ بالطبع!

ـ أجل، يا رجل، كنا على علم بذلك.

ـ ولماذا قبلتما؟

ـ اسحب نفساً وستفهم.

ـ آه أجل، يا رجل، أجل.

ـ إن تلك الأسفار هي أفضل ما في حياتنا.

ـ الأفضل، يا رجل.

ـ المشكلة هي أننا، في المرة الأخيرة، بالغنا في إفراطنا في التدخين حتى إننا أمضينا ثلاثة أشهر للوصول إلى القاهرة. فاعتقدت عصابة فهد أننا قد هربنا بالحمولة كاملة، بينما كنا قد دخَّنا بالضبط القليل منها.

ـ دخَّنا كثيراً جداً، يا رجل، أفرطنا في التدخين!

ـ بمجمل القول، غضب الرئيس: ففرضَك علينا. أما نحن، فقد بدأنا نتعلق به وندمن عليه، وهذا يصبح صعباً.

ـ كلّا، هذا سهل، يا رجل، هذا سهل.

ـ سترى، يا سعد، سنتدبر أمورنا، نحن وأنت: سندلك على

Twitter: @ketab_n

الطريق، وسنعلق عليه، وعلى النقاط التي يجب تجنبها، وبالمقابل، تدعنا ندخن.

لم يعد، بعد ذلك، أي مجال للمحادثة. جمَّدنا سواد الليل الأدكن كالحبر. فبالقرب من النار التي ارتجَلتُ إضرامها، لم يعد الرجلان ينتميان إلى العالم المحيط بهما؛ كانت المخدرات قد انتزعت من جسديهما الجامدين حشرجات وتأوهات ونيراناً ونشوات؛ حوالى منتصف الليل، تحدث حبيب مع ملاك.

التجأت إلى ركام من الصخور، يحميني كيس غطاء لنومي، لكنني لم أستطع الامتناع عن أن أستنشق بنفحات طويلة رائحة الأفيون، وأنا أسعى إلى الوصول إلى تلك النشوة بمنخاريَّ وحدهما؛ ثم، وقد غضبت من استسلامي للتجربة، استدرت نحو الجبل وسعيت، كي أنقي جسدي، إلى أن أستنشق العطر المعدني للصخر وللنجوم.

أخيراً أقبل الشروق الجليدي، وعلى الجسدين اللذين يهذيان، وصل ضوء النهار المزعج.

ـ هيا إلى الطريق، اشرحا لي كيف أسير، يا صديقيَّ.

رأيت الاضطراب في عينيهما الواسعتين والزائغتين. استغرقا وقتاً طويلاً كي يمتلكا زمام نفسيهما ويدركا أين هما ويتعرفا إليَّ ويتذكرا إلى أين يجب الذهاب؟

جلستُ خلف المقود ووضعتهما في المقعد الخلفي حيث ظهرا كسمكتين خارج الماء، وانطلقتُ بالسيارة. بعد ثلاث هزات أو أربع،

Twitter: @ketab_n

تقيأا، فساعدتُهما على قضاء حاجاتهما. بعد ثلاث وقفات أو أربع، ناما وقد أطبقا قبضتيهما.

بما أنني كنتُ قد خلعت نعليَّ للقيادة، لم يتأخر والدي في الظهور على الكرسي الذي بجانبي وتمتم، مبهوراً، وهو يلامس مفاتيح القيادة بأصابعه المندهشة.

ـ إنني أعشق هذه السيارات الريفية الرباعية الدفع.

ـ الرباعية الدفع.

ـ كما تقول. اعترف بأن صديقيك آكلي اللوتس ليسا جميلي المظهر، هذا الصباح!

ـ كيف تسميهما؟

ـ سعد، يا ولدي، يا لحماً من لحمي ودماً من دمي ويا عرق النجوم، أنت تعرف جيداً من هم آكلو اللوتس لأنني قرأت لك مرات كثيرة الحكاية وأنت فتى. هيا، تذكر. كنتَ تطلب مني بنهم أن أرويها لك لأنك كنتَ تحبها كثيراً.

ـ أنا؟

ـ «في اليوم العاشر، رسا أوليس ورفاقه في بلد آكلي الأزهار والذين يُدعون آكلي اللوتس. هؤلاء الرجال يبتلعون اللوتس أثناء وجباتهم. لكن كل من ذاق تلك الثمرة العذبة بحلاوة العسل، لم يعد يرغب في العودة إلى بلده، ولا يرسل أي خبر عنه لكنه يتمسك بالبقاء هناك بين آكلي اللوتس، يشبعون من اللوتس وينسون العودة».

Twitter: @ketab_n

- آه أجل، الأوديسة...

- الأوديسة، يا ابني، إنها أول قصة سفر طبعَتِ الإنسانية. فهي رحلة كتبها هوميروس، الأعمى، وهذا يُثبت أن الإنسان يصف بالمخيلة أفضل مما يصف بعينيه.

- اللوتس يُنسي الإنسان العودة... هل تعتقد، دائماً، أن المخدرات تُنسي المرء الهدف؟

- أحياناً، تفعل أفضل من ذلك أيضاً، يا ابني: إنها تنسيه أن لا هدف له.

فكرتُ طوال كثير من الكيلومترات.

ختمت حديثي قائلاً:

- ليست زهرة اللوتس، ولا الأفيون، ولا الكوكايين، ولا أية مادة تجذبني.

- يسعدني سماع قولك.

حينذاك، تأوه حاتم وحبيب.

- قف، يا ولدي، إنهما يتغوطان في مكانيهما.

أوقفت السيارة وفتحت الباب الخلفي. انزلقا خارج السيارة، وزحفا حتى الحفرة. بينما كانا يفرغان ما في داخلهما، بصخب، رفع والدي عينيه نحو السماء.

- هنا، وجب عليَّ أن أقر أن تلك من المزايا النادرة للراقدين في القبور: فالميت مرتاح الأمعاء.

Twitter: @ketab_n

رجعا إلى السيارة وطلبا التدخين.

ـ كلّا، لا وقت لدينا!

ـ يا سعد، إذا عارضتنا، فلن نبوح لك بطرقنا المختصرة ولا المواربة. ولن ترى القاهرة إطلاقاً.

ـ مطلقاً، يا رجل، مطلقاً!

ـ حسناً، دَخِّنا...

فبمهارة المدمنين الذين يفتقدون إلى مخدراتهم، عبأا غليونيهما وراحا يسحبان نفحات.

ـ آه، يا رجل، آه!

ـ هاه...

ـ يا رجل، هاه...

ـ هاه!

بدا والدي مستاءً فرفع كتفيه وأدار لهما ظهره وقد استغرق في تأمل المشهد والرمل والصخور.

ـ يا لتعاسة هذا الحوار! تعتمد فصاحتهما على كلمات مثل «هاه» و «يا رجل». كلمات بمقطع صوتي واحد، وكلمات يقتصر تعبيرها على صوتها يكررانها شأن قرد يهز شجرة جوز الهند. آه، يا له من عصر حزين... انظر إليهما جيداً واصغِ إليهما، يا ابني، فأقله تشمئز نفسك. إننا نرى الانحطاط عند الآخرين، وليس عندنا؛ فهو ليس قبيحاً إلّا حين

Twitter: @ketab_n

يظهر على وجوه الآخرين. فإذا جربنا المخدرات على أقربائنا، فلن نقترب منها مطلقاً.

استمر السفر، طوال أسبوع، على هذا المنوال، بإيقاع فوضوي، يتخلله كثير من الوقفات الإرادية ـ «يجب أن ندخن، يا رجل، أن ندخن» ـ إلى جانب الوقفات الاضطرارية ـ كان حبيب وحاتم يفرغان كل منافذ جسديهما، ووالدي يراقبهما بانتظام، وقد هالته حالات الاسهال، والتقيؤ.

ـ يا للغرابة، يا ابني، ما أعجب هذا الجسم البشري الذي يستطيع أن يتخلص من كل ما يرهقه. إننا نأسف ألّا يستطيع هذان الشخصان أن يتغوطا من أذنيهما؛ لكانا، أقلّه يتطهران من أفكارهما النتنة.

ـ يا أبي، كي يفرغا ما في رأسيهما، وجب أن يكون لهما دماغان!

ـ أنت على صواب، يا ابني. إن الله كبير: يترك الهواء يجري بين أذني هؤلاء الذين لا يسمعون.

فبالرغم من وضعهما ـ كان يصعب عليهما التعرف إلى الساعات والأيام، كما كان يصعب عليهما أحياناً أن يكونا نظيفين، فكانت هلوساتهما تزداد غموضاً وقتامة ـ لكن حبيب وحاتم عرفا دائماً أن يدلاني على الطريق، فكانا يستيقظان في الوقت المناسب، وهو رد فعل حيوي ليساوما على متعتهما، ثم يسمحا لنفسيهما في أن يستغرقا في نشوة كأنهما منوّمان مغناطيسيةً. فبفضل حيلهما وقيادتي التي لا تعرف التعب، غادرنا العراق بدون مشاكل، ومررنا إلى العربية السعودية،

Twitter: @ketab_n

حيث قطعنا الصحراء طوال أيام كثيرة، ثم اجتزنا الجبال، ووصلنا إلى شاطئ البحر الأحمر، قريباً من خليج العقبة.

ـ هل تدرك ذلك، يا ابني؟ البحر الأحمر! لم أفكر في المجيء إلى هنا في حياتي قط.

ـ في الحقيقة، أنت على صواب!

ضحك والدي فترة طويلة، ضحكة عميقة، بعيداً عن الشرر الذي أثار ضحكه، إنها ضحكة لا تنتهي تريد أن تجعل السعادة مسموعة ومحسوسة.

ـ تأمل، يا سعد: لقد أعلمني صديق أننا حين نلاحظ أمواج البحر الأحمر، نجدها أكثر زرقة من الأمواج الأخرى، وزرقتها ثابتة، وصافية، وجوهرية، وبدون تلوث.

ـ أنت على حق. وما سبب ذلك؟

ـ ليس ذلك من تأثير الواقع، إنه نتيجة الكلمات. ألم يوحِ الشاعر الفرنسي إيلوار بقوله: «أزرق كالبرتقالة»، لأن اللون البرتقالي يناقض تماماً اللون الأزرق، فهو أحمر تبلل بالأصفر. وزرقة البحر الأحمر تبدو أكثر زرقة حتى سمي البحر بالأحمر. ولا علاقة لذلك بكيمياء الأمواج أو النور، لكن بالكيمياء الشعرية والجمالية.

ثم استدار ونظر إلى حبيب وحاتم المتهالكين بعينيهما الجامدة، الأقرب إلى اللاوعي.

ـ إذا استمر الأمر هكذا، فسيدخنان الحمولة كاملة.

Twitter: @ketab_n

ـ في رأيي، أن فهد الحسَّاد قد توقع الحدث. إنني على يقين من أنه قد خبأ الكمية الاحتياطية الأكثر أهمية في مكان آخر في السيارة، ربما تحت واقية الصدمات، أو داخل مقعد، والقسم الذي ظن هذان الأبلهان أنهما سرقاه ليس في الواقع إلَّا الحصة التي خصصها لهما فهد. ليصبح الإنسان مجرماً لامعاً يجب أن يكون متضلعاً بعلم النفس.

ـ ولكي يبقى على ما هو عليه... المجد لهذا القذر فهد الحسَّاد! وليرحمه الله.

سمح لي تبادل ذاك المزاح بأن أخفي أفكاري الحقيقية: شعرت بخشية عظيمة، حين اكتشفت البحر للمرة الأولى. هل سأعهد بمصيري إلى تلك الأمواج؟ لماذا لا ألمح مصر من الجهة الأخرى، في الأفق؟ تبدو المسافة، على خريطة، بسيطة جداً... حين كنتُ في حوض السباحة، لم أكن أرفع رجلي عن الأرض الثابتة مطلقاً؛ واجهت هذا الاختبار بقلق.

وجب عليَّ أن أحرم مرافقيَّ من الأفيون طوال يوم كي يشحذا فكريهما ويتذكرا عنوان صاحب مركب العبور المسؤول عن إبحارنا بحمولتنا إلى الأرض المصرية.

حين التقينا بالرجل، وهو بحار طويل القامة، أسمر، بلون سمك الطراخور المدخَّن، أعطانا موعداً يوم الاثنين التالي، في منتصف الليل.

وصلتُ ذاك المساء، وأنا أرمق الأمواج السوداء، العميقة والعدائية. «فكرت أن هذا قبري، وأنا أقطع بنظري الحجر المتحرك من

Twitter: @ketab_n

المرمر القاتم الذي يمتد إلى ما لا نهاية. بعد عدة أيام، سأكون طعاماً للأسماك. لقد أكلت منها الكثير، وحان الآن دوري لتأكلني».

اقترب البحار، مبتسماً.

ـ إنكم محظوظون، سيكون الطقس لطيفاً كآنسة...

ـ ما معنى ذلك؟

ـ هذا يعني أنه حتى آنسة مرهفة لن تمرض في ظروف كهذه.

ـ آه، الآنسات، إنهن قادرات على الحبل والولادة، يجب ألّا نستند إلى ضعفهن! ليس هناك رجل قد يتحمل ما تعانيه امرأة... فهي تحمل طفلاً يثقل على مثانتها طوال تسعة أشهر وتخرج من بين ساقيها رزمة تزن أربعة كيلو وتحرق أحشاءك، هل تحب أنت ذلك؟ بالدماء وبالصرخات وبالسوائل المشبوهة؟ حسناً، هنَّ يحرصن على ذلك! وأسوأ ما في الأمر، أنهن يُعِدن الكرة! إذاً طقس آنسة، شكراً... هل تحملتَ عملية قيصرية؟

تفحصني، وقد فوجئ من كلامي الذي لم يفهمه. انتابه شك، من ملامحي، بالفعل كنت قلقاً.

ـ اطمئن، إنه بحر من الزيت.

ـ آه، أجل؟ من الزيت المغلي، أليس كذلك؟

أشرتُ إلى الريح التي تجعد رؤوس الأمواج.

رفع كتفيه ونادى حاتم وحبيب لمساعدته، فشرع الثلاثة بحمل السيارة إلى سطح المركب.

Twitter: @ketab_n

أثناء تلك العملية، لم أستطع أن أحول نظري عن الأمواج. فمجرد رؤيتي سطح الماء المتراقص وغير الثابت، أشعرني بضيق وانزعاج.

جلست القرفصاء، وأنا مثبط العزيمة، كي أدلِّك كاحليَّ. ثمة كحة خفيفة بالقرب مني، تلتها كحة أخرى أكثر إلحاحاً، وإن لم تخلُ من الخجل فقد أشارت لي عن حضور والدي ورائي، واقفاً على الزورق.

ـ إلى اللقاء، يا ابني، سأجدك في الطرف الآخر.

ـ كلّا!

ـ عراقي فوق مركب، شيء غير مألوف، شأن دجاجة عند طبيب الأسنان أو شأن أحد سكان إيقوسيا في حفلة خيرية.

ـ رافقني، أرجوك.

ـ ليست قدمي ثابتة على سطح المركب. أخشى أن آخذ القيادة مكان هذين المخبولين، حاتم وحبيب، اللذين يتقيأان حولنا منذ خمسة عشر يوماً.

ـ لكنك، لن تتقيأ، يا أبي: أنت ميت.

ـ أن يكون الإنسان ميتاً لا يمنع عنه الذكريات السيئة، بل على العكس، يجعله ذلك أسيراً للذكريات السيئة. لن تحملني على الصعود إلى مركب رديء مطلقاً، نقطة على السطر. موعدنا في الجهة الأخرى. سأذهب إلى مصر بطرقي الخاصة.

اختفى فجأة هارباً، وقد فلت من هيمنتي.

صرخ طويل القامة ذو الجلد المحمر:

Twitter: @ketab_n

ـ فلنبحر!

انتزعتني أربع أيدٍ من وهني وألقت بي على سطح المركب.

بعد شتائم كثيرة تلتها صلاة، شغَّل البحار المحرك بينما كان حاتم وحبيب يحلان حبال المركب. عمَّ الهواء المالح عطرٌ حامضٌ مشبعٌ بالبنزين.

راح المركب يتأرجح ويترنح، مهتزاً من جانب إلى جانب آخر. تقدم، بطفرات، وهو يبصق وينفث، ويحشرج، مبتعداً عن أرصفة الشواطئ. كان يتمايل ببطء. أحسست أنه أوهن من قشرة جوز ولن يتوصل إلى شق الأمواج الصغيرة التي تطبطب في المرفأ؛ مع ذلك كنتُ مطمئناً على نفسي لأنني لم أكن أتألم كثيراً من ابتعادي عن اليابسة.

ثم هدر المحرك، فأسرع المركب وأصبح تمايله المركب واهتزازه أبطأ وأطول وأهدأ، فشعرت بأنني أرتفع نحو السماء؛ بدا لي ذلك مسكراً، خلال ثانية، فظننت نفسي على جؤجؤ سفينة ضخمة، شأن باخرة منحوتة، عظيمة ومزهوة تنظر إلى المحيطات من علٍ، لم أعد خائفاً، فأنا على وشك أن أغزو العالم، حين قفز فجأة قلبي من صدري حتى شفتيَّ.

انهرت على الأرض، وأنا أحزق وأتقيأ الصفراء. لم تعد أعضائي تستجيب لي. تجمدت في مكاني. سال رصاص الشلل عليَّ.

ـ يا إلهي، اجعلني أموت! يا إلهي! في الحال!

حينذاك، أمسكتني يد من كتفي وأرغمتني على التراجع؛ لمحت

Twitter: @ketab_n

وجه حبيب الضاحك، والذي عرض عليَّ بعض الأفيون وهو يسخر مني.

فقبلت، دون تردد، بحركة من جفنيَّ.

مد لي غليونه. فامتصصته بحمية وأحسست، بسرعة، أن ألمي قد خف.

بعد خمس عشرة نفخة، هلل القارب بمن فيه بارتياحي الجديد، فارتفع فوق المياه، وبسط أشرعته، واشرأب نحو النجوم، وهو ينغرز مباشرة في القمر.

كنا نطير.

وحبيب يضحك.

لقد رفضْنا المحيط المرعب لنعوم بين الاثنين أي الماء والسماء. لم يعد مركبنا يهتز. فحين وصلنا في علونا على غيمة صغيرة وحيدة، وبدينة، بدت معلقة في الهواء، تفاجأ أحدهما وارتجف حين رآنا، فضم فخذيه خوفاً وهرب، بيقظة تفوق سرعة السمك النهري.

صرخ حاتم قائلاً: «يا رجل، آه يا رجل»، لكن الغيمة لم تلتفتْ.

بعد قليل، انحنى القمر نحوي وابتسم لي ابتسامة رقيقة، فذكرتني عيناه بعيني أمي، كما ذكرني فمه بفم ليلى. أظن أن القمر قد حاول معانقتي حين هبت ريح دفعت قاربنا، فمنعته من ذلك.

لا أذكر ما حدث فيما بعد...

Twitter: @ketab_n

٦

بعد أسبوع، أنزلني حبيب وحاتم، وأنا في شبه غيبوبة، إلى مكان تسليم البضاعة، وهو مرآب ملوث بالشحوم يقع في ضاحية من ضواحي القاهرة، في منتهى الفساحة والصخب والحيوية المشبعة بمختلف الروائح، ظننت فوراً أنها وسط المدينة.

- إلى اللقاء، يا رجل، كان السفر معك ممتعاً.

- الوداع، يا سعد. نأسف لعدم استمرارك معنا، فلقد شكلنا فريقاً جيداً.

إليك نصيحة واحدة: لا تمس الأفيون ثانية على الإطلاق.

- تجنب ذلك، يا رجل، تجنبه. فهو ذو تأثير خطر جداً عليك...

- بقيتَ في حالة جمود تام، بهذيان كامل! كدنا نحسدك عليه، أليس كذلك؟

- أجل، نحسدك عليه، يا رجل، نحسدك عليه!

- بمجمل القول، إذا غيرت رأيك، سنأخذ السيارة من جديد خلال أسبوع لنعود إلى بغداد. اتفقنا؟ بعد أسبوع. في انتظار ذلك، سلِّم على والدك من قبلنا.

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، يا رجل، قبلْ والدك من جهتنا. إنه مضحك، العجوز، مضحك...

اللعنة، كم ضحكنا وتسلينا!

سرت طوال ساعات كثيرة، مباشرة أمامي، كي أتأكد من عدم الوقوع عليهما ثانية، وأنا أسلك شوارع مجهولة وأقطع طرقاً بنيت على دعائم فوق طرقات أخرى وأحاذي بنايات لا تُحصى بأحجار زوايا جعلت الطوابق الأخيرة غير منتهية كي تُضاف إليها أبنية أخرى على مدى السنين، ساعياً إلى أن أمحو من ذاكرتي أي معْلم يتعلق بالمكان الذي تركاني فيه.

لماذا تحدثا عن أبي؟ هل ظهر لهما؟ هل سمعاني أحاوره أثناء هذياني؟

على كل حال، أين هو؟ أدركت أنه لم يزُرْني منذ أيام كثيرة.

جلست بالقرب من فوهة أحد المجارير ونزعت حذائيَّ ودلَّكت قدميَّ. لم يأتِ أبي. أعدت الكرة، عبثاً.

هل حرد عليَّ بسبب الأفيون؟ هل أخفق في عبور البحر الأحمر؟ كيف يتنقل الموتى؟ هل فقدته وأنا أعتلي المركب فوق المياه؟ هل خرَّبتِ المخدرات إمكانية عودته؟

رجعت إلى مشيتي الهائمة، وأنا خجل.

كان أساتذتي قد وصفوا لي القاهرة بأنها مدينة شاسعة، وهذا ما كان بعيداً عن الصواب: ففي الواقع، تمتد القاهرة على مسافة عريضة

Twitter: @ketab_n

جداً، حتى إنني لا أستطيع أن أصل إلى حدود تلك الفساحة مطلقاً. حين يحط الإنسان رحاله في العاصمة المصرية، يجب أن يتخلى عن فكرة الهيمنة على المكان وأن يُضحي بهذا الشعور الريفي والموغل في القدم، وهو معرفة أين هو دائماً وإلى أين هو ذاهب ومن سيلتقي. كنت سكراً بحريتي الجديدة، مندهشاً بأنني لم أعد أخشى هجوماً انتحارياً أو اعتداءً أو قصفاً، كنتُ سعيداً في أن أرفع ناظري نحو السماء حيث لا تحلق طائرات مروحية عسكرية، مغتبطاً بالمشي على أرض بلا أنقاض ولا حصى ولا مسامير ولا عوارض ولا عظام مشبوهة، كنتُ راضياً بالسير، رافعاً أنفي إلى الريح، لأكتشف القاهرة بقدميَّ.

كان صخبها يسحرني وتلوثها يُبهجني فأتأمل طبقة الضباب الأصفر التي تتوج السطيحة شأن إكليل ثمين من الغبار الذهبي. تعرفت فيها إلى العطور الرفيعة والحسية والقوية التي تمتاز بها مدينة غنية. كنتُ أنظر، بنشوة، إلى الناس يخبون ويقودون سياراتهم ويشتغلون ويتكاسلون. كنتُ أراقب ما حولي دون أن أشعر بأنني مراقبٌ. وببضعة دولارات بقيتْ في جيبي، استطعت أن آكل؛ فبين صلواتي الست التي كنتُ أؤديها، بدقة، رحت أجول في الطرقات؛ وفي المساء كنتُ أنهار تحت بوابة لأنام.

كنت تائهاً في القاهرة وفي غاية السعادة، في أن أضيع وقتي أيضاً. بعد أربعة أيام لم يعد معي إلَّا دولار واحد. كانت قطرات العرق

Twitter: @ketab_n

تغطي جبيني، وكشعرات تجعل شعر ذراعيَّ ينتصب. سعد، ماذا أصابك؟ أنسيت المهمة التي أوكلتها إليك أمك؟

كانت دمائي قد بددت تأثيرات الأفيون المخدرة فأدركت أنني قد وضعت مشروعي في خطر. بحثت في كيسي، فوجدت العنوان، وقد سجل على قصاصة ورق، فسألت المارة كيف الوصول إلى هناك. وبعد إخفاقات كثيرة، بدَّلت الدولار الذي هو معي مقابل بعض الأوراق النقدية المحلية وأمرت تكسي غير مرخص بإيصالي إلى هناك.

سار بسيارته مدة طويلة جداً، عبر مناطق كثيرة مجهولة، حتى خشيت أن أكون قد سلمتُ مصيري إلى محتال.

حين وضعني أمام لافتة «مفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين»، تنفست الصعداء ودفعت أجرته وقفزت إلى الرصيف.

أما كيف تخيلت المشهد؟ أعتقد أنني كنت أرى نفسي في أحلامي وأنا أضغط جرس منزل فخم وفسيح حيث يتسارع موظفون مهذبون ليدخلوني؛ استقبلني فوراً أمين سر الأمم المتحدة، وهو موظف عالي المستوى في مكتب ظليل، حدثته فيه عن قصتي وآلامي ثم منحوني وضع لاجئ؛ بعد ذلك، تعكر المشهد لأنني لم أكن أعرف ضبط إيقاعه؛ فلنقل إن نساءً لطيفات قدَّمن لي وجبة، بل وجبتين ثم أقمتُ في غرفة بسيطة لكنها أنيقة طوال بعض النداءات الهاتفية؛ أخيراً استقبلني ثانية أمين السر الرفيع للأمم المتحدة ليسلمني أوراقاً نظامية، وتأشيرة خروج، وكذلك بطاقة طائرة إلى لندن، وهو يعتذر مع ذلك

Twitter: @ketab_n

بسبب القيود المالية التي حالت دون إعطائي بطاقة في الدرجة الأولى.

هذا ما حلمت به ألف مرة. سيبرهن الواقع لي أنني عديم التخيل إلى أقصى الحدود. أجل، عديم التخيل، بعلامة صفر واضحة، إنني راسب! كنتُ على وشك أن أكتشف أنني لم أنَمِّ ذاكرتي لكنني نمَّيتُ غبائي.

في الشارع حيث أوصلني السائق، كان هناك مئات من الزنوج أمام الوكالة يتسكعون وينامون وينتظرون. قطعتُ مرات كثيرة قارعة الطريق لأفهم ما يحدث. كانت أفريقيا الذليلة كلها تقف هناك، فمن ليبريين وأثيوبيين، وصوماليين، وسودانيين، وسكان من دنكا في السودان ذي حوض عالٍ، واقفين على سيقان طويلة جداً ومن سيراليونيين ذوي الأعضاء المبتورة، وأسر بكاملها هربت من مذابح رواندا وبوروندي.

للحظة، اصطدمت بشاب زنجي ذي عينين واسعتين جداً.

ـ آه، عفواً.

نظر إليَّ دون أن يفقه شيئاً. ألححت قائلاً:

ـ عفواً، لقد صدمتك.

فتح جفنيه. أشرتُ له نحو البناء.

ـ كيف الدخول لإجراء مقابلة؟ هل هناك رتل؟

انفجر ضاحكاً ولاحظت أن لثته ذات لون وردي وطراوة لا تصدّقان، وليس فيها أسنان إلّا من طرف واحد.

Twitter: @ketab_n

صرخ قائلاً:

ـ أنت، وصلت تواً إلى القاهرة!

ـ أجل.

أمسكني من ذراعي، كأننا كنا نعرف بعضنا منذ الأزل وشرح لي ما ينتظرني ونحن نتجول. فبالرغم من أنني كرهت ما أعلمني به، لكن العذوبة التي اتسمت بها روايته للمعلومات قد خففت غضبي: كان عليَّ أن آخذ رقماً يسمح لي خلال عدة أيام أن أتسجل لأحصل على موعدٍ، موعد يتم بعد ستة أشهر، ومنذ الآن حتى الموعد، لا يحق لي أن أستأجر مكاناً لأسكن فيه ولا أن أشتغل.

ـ عفواً؟

ـ كلّا. لا يحق لك أن تعمل.

ـ وماذا أفعل لأقتات؟

ـ كما يفعل الجميع، تشتغل.

ـ ولكن إن كان لا يحق لي أن أعمل؟

ـ ستعمل! عليك إذاً أن تشتغل كثيراً لتأكل قليلاً.

أشار وهو يضحك إلى مئات الأفارقة المتجمعين حولنا وأضاف قائلاً:

ـ إن اليد العاملة ليست غالية الثمن، هناك المنافسة! ويتفاهم أنصار الاسترقاق بشكل مدهش مع اليائسين، فالجميع عديمو الذمم.

استمر في الضحك وقدم لي يده الغريبة ذات الأصابع الطويلة

Twitter: @ketab_n

جداً، بلون الشوكولا من فوق وبلون الأسمر الفاتح من جهة راحة اليد، كأنها لا تلبس إلَّا نصف قفازٍ.

ـ أدعى بوبكار. لكنك إذا كنت تحبني، تسميني بوب.

ـ مرحباً، يا بوب.

ـ هل أدركت أنني أسود اللون؟

اعترضت قائلاً:

ـ ليس في كل مكان وأنا أريه باطن يده.

رفع حاجبيه بدهشة قائلاً:

ـ يا لك من عربي غريب، أنت. منذ لحظة، اعتذرتَ. والآن، أنت تمزح. إنك شخص غريب الأطوار.

ـ آسف لكوني مهذباً.

ـ هل عندك مكان تأوي إليه؟

ـ كلّا.

ـ أقترح عليك المسكن الشاغر الذي احتللته.

في ذاك المساء، أخذني بوبكار إلى بناية للهدم، على حافة أرض قفر، ليست ببعيدة عن مكان رمي النفايات، إنه خراب يعود إلى نصف قرن أقلّه، وضع هو وليبيريون آخرون فيه حقائبهم، وكذلك فرشاً أخذوها من مكان مهمل وموقداً بالغاز. كان قذراً، ذا رائحة كريهة، صغيراً وحاراً.

في الأيام التالية، شرع بوبكار بلعب كان يسليه كثيراً: أن يصبح

Twitter: @ketab_n

مرشدي ونحن نقطع القاهرة كما لو كان دليلاً سياحياً رسمياً. درَّبني على حياة أجنبي في انتظار الأوراق النظامية.

ـ كم معك من المال؟

ـ لم يبقَ معي شيء، يا بوب، لا شيء البتة.

ـ إذاً يمكنك أن تصبح (جيغولو)(*).

ـ عفواً؟

ـ أجل، أنت وسيم! في نهاية المطاف، بالنسبة إلى رجل أبيض... في الواقع، يجب أن أقول رجلاً ضارباً إلى الخضرة لأنني أجدكم، أنتم معشر البيض، أقرب إلى الخضار منه إلى البياض، أليس كذلك؟ لا سيما العربي في الشتاء... حسناً، إذاً أنت وسيم وعندك أسنان كثيرة، فإذا ما اغتسلت يمكنك أن تعجب. لو كنتُ مكانك لكسبت مالي بهذه الطريقة.

ـ انتظر! لن أمارس العهر...

ـ من يحدثك عن ذلك؟ أقترح عليك أن تكون (جيغولو) في مرقص، أي في نادٍ للنساء. لستَ مجبراً على مضاجعتهن، أو على التظاهر بذلك، ما عليك إلّا أن تجالسهن في المشرب. تسرق قبلة حين تسنح الفرصة، وتلمح إلى أنك تتمنى المزيد. بمعنى ما، تكون مرافقاً لنساء وحيدات. وهذا شيء لا غبار عليه.

(*) Gigolo : شاب عشيق تتعهده امرأة أكبر منه سناً (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

ـ كيف تريدني أن أتوصل إلى ذلك؟ فلباسي رديء وإنني أثير الضجر، ولا أعرف أحداً.

استدار على نفسه وقام بمشاهدة رشيقة، شأن قط مغتبط.

ـ ليس هناك مشكلة، يا سعد: إذا قمتَ بدور (الجيغولو)، فسأصبح قوَّادك. مقابل خمسين بالمئة مما تربح، سأؤمن لك الملابس اللائقة والعناوين الجيدة.

ـ أنت تمزح؟

ـ كلّا.

ـ بلى! عشرة بالمئة، وليس خمسين.

ـ ثلاثون بالمئة.

ـ عشرون بالمئة. إنها كلمتي النهائية.

ـ عشرون بالمئة؟ هل تعرف قوَّاداً يأخذ عشرين بالمئة؟ سأكون أرخص قوَّاد في العالم!

ـ بلا شك، وأنا، من جهتي، سأكون كذلك أرخص (جيغولو) في العالم!

رنَّت ضحكة لتوقع على اتفاقنا.

اختفى بوبكار عدة ساعات، في فترة بعد الظهر وعاد يضم إليه منديلاً يحوي في طياته قطعة من الذهب.

ـ يا بوب، هل تملك ذهباً؟

ـ لقد سرقته.

Twitter: @ketab_n

ـ يا بوب!

ـ اطمئن، سرقته من سارق. إذاً، لستُ بمجرم لكنني نصير العدالة.

ـ تريدني أن أصدقك؟ من نهبتَ؟

ـ حفار القبور.

ـ المسكين...

ـ إنك تمزح؟ فهو نفسه يجرد الموتى.

ـ ماذا؟ هل يُدفَن الموتى بأموالهم، هنا، في مصر؟

ـ كلّا، بذهبهم. انظر: إنها سن!

بعد ساعتين، في أحد الأسواق، حين ارتديت ملابسي الجديدة لأتأكد في المرآة من دقة القص والخياطة، أدركت حينذاك وأنا ألبس القماش حتى منخاريَّ صحة المثل القائل: «لا رائحة للمال».

ـ طقم أسود فوق قميص أبيض مشقوق، يا سعد، تبدو محترفاً!

بعد ذلك صحبني بوب إلى حي شعبي في القاهرة حيث أشار إليَّ بمدخل تعلوه أنوار النيون الحمراء والياقوتية مُظهرة «الكهف، مرقص».

ـ هيا لقد وصلنا. تنزل إلى حلبة الرقص، ثم تستند بمرفقيك إلى المشرب وتنتظر أن تعرض عليك امرأة أن تشرب معها.

ـ تعالَ معي.

ـ هل تمزح؟ أنا، لا يتركونني أدخل. فهو ملهى للضاربين إلى الخضرة.

Twitter: @ketab_n

ترددتُ. لأن جدة الوضع قد أخجلتني، فحاولتُ أن أكسب الوقت.

ـ «الكهف»... يا لها من تسمية غريبة لمرقص، أليس كذلك؟

ـ كلّا، ليس لمرقص للنساء.

ـ إن اللواتي يدخلن لا يبدون شابات.

ـ لا تحلم، يا سعد، لقد كُتبَ «مرقص»، وليس «جنة».

نظر إليّ مطولاً وهو يدير عينين كبيرتين بميناء ناصع البياض أكبر من القزحية وبلون الكستناء.

ـ هل غيرت رأيك؟

مرت أمامنا قزمة تبلغ الثمانين عاماً، بجفنين طُليا بالكحل وبالزرقة وبجسم بلا خصر ولا رقبة يكلل رأسَها شعر مستعار أحمر يثير الدهشة، وهي تترنح على كعبين رفيعين جداً. على عتبة المرقص، استدارت ورمقتني بغمزة تشجعني بها على لقائها قريباً. تأوهت.

ـ وأسوأ ما في الأمر أنني لست متحمساً على الإطلاق.

أمسك بوب بخاصرتيه كي لا تنفجرا من الضحك: فبفضل مزاجه المنشرح، أقنعت نفسي أن ما يبدو ليس خطيراً؛ وبعد تنفس عريض، قطعت الشارع لأدخل «الكهف».

كانت الفتاة المسؤولة عن غرفة الملابس، وهي طويلة القامة، بارزة العظام تشبه طائر المالك الحزين، قد تفحصتني بوقاحة، وهي تُقدر كل سنتمتر تقريباً من عناصر جسدي. وبعبوس متكبر، أشارت

Twitter: @ketab_n

إليَّ أن الفحص كان مقنعاً وأرتني، بحركة من منخاريها، السلم الذي آخذه.

حين نزلتُ، هاجمتني عطور النساء المداومات اللواتي يتنافسن بالعطور السكرية والزهرية والمسك والعنبر والمسك الرومي الفاخر وعطر الباتشولي: في الدرجة الأخيرة، شعرت بأنني سكران.

كان «الكهف» يبسط حلبة رقص فسيحة، بأرض خشبية مستديرة، وطاولات وكراسٍ مُعدة للشرب وكذلك للراحة. وكانت لمبات قصيرة بعاكسات النور تنشر ضوءاً ضعيفاً وورديا وخفيفاً بينما كان مشرب طويل يشغل جدار أعماق الصالة ويحملِ بعض أنوار النيون القرمزية التي تُضيف إشعاعاتها الماجنة إلى زجاجات الكحول القوية فتظهر طابعاً غرامياً أقرب إلى العدوانية. ثمة صدفات بحرية وشهوانية بشموعٍ بنية تكمل الإيحاء.

في فجوة جدارية، من اليسار، تعزف فرقة موسيقية أنغاماً مألوفة بحزم متكلف وآلي، وهي تتألف من خمسة موسيقيين مسنين، بقمصان وبناطيل داكنة اللون وبجلد كجلد المومياء وبشعر مصبوغ.

لقد جذب وصولي الأنظار نحوي. كان ثمة خمسون امرأة غاويات ومتبرجات، مرتبات الشعر، بخصر مشدود في أثواب مناسبة للرقص ويرفرفن برموشهن وهن يتفحصنني. لا شك أنهن كلهن قد رأين النور بين ولادتي جدتي وأمي. أراحني هذا التفصيل.

شعرت، رغماً عني، بنفحة حنان نحو هؤلاء النسوة اللواتي أتممن

Twitter: @ketab_n

قسماً من حياتهن، تصورتهن بأولاد وبأحفاد وبأزواج ميتين، معاقين أو لا يطاقون. لمحتهن، مترنحات، مثيرات للشفقة لكنهن فرحات بالرغم من حياة مملة، وفجأة غمرني التعاطف نحوهنَّ.

ـ من أين جئتَ، أيها الوسيم الكئيب؟

لم تنتظر القزمة المتوقدة كي تصطادني.

ـ من بغداد.

ـ يا لحسن المصادفة، إنني أدعى شهرزاد. تعالَ، سأقدم لك قدح بوظة بالفواكه وكأس شاي.

أخذتني كغنيمة إلى طاولتها. علَّقت متذمرة دمية شقراء عجوز لم تحسن إخفاء فيض سمنة الأجساد المؤلم في فستان «ساري» هندي، هذه الأجساد التي تغذى بقطع الراحة والعسل قائلة:

ـ القبيحات هن اللواتي يتمتعن دائماً بقدر كبير من الجسارة.

منذ تلك اللحظة، رحت أهنأ بساعات فترة بعد الظهر في «الكهف». فبالرغم من أنني كنتُ أرقصُ قليلاً ـ وبشكل رديء، راحت الزبونات يتهافتنَ على رفقتي. وعلى خلاف (جيغولو) آخرين كانوا يؤدون دورهم أفضل مني ـ بغمزات فتاكة، وخطوات رقص ممتازة، وتكلف مغرٍ، ولطف دقيق ـ كنتُ مقدراً لعفويتي الهادئة وللطفي ولذاكرتي التي تحتفظ بكل حديث ولأنني كنتُ بلا شك الرجل الوحيد الذي لا أرغم ذاتي على الابتسامة لهن. في الواقع، كنت أشعر بالمتعة من وجودي في نادٍ لصديقات قديمات.

Twitter: @ketab_n

فالنساء اللواتي كنّ يرغبن فيّ أكثر مما أقدمه لهن نادرات. ففي عتمة «الكهف»، بعد ساعات من الاستعداد وهن يجعدن شعورهن، ويثبتن أعناقهن بطوق الكلب، ويرسمن وجههن بالطلاء، ويشددن بطونهن بمشدات ثم يرتدين ملابس ضيقة تمنحهن مظهراً متناسقاً، كنَّ يعلمن حق العلم أنهن يخلقن وهماً؛ فحين ينسللنَ إلى المرقص، يدخلن مسرحاً كل ما فيه زائف، أنا، وهنَّ، والراقصون، ومغازلاتنا، والجمال الساحر؛ فحين ينسَبن إلى الحلبة، يصبحن ممثلات، ممثلات لأنفسهن، يمثلن جمالهن ورشاقتهن وصباهن. ليس هناك واحدة تغامر بغباء بقطع المشهد كاشفة عن لحمها.

كان بوبكار مبتهجاً: كنت أحمل فتات طعام إلى مأوانا. أما رفاقنا الأفارقة فيعانون صعوبات هائلة للاستمرار في الحياة، لأنهم يخشون مغادرة الشقة إلى السطوح العالية المصبوبة. وليتجنبوا مراقبة الشرطة وتفتيشها، كانوا يفضلون أن يقبعوا بين كسوة خشب الأكاجو المنتزعة وبقايا الأرض الخشبية وكوم الحطام. أما بالنسبة إلى الشجعان الذين يغامرون في الخروج، فحين لا تطردهم العنصرية ـ الزنوج القذرين ـ يستغلهم أرباب عمل مقيتين لا يعترفون لهم لا بحق الاستراحة ولا بدفع أجرة مقبولة ولا بحق الاحتجاج، فلا حق لهم إلّا حق السكوت. يُضاف إلى ذلك عائق يعود إليهم: وهو أنهم يرفضون تعلم العربية المصرية لأن ذلك قد يعني أنهم يقبلون البقاء في هذا البلد. انتهى الأمر ببوب إلى فرز القمامة، وكان هذا العمل يمنحه، بصعوبة، وجبة هزيلة.

Twitter: @ketab_n

في الليل، وقد يحدث أحياناً أن يشرب الأفارقة بيرة فيروحون يروون لي «الأصل». نسمي «الأصل» القصة، التي يقطعها سعال رديء والتي تشرح لماذا انتهى كل واحد منا هنا إلى هذا الدرك. كانت «أصولهم» تثير الهلع في نفسي. وبالمقارنة، فإن طفولتي في العراق وأحزاني وبؤسنا والفوضى التي هربتُ منها، يبدو كل ذلك كحكاية الجنيات وكفيلم هندي. فحين أصغي إليهم، أرى فرق تايلور العسكرية في ليبيريا الجديدة، تقتل النساء والشابات بعد أن تغتصبهن وتُقَطِّع بالساطور أذرع المسنين وسيقانهم ثم تقتل الشبان برصاص الكلاشنيكوف. كان بوب وحده صامتاً كالمعدن، لا يمكن اختراقه حتى إنني لم أعرف قط إن كانت الأسنان التي تنقصه بسبب عنف ما أو من سوء عناية.

وبالمقابل، كان «الكهف» يقدم لي مأوى تافهاً ومحباً. أدركت، بسرعة كبيرة، أن عليَّ أن أتجنب إدخال تلك القصص الحزينة في ثرثرتي مع السيدات المصريات؛ على كل حال، لم أكن أحتاج إلى الحديث، كان يكفي أن أصغي إليهن، ومن حين إلى آخر، أحدثهن عن أنفسهن.

في أحد أيام السبت حيث أديت رقصتي «مامبو» وثلاث رقصات «تشا تشا تشا»، كنتُ على وشك أن أنزوي في ركن معتم، بين المشرب والمراحيض الرجالية، خلعت حذائيَّ، ودلَّكت قدميَّ.

دوَّى صوت إلى جانبي:

Twitter: @ketab_n

ـ حسناً، يا ابني، لم أكن أتوقع لقاءك في هذا النوع من الأماكن الحقيرة...

ـ يا أبي، أخيراً ها أنت هنا من جديد. أين كنتَ؟

ـ لا يحق لي أن أجيب عن تلك الأسئلة.

ـ كم أنا مسرور من رؤيتك بعد هذه الأسابيع! ألا تزعجك مرافقتي هنا؟

ـ آه، ـ أتسمح لي، إن هذا يسليني... لأول مرة تصحبني إلى مكان مسلٍ! لم تتح لي الظروف، وأنا حيٌّ، أن أدخل هذه الأماكن.

ـ طبعاً! لا توجد تلك الأماكن في العراق.

ـ ليس ذلك مؤكداً! هل الأمور جيدة؟

ـ خاملة. بقدر اهتمامي. يتركون لي البخشيش.

ـ سعد، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي...

ـ كلّا، يا أبي، لا أريد خطباً ولا موعظة. هنا، لا أرتكب أي سوء.

ـ كلّا، إنك لا ترتكب أي شر، إنك لا تفعل شيئاً. لا شيء البتة. لا يمكنني أن أنتقد ما تفعل، لكنني أستطيع أن آسف بالضبط على أنك لا تفعل شيئاً.

ـ إن مصيري معلق، يا أبي: أنتظر موعدي في مكتب الأمم المتحدة. حتى ذاك الموعد، عليَّ أن آكل، أليس كذلك؟ ثم إنني أرسل حوالات إلى أمي، إلى بغداد.

ـ هذا صحيح... وقد استند بمرفقيه إلى المشرب، ومع أن كانت

Twitter: @ketab_n

النسوة كنَّ في وضع لا يسمح لهن بأن يرونه، فإنه لم يستطع أن يمتنع عن أن يأخذ أوضاعاً جذابة، أو أن يصقل شاربيه وقد برق نظره.

ـ آه، هيا، انظر إلى المرأة الضخمة، هناك، بشعرها البرتقالي. ألا تذكرك بالسيدة عزة باكير؟ شيء لا يُصدقُ! ألا تريدُ أن تذهب لتسألها إن كانت من تلك الأسرة؟ أتذكرُ أن للسيدة عزة باكير أختاً من أمها في مصر. اذهب واسألها.

ـ ماذا تريدني أن أقول لها؟ إن شبح والدي يجد أنك توحي إليه بالسيدة عزة باكير؟

ـ آه أجل، بكل تقاطيعها!

ـ يا أبي، ستظن أنني مجنون أو تعتقد أنني أغازلها.

ـ لن تلتهمك.

بالرغم من بعض التظاهر بالفضيلة، كان والدي يحب كثيراً أن يلاقيني في حلبة الرقص. حين أفكر في تلك الأشهر التي أمضيتها في «الكهف»، يصعب عليَّ التعرف إلى ذاتي: ذلك أنني لا أجد في نفسي سعد الأمس ولا سعد اليوم، لكنني أجد كائناً موقتاً لا علاقة له بتطلعاتي؛ لا يتأثر بجاذبية تلك السيدات المسنات اللواتي كنتُ أدعوهن إلى الرقص، بأدب وحزم وحرفية، كنت أعيش بالقرب من ذاتي. بما أنني قد قررت أن أقطع القاهرة كمحطة وقوف للذهاب إلى لندن، كنت أمضي حياتي كذلك فيها. كان يهمني موعدي وحده.

أخيراً حان هذا الموعد. حين لمحت اسمي في «مفوضية الأمم

Twitter: @ketab_n

المتحدة العليا لشؤون اللاجئين» معلقاً في القائمات، بتاريخ، وساعة، ورقم المكتب، ظننت نفسي سأنهار من الفرح. نشطتني الثقة، سأنجح، وسأحصل على وضعية لاجئ.

في صباح الموعد تصرف بوبكار كمدرب.

ـ املأ المركب، يا سعد، خذ أولاً الفظائع، أضف إليها بعض الأشياء، استعر مصائب من عندنا، مني ومن الرفاق، خذ كل شيء على عاتقك. وإلّا ففي نظر موظفي الأمم المتحدة هناك دائماً أحد ما أكثر بؤساً منك.

ـ يا بوب، لا أريد أن أكذب.

ـ يا سعد، ليس الموضوع هنا أن تتسلم شهادة بأنك رجل شريف، ولكن وثيقة ضحية. يجب بخاصّة ألّا يحسبوك لاجئاً رديئاً، ولا مستغِلاً.

ـ أعتقد أن قولي للحقيقة، يكفي لمنحي لقب لاجئ.

ـ سعد، لا تكن ساذجاً. إذا شرحتَ لموظفي الأمم المتحدة أنك تهرب من الفقر، وأنك تريد أن توَفق بعمل وترسل مالاً إلى أسرتك كي تستمر في العيش، فهذا لا يثير اهتمامهم. إنهم يحتاجون إلى عرض، إلى فضائح سياسية، إلى القتل والقتل الجماعي، إلى دكتاتوريين يثيرون جيوشاً من الأنذال الذين يحركون الساطور أو الرشاش. فإذا قيل إننا نموت جوعاً، فهذا لا يكفي. فالموت بمنجله والمجاعة وعدم الأمان وغياب المستقبل، كل ذلك لا يُقنعهم!

Twitter: @ketab_n

ـ لن أغش بكلمة واحدة. إذا كنتُ قد غادرت العراق، فلأنني أبحث عن حياة مستقيمة وبدون تسويات.

ـ إنك ترهقني. هيا، من الأفضل أن تعطيني العشرين بالمئة التي تخصني.

ـ خذ.

ـ ماذا؟ هل هذا كل شيء؟

ـ (جيغولو) في الحد الأدنى من الخدمة، كنتُ قد نبهتك إلى ذلك. (جيغولو) بلا طموح. لجني القطع النقدية الكبيرة يجب أن...

ـ ولكن من قبل، كان السيد سعد سعد يدر مالاً أكثر! إلَّا أن السيد سعد سعد لا يخفض بنطاله، على علمي؟

ـ منذ أن سددتُ لك استثمارك، أتوقف بعد ثلاث زبونات وأصغي إلى الموسيقى.

ـ أعرف أنك لست موهوباً... ولكن ليس إلى هذه الدرجة!

ـ بوب، وأنت، لست كذلك موهوباً كقواد!

ـ أنا؟

ـ نعم. وإلَّا لكنتَ سحبت حزامك وجلدتني حتى الموت.

ـ أشير إليك أنني أبدو مغفلاً إن كنت ألبس حزاماً فوق ملابسي! مع ذلك، أنت على صواب، نبقى هواة، أنا وأنت.

أطلق زفرة ثم أضاف، بمرونة، وهو ينحني:

Twitter: @ketab_n

ـ اصغِ إليَّ أقلّه في تفصيل واحد. ارتدِ لموعدك ملابس الفقراء وليس ملابس (الجيغولو). هل تقسم على ذلك؟

كي أدفع باب المكتب رقم ٢١ حيث ينتظرني وراءه موظف الأمم المتحدة الذي سيقرر مصيري، أخطأتُ مرتين.

المرة الأولى حين أوشكت على دق الباب، توقفت عن الحركة لأنني شعرت بأنني سأنهار. إنه الخوف! إنها خشية الهلع من المجابهة، وقلقٌ من الإخفاق... بلحظة، غطى العرق جسمي وتقطعت أنفاسي وكانت رائحتي كريهة. فبدون تردد، ركضت إلى المراحيض وتقيأت فطوري واستعملت لفافات الورق كي أنشِّف جسمي.

أمام المرآة التي هي فوق المغسلة، رأيت سعداً ضارباً إلى البياض، بشفتين رخوتين، وجفنين تعبين، ثم، حين غسلت أصابعي، لمحت أبي يتسلل ورائي.

ـ سعد، يا لحماً من لحمي ودما من دمي وغبار النجوم، كيف يمكنني أن أساعدك؟

ـ هل عندك دواء ضد الهلع؟

ـ أجل. صف لي بماذا تفكر.

ـ أفكر أنه، وراء الباب، ينتظرني مصيري. فالمرأة التي ستطرح عليَّ أسئلة ـ وأعرف أنها امرأة من مضيفة الاستقبال ـ تلك المرأة هي ساحرة تمسك حياتي بين يديها. فبحسب ما ستفكر بي، تصبح جنية أو

Twitter: @ketab_n

ساحرة، طيبة أو قاسية، لأن باستطاعتها أن تحولني إلى محامٍ إنكليزي أو إلى خنزير يغوص في قذارته.

ـ هيا. وقد قلتَ الآن ذلك، ستسير الأمور سيراً حسناً.

اختفى. رجعت إلى الممر الذي يقودني إلى موعدي.

بعد عدة ضربات على مصراع باب المكتب ٢١ تلقيت أمراً بالدخول.

بينما كنتُ أتقدم، لم تحرك موظفة الأمم المتحدة ساكناً، ورأسها منحنٍ على أضابيرها، أشارت إليّ بإصبعها إلى الكرسي الوحيد أمام مكتبها، ثم صنَّفت، وهي تتنهد، كثيراً من الأوراق في أضابير مختلفة وكدَّستها وأخذت مستندات جديدة وبعض الأوراق البيضاء ثم قربت قلمها من الحبر إلى فمها.

حينذاك، وقد استعدتْ أخيراً، قررتْ أن تنظر في حضوري ورفعتْ رأسها نحوي، بعينين نبيلتين قاتمتين يتوج رأسها شعر كثيف متموج ينسدل حتى كتفيها.

ـ الكنية، الاسم، الجنسية، تاريخ ومكان الولادة؟

حين جلستُ وجدت اسمها مكتوباً على لاصقة تظهر محفظة أوراقها الجلدية: دكتورة سيرسيه.

Twitter: @ketab_n

٧

ذكرتُ هويتي وأنا أبسط لها الأوراق التي أتيتُ بها. كان رأسها منحنياً على الطرف، فنظرتْ إلى أوراقي بهيئة متحفظة، أقرب إلى الشك، كأنها مرغمة.

بثانية انتابني حدس وهو أنها لن تساعدني مطلقاً.

ابتسمتْ فجأة ففكرت أنني قد أخطأت: كلّا، ليست أمامي عدوة.

بعد أن سجلتْ في إضبارتها معطياتي الأولية، رفعت رأسها وسألتني وقلمها عالٍ:

ـ اروِ لي ماذا دفعك إلى مغادرة بلدك.

ـ بلدي؟

ـ أجل، فالعراق بلدك.

ـ لا يُخيل إليَّ أنني ولدت في بلد ولكن في فخ. «بلدي»، تبدو لي هذه الصيغة غريبة. «بلدي»! لا أنتسب إلى العراق، لم يستقبلني ولا منحني مكاناً خاصاً؛ لم أكن سعيداً في العراق على الاطلاق أو حينئذٍ بالرغم عن العراق؛ لست متأكداً من أن العراق يحبني، كما أن محبتي أقل من محبته. إذاً «بلدي»... لا يلائمني. بالأحرى صدمني التعبير...

Twitter: @ketab_n

ففوجئت بتأييدها لي. أسندت ظهرها براحة أكبر إلى مقعدها وطلبتْ مني بصوت عذب أن أتابع:

ـ إنني أشك تماماً بأنك لم تعد تحبه، هذا البلد، كما أنك تترك فيه أناساً أحببتهم، أحياءً كانوا أم أمواتاً. احكِ لي كل شيء بدقة، من فضلك. سنأخذ ما يكفينا من الوقت.

لماذا أتشبث بفكرتي عنها بأنها عدوانية؟ لماذا أوحت إليَّ، فيَّ بداية هذا الاستجواب، الشعور بالذنب؟ لم أكن مذنباً! وما الذنب الذي اقترفتُه؟

حتى تلك الساعة، لم يكن هناك شيء يثير الاحتجاج، أو مشكوك فيه، بما أنها تمتنع عن التعليق، اطرد، يا سعد، هذا الشك، ولا تستسلم إلى عقدة الاضطهاد، هذا الفيروس الذي عدى به صدَّام حسين شعبه! انتصب وكن واثقاً وأجب.

إذاً رويت لها طفولتي تحت حكم الدكتاتور.

وبدون أدنى تحفظ، سجلتْ، بحمية، ما كنتُ أقول؛ لقد شغفها حديثي. ثم تطرقتُ إلى الحظر؛ هنا تابعتِ التدوين لكن حاجبيها تقطبا وقطعت جبينها ثنايا. أخيراً، وصفتُ بإسهاب الحرب وما سُمي بالسلام بعد الحرب وموت خطيبتي ومصير أخواتي...

كلما أوغلت في سردي شعرت باهتمامها يقل. أما زلت أشعر بالوهم؟ يا سعد، لا تكن حذراً! تابع. لكنه بدا لي أنها لا تقدر وصفي للمشهد؛ وبالتالي، لأقنعها، ألححت كثيراً على البلبلة والاضطرابات

Twitter: @ketab_n

والفوضوية وعلى ذلك الاعوجاج الذي يجعل الحياة من الآن فصاعداً مستحيلة في بغداد. راحت ركبتها تتحرك تحت المكتب.

أتممت قصتي بمقتل أبي وأزواج أخواتي بصعوبة لأن الدموع كانت توخز جفنيَّ وتهز صوتي، لا سيما احتضار الطفلة سلمى.

سجلتْ وهي تركز على هذا الحدث الأخير عدة جمل ثم نظرت إليَّ، وهي مستعدة لتلقي التالي. فسر لها سكوتي بأن الحكاية قد انتهت.

تنحنحتْ، ونظرتْ إلى السقف تبحث عن وحي ـ لم تجده ـ وتنحنحتْ ثانية، وحدقتْ إليَّ.

بما أنها تأخرت في الحديث، قلت متعجباً:

ـ هل أنت طبيبة؟

ـ كلّا، لماذا؟ هل أنت بحاجة إلى استشارة طبيب؟

ـ لكن...

ـ بلى! أستطيع ان أرتب لك ذلك.

ـ شكراً، لا أحتاج إلى ذلك. أردت فقط أن أعرف...

ـ عفواً؟

ـ يا للغرابة. لمَ تشير بطاقتك بذلك «دكتورة سيرسيه» إن لم تكوني طبيبة؟

ابتسمت بارتياح.

ـ إنني دكتورة في علم الاجتماع. في الجامعة، ناقشتُ أطروحة،

Twitter: @ketab_n

وهي رسالة طويلة البحث تبلغ أكثر من ثلاث مئة صفحة وتؤهلني إلى حمل هذا اللقب.

غاص كتفاي في جذعي وتكورت على الكرسي لأنني كنت خجلاً من نفسي. ماذا جرى لي، وأنا الطالب في كلية الحقوق، لأظهر سذاجة كهذه؟ بسطتْ بلاهتي حرجي. اهدأ يا سعد، وركّز تفكيرك!

ـ أين كان ذلك؟

ـ في الولايات المتحدة. جامعة كولومبيا.

ـ مع ذلك، فأنت لستِ أميركية؟

ـ أعتقد أننا لسنا هنا لنتحدث مطولاً عني.

سكتُّ. شعرت، من جديد، بأنني مخطئ.

بعد تنهد، بدت منها حركة ملل، وأخذتْ وقتاً لتفكر ثم نظرتْ إليَّ.

ـ يا سيد سعد سعد، إنك تود الحصول على وضعية لاجئ سياسي؟

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ ألم تصغي إليَّ طوال ساعة؟

ـ لماذا تطلب تلك الوضعية الآن؟

ـ عفواً؟

ـ كان عليك القيام بذلك في زمن صدَّام حسين.

Twitter: @ketab_n

ـ اعذريني، كنت أصغر سناً حينذاك، ولم أكن مصمماً على الهرب من بلدي.

حركت رأسها برفق، ثم عبَّرت بنبرة جافة:

ـ يا للأسف.

ـ ماذا؟ ألن تنقلي إضبارتي؟

ـ بلى.

ـ كما هي؟

ـ كما هي. لكنني أعرف النتيجة المنتظرة: سلبية.

ـ عفواً؟

ـ يا سيد سعد سعد، أفضلُ أن أكون صريحة معك: لن تحصل بلا شك على وضعية لاجئ.

ـ لماذا؟

ـ لأن العراق قد حُرِّرَ من الولايات المتحدة الأميركية. لأن العراق بلدٌ حرٌ اليوم. ولأن العراق يسير نحو الديموقراطية. لم يعد هناك مشكلة.

مكثت مصعوقاً. من غير المجدي المناقشة أكثر، أدركتُ الآن حدسي الأولي: لا تريد سيرسيه أن تصغي إلى ما أقوله لها! لم تكتبْ ذلك إلَّا بإهمال وريبة وأسف؛ والذين يعاينون تقريرها سيحذون حذوها ويقرأون بنظرة سريعة وريبة وأسف، وكشأنها سيعشقون البداية ويكرهون النهاية. ففي نظرهم، حرَّر الغربيون العراق من نير دكتاتوره،

Twitter: @ketab_n

فهم يدينون الفوضى الناتجة، لكنهم لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن ذلك، ويذهب بهم الأمر إلى أن يحكموا أن ذلك خطأنا، نحن، العراقيين، الذين لم نعرف أن نستعمل الحرية التي قدَّموها لنا نحن العرب المتطرفين والمتوحشين والمنقسمين، فنحن أكثر ذنباً منهم. كيف لم أفكر في ذلك قبل الآن؟

كي لا أنفجر غضباً، استغرقتُ في تأمل كاحلي الأيسر وفكرت بوالدي.

ـ كم لي من الفرص؟

ـ يكاد لا يكون لك أية فرصة. فلنقل واحدة من عشرة آلاف.

ـ سآخذها! واحدة من مليون، سآخذها.

ـ افهم جيداً، يا سيد سعد، بالتعابير الإدارية، ابتدأتْ مراحل المعاملة التقنية؛ لكنني أستشف الجواب وأريد أن أجنبك خيبة في حياة اتسمت بالبؤس. إن ما يحثني على تنبيهك هو دافع إنساني.

ـ دافع إنساني؟ هذا لطف منك في تحديده لي...

ـ أنت تُسيء فهمي لكنني لا أسخر منك، يا سيد سعد، ولا أحرص على أن تُضيع وقتك ولا شبابك الثمين. لقد عانيتَ كثيراً من الآلام.

ـ هذا لطف منك. ما هي نصيحتك؟

ـ عد إلى بلدك، ارحل إلى العراق.

ـ أعود إلى العراق. لماذا؟ كي أنتظر الأميركيين والانكليز يغادرونه، ثم آمل بأن يحتل دكتاتورٌ جديد البلد باسم الشعب ويقيم

Twitter: @ketab_n

تمثاله البرونزي في كل الشوارع العريضة، ويقتل معارضيه السياسيين، أليس كذلك؟ يجب أن أثابر؟ يجب أن أحضر بعض مشاهد القتل أيضاً؟ يجب أن أصبر حتى يصبح الظلم صارخاً من جديد؟ يجب أن ينجح عسكري في إحداث انقلاب؟ وأن يجعل مسؤول أصولي السلطة خلية إرهابية؟ في رأيك، كم يقتضي ذلك من سنوات هناك؟ كم يلزم من الوقت كي ينجح نذل في القيام بذلك؟ خمس سنوات، عشر، خمس عشرة سنة؟ أعطني تقديراً ما كي أبرمج موعدي القادم هنا!

أهملت تعليقي الساخر وتابعت بنبرة عذبة:

ـ لا تكن متشائماً، ستتحسن الأحوال، وتلك قناعتي. لا تستسلم إلى يأس موقت. ابقَ مؤمناً ببلدك، ثقْ بالذين حرروه، ثق بقدرته في البناء من جديد بفضل مساعدتنا.

اجتاحتني رغبة في أن أصرخ قائلاً:

«وهل يدفعون لك راتباً لتتفوهي بتلك الترهات؟» لكنني أدركتُ إلى مدى كبير أنها كانت صادقة، برفضها سماعي وبرغبتها في رفع معنوياتي في آن واحد. كنتُ منهاراً، فسمعت نفسي أدمدم مستاءً:

ـ لن أعود إلى العراق، مطلقاً.

مدت لي يدها، وشكرتني على زيارتي، مكررة على مسامعي أن الإضبارة ستُرفع من لجنة إلى لجنة بشكل أُبَلّغُ فيه بعد بضعة أشهر بالجواب.

Twitter: @ketab_n

تسمرتُ في مكاني، مترنحاً حين وجدت شمس الشارع.

ـ إذاً ماذا أفعل، أنا، كي أذهب إلى إنكلترا؟

بعد عدة ساعات، وقد حل الليل، وأنا مرهق من التعب، جلستُ على ضفاف النيل، تحت جدران صغيرة لفيلا فاخرة حيث تُقام حفلة راقصة على النور الذهبي للمشاعل؛ فمن موقعي، رحت أستشف من خلال الزرع بزّات بيضاء ومغشاة بالفضة كانت تدور حول نفسها على اهتزاز الطبول وجنون الزغاريد. كيف يمكن للمرء أن يبدو غير مكترثٍ على هذا النحو؟

لم يكن لي مكان في هذا العالم.

عند قدميَّ، راحت مياه النيل تمتد، بطيئة، هادئة، لامبالية.

لماذا لا أقفز؟ هل يمكن الانتحار في النيل؟

ـ كلّا، يا ابني، إنه قليل العمق. ولن يأخذك التيار بعيداً.

كان أبي قد لحق بي. ختمتُ كلامي بحزن قائلاً:

ـ إذاً الوضع سيّئ...

ـ إذاً كل شيء على ما يرام!

جلس أبي بالقرب مني وهو يربت كتفي، كان متضايقاً ومرتبكاً وحنجرته تتمتم جملاً يهملها على الفور. وكعادته، يرى نفسه أخرق وهو يؤدي دور المعزي مادام يخشى أن يفقد خفته التي يتحرك فيها على هواه.

ـ يا أبي، لقد قتلوك والآن يقتلونني.

Twitter: @ketab_n

ـ كلّا، إنهم يقتلون أملك. وهذا يقتل. ولكن بشكل أخف.

حاول أبي أن يبصق بالماء، دون أن يتوصل إلى ذلك، ثم تابع قائلاً:

ـ في الوقت نفسه، يجب أن نقر أن أمَلَك كان غبياً، اعترف بذلك.

بعد إذلالي، لم أقبل هذه النبرة المتعالية. هزني الغضب.

ـ بالنسبة إليهم، كل شيء في مغطس واحد: لم يكتسحوا بلدنا، لقد أنقذونا؛ لم يخلقوا الفوضى في بلدنا، فهم يتعثرون بعراقيين غير قادرين على تلقي السلام. كنت أظن أن شأني مع منصفين؛ أدرك الآن أنني أتعامل مع غزاة. يا أبي، إنهم يكرهونني وسيكرهون دائماً الأشخاص الذين هم على شاكلتي: فطلبي أن أكون لاجئاً يعني أنني تقيأت على عملهم، أنني أهينهم، وأشتمهم، وأضعهم وجهاً لوجه أمام أخطائهم فأصبحُ، بالنسبة إليهم، غير محتملٍ.

حرَّك أبي قدميه من فوق الموج.

ـ اسمع، يا ابني، لن نمضي الليل في التأوه هكذا. إن كان ثمة مشكلة، فهناك حل.

ـ الحل هو أن أغرق في النيل!

ـ يمكنك أن تقتل نفسك بسكين يقطع السمن.

ضحك ثم أضاف:

ـ أو تغامر بشرب كمية كبيرة من مغلي البابونج.

ضرب على فخذيه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ إلّا إذا شنقت نفسك بخيط العنكبوت.

بحركة، أوقفت هذيانه قائلاً:

ـ أتجد ذلك مسلياً؟

ـ أنا، أجل. وأنت؟ حسناً، يا سعد، لنبسط الأمور، هناك مخرجان: إما أن تعود إلى البلد، وإما تتجاوز ذلك.

ـ العودة؟ إطلاقاً. هذا يعني الاستسلام للإخفاق.

ـ حسناً، كما ترى! أنت تعرفه، الحل! نتابع.

ـ نحن؟

ـ أجل، سأرافقك.

في منتصف الليل، لحقت ببوب في المقر، وانزلقت حتى فراشه دون أن أوقظ الليبيريين الآخرين. ففي العتمة، أعلمته بإخفاقي وبرغبتي في أن أخط الطريق.

ـ ها نحن متساويان، يا سعد. لقد رفضوا طلبي كلاجئ.

ـ متى؟

ـ العام الماضي. لقد أخفيت ذلك عنك كي لا أثبط همتك.

ـ ماذا؟ أنت أيضاً؟ أسرتك تقتل تحت ناظريك، والعذابات الجسدية، وفمك المجدوع، كل ذلك لا...

ـ يدعون أنني لا أملك أي إثبات مكتوب عن مولدي ولا عن جنسيتي.

ـ بكلمة أخرى، يتهمونك بالكذب!

Twitter: @ketab_n

ـ هذا يلائمهم. لا يرون البتة ماذا قد تكسب أميركا بإيواء بوبكار بلا أي مؤهل، ولا شهادة علمية.

حك رأسه بإصبع قوية كأن هذه الحركة تساعده في إخراج أفضل الأفكار من رأسه.

ـ أنت تعرف، يا سعد، أن الدكتاتورية واضحة، أقلّه،ولعبتها مكشوفة: نعرف أن هناك سلطة مركزية، مطلقة، تمارس استبدادها بدون عقاب أو محاسبة. في الغرب، الوضع أشد مكراً: ليس ثمة مستبد ولكن دوائر رسمية مسدودة وهناك أنظمة أطول من كل أدلة الهواتف وقوانين أعدها أشخاص طيبو النيّات. حين تصلُ، تجد الأجوبة العبثية ذاتها! لا أحد يصدقك، لا مكان لك، ليس لحياتك أهمية. إذا تخلصتَ من حرصك على إرضاء الطاغية، تكتشف أنك لا تلائم النظام: فات الوقت، لستَ مطابقاً للأوصاف، تنقصك عناصر رسمية. هل ولدتَ؟ كلّا، بما أنه ليس لديك شهادة ميلاد. أنت من أصل ليبيري؟ أثبتْ ذلك، وإلّا ابقَ حيث أنت!

ـ تعالَ معي إلى لندن.

ـ كنت أفكر في الرحيل إلى القدس. يبدو أن الناس الذين هم على شاكلتي يتوصلون إلى العثور على عمل، ثم بعد أعوام كثيرة، ينتزعون وضعاً قانونياً لهم. عندي ابن عم عرض عليَّ أن أعمل في غسل الأواني في مطعم. تعالَ معي.

Twitter: @ketab_n

ـ انسَ ذلك. إن عربياً يرحل ليقيم في إسرائيل، شأن سمكة تذهب لتسْمرَّ في الصحراء. الأفضل أن تتبعني إلى لندن.

حتى الصباح، بقينا نعد الخطط. تأثر كثيراً من عرضي له بالسفر معي، وانتهى الأمر ببوبكار إلى أن تبنى وجهتي.

ختم حديثه قائلاً:

ـ حسناً، أعطني مهلة عدة أيام. فسأبحث عما يمكن فعله. المهم، هو أن نضع رجلاً في أوروبا. بعد ذلك، سنتدبر أمرنا. حتى ذاك الحين، كن أكثر نشاطاً لتبتسم لتلك السيدات، في «الكهف»، فسنحتاج إلى المال.

في الأيام التالية، لم أجد بوب إلَّا مساءً للعشاء ـ وجبتنا الوحيدة ـ في أسفل المقر. بينما كان يقطع القاهرة بحثاً عن وسيلة، رحتُ أبذل قصارى جهدي لأستحق البخشيش إما أوفر عدداً وإما أغلى ثمناً.

أخيراً بعد شهر من العمل المكثف، برز بوب أمامي عند باب المرقص.

ـ لقد نجحتُ: وجدت الوسيلة! اتبعني.

كان واهناً ومضطرباً، وهو يدير حوله نظرة رعب ثم يضحك فجأة، وهو يجرني في جولة لا تنتهي وصلنا إثرها أمام ملعب كرة قدم تحيط به مدرجات تستقبل آلافاً كثيرة من المتفرجين.

ـ ها قد وصلنا.

ـ ماذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ إلى طريقة هربنا.

بحثتُ حولي عما يمكن أن يبعث هذا الأمل في بوب. ضحك ضحكة حادة، يعتصرها الألم، شأن ضحكة رجل لم ينم بشكل كافٍ وبالتالي أعصابه متعبة.

ـ اشرح لي، يا بوب، من فضلك.

أشار بيديه ذي اللونين إلى اللوحة الضخمة التي تحيط بمدخل الملعب.

وسط لوحة كرتونية بعشرة أمتار على أربعة، صُورَت تسع راقصات للروك، بعيون فاحمة، وشعر أشعث، بملابس سوداء شأن «مراهقات عند دفّان الموتى» وهنّ يزدريننا من علياء صورتهن ويرسلنَ ألسنتهن الخبيثة، بينما كان بالقرب من اللوحة صور مُلصقة على الجدران تعلن عن «حفلات فنية بيعت جميع التذاكرالمخصصة لها» و»إضافية» كُتبت بأحرف غوطية كبيرة ذات لمعان معدني تعلن شأن بداهة صاعقة عن «حوريات البحر».

Twitter: @ketab_n

٨

هناك أحلام تبقينا نائمين وأحلام تجعلنا يقظين.

فرغبتي في الرحيل قد أمدتني بنشاط لا ينضب، كما منحتني قوة ثابتة ومتجددة، تفوقني، قادرة على تجاوز كل الحدود، بما فيها حد الحس السليم.

لماذا تركتُ مصر بدلاً من أن أقيم فيها؟

لو حططت متاعي هناك، ولو تخليت لنهر النيل عن رغباتي في الغرب لاستطعت أن أبني مركزاً متيناً ولجنَّبت نفسي سنوات من العذاب والهوان.

لماذا؟

لم يكن أسهل من التأرجح من بغداد إلى القاهرة، من عاصمة عربية إلى عاصمة عربية أخرى.

لماذا؟

حين نسترجع حياتنا، تبدو لنا مدويّة بالسؤال «لماذا» الذي لم نكن نسمعه، وحافلة بمفارق طرق لم نكن نلمح فيها إلّا خطوطاً

Twitter: @ketab_n

مستقيمة. دخلت مدينة الفراعنة وأنا مصمم على الخروج منها حتى إن احتمال البقاء فيها لم يراودني. شكراً، يا صدَّام حسين! شكراً مرة أخرى للدكتاتور المقيت الذي استمر في التأثير عليَّ بالرغم من أن يده لم تعد تستطيع أن تمسكني. فمنذ طفولتي، باعني الساحر كمية هائلة من العروبة والقوة العربية والنضال العربي والفخر العربي حتى إن هذا الشعار قد أثار اشمئزازي. فحين هربت من العراق ثم من مصر، لم أكن أرفض بلدي وحده والبلد المجاور له تقريباً، لكنني كنتُ أرفض جزءاً من ذاتي وذلك الخفقان الذي أراد صدَّام تمجيده: إنها الروح العربية. فحيث أجد تلك المثاليات والشعارات، بل بصماتها أو أصداءها البعيدة لا أستبينُ إلَّا الكذب والسيطرة والحيل والغش؛ كنتُ أكره العالم العربي، دون أن أعبر عن ذلك.

لكنني لم أتخيل أنني بمجرد أن أصل إلى العالم غير العربي، حتى أصبح العربي الأدنى من الجميع. يظن الإنسان أنه يهرب من سجن فإذا هو يحمل القضبان معه. لكن، لذلك حكاية أخرى سأرويها فيما بعد...

لقد وفِق بوبكار، معتمداً على مهارته، حين ربط مصيرنا بحوريات البحر. فبفضلهنَّ، سيمكننا أن نبحر ونقترب من الهدف. مع ذلك اكتشفنا أن معاشرتهنَّ، وهذا ما سنراه لاحقاً، تشكل مغامرة لا تخلو من المخاطر...

من يجهل، على وجه الكرة الأرضية، حوريات البحر؟ فشهرتهن قد تجاوزت بسرعة كبيرة موطنهن ـ وهو السويد ـ حتى إن أحداً لم

Twitter: @ketab_n

يعد يعرف الآن من أين أتينَ؛ وهكذا فإن أغنيتهن الشهيرة بالإنكليزية «Herbal Tea» أي الشاي الحشيشي، وهي تمجيد للمخدرات، قد أصبحت ذات شهرة عالمية.

ابتدأت الشيطانات بعرض حفلتهن بثلاثة قروش تحت اسم «أطفال شياطين»، بعد ذلك رفعنَ السعر إلى خمسة قروش تحت تسمية «فطيرة حورية البحر» وهن يشرحن أن تلك الفطيرة مزورة شأن كل الفطائر النادرة، مثل فطيرة القنبرة التي تحوي على ٨٠٪ من لحم الخنزير و٢٠٪ من لحم القنبرة؛ أما نحن، فهناك ٨٠٪ من الخنزيرة و٢٠٪ من «المغنية». أخيراً وقد تجددنَ تماماً، سمَّين فرقتهن «حوريات البحر».

إن تلك الحوريات لا يمثلن الأسطورة القديمة؛ فليس ثمة أي شيء مشترك مع النساء ـ السمكات، ولا يوجد أي شبه مع تلك الجميلات ذوات الأثداء العارية والعيون المتقدة والشعر الطويل المسترسل الذي يغطي أردافاً رشيقة تنتهي بذنب من الصدف، تلك المخلوقات المشؤومة والتي، كما يبدو، تُغرق البحارة بعد أن تكون قد أغرتهم. إضافة إلى ذلك، إن حوريات البحر في الماضي لا توحي كما توحي حوريات اليوم، بتلك الإنذارات الكهربائية، والبواري الناعبة التي تندفع بالصراخ إثر اقتحام النار أو دخول السارق.

إن كل من يحضر حفلة لتلك الحوريات يدرك أنهن يبررن اسمهن خاصة بحدة أصواتهن. يرفعن مكبرات الصوت إلى أقصى

Twitter: @ketab_n

درجة وينمين القبح ويرششن لعابهن في الميكرفون مما يجعل كل كلمة غير مسموعة ويُضخمن أصوات آلاتهن الموسيقية المعدنية حتى يصبح التشويه لا يُطاق ويستسلمن على المسرح إلى إتقان هستيري حيث يُفضلن، وقد لبسنَ ثياباً اقتُطِعت من علب أطعمة محفوظة، أن يضربن بغيتاراتهن بدلاً من أن يعزفن عليها، كما يفضلن أن يصرخن عوضاً عن أن يغنينَ، ويضاعفن التواءاتهن البذيئة بدل الرقص. إنهن من الشياطين وهن يقفزنَ ساخرات ومتهكمات. فلا يأخذن أي قسط من الراحة كأنهن جيش دبابات، يفرضن أنفسهن بسحق الجمهور الذي ليس أمامه إلَّا حلان في هذا المشهد الذي لا يتوجه إلى آذانه ـ فإما أن يُكَسرها ـ لكن نتيجة تحمله: أو يهرب، أو يستسلم. فيكون الخلاص في أن يدخل في حالة ذعر وغيبوبة.

في المساء الذي بدأت عملي فيه معهن، لآخر حفلة لهن في القاهرة وبعد عدة إغماءات أثناء الدقائق العشر الأولى وبعد إخراج خمس مراهقات وطأتهن الأقدام، أخذ العرض إيقاعه في الغليان. ما إن أهانت الحوريات، الحانقات، المشاهدين بوصفهم بالقذارة والانحطاط، وقد سيطرن عليهم، حتى رحنَ يرددن الأغاني غيباً، بشكل متقطع. فرأيت هذه المشاركة رائعة بقدر عدم فهمها: كيف يتعرف المشاهدون على نغم وسط هذا الصخب؟ هل يميزون الكلمات خلف تلك الزمجرات المبحوحة؟ اكتشفتُ سر المعجبين، فلتلك الكائنات قدرات لا توجد عند الناس العاديين، إنهم أفراد وحيدون يستطيعون

Twitter: @ketab_n

أن يجدوا جهازاً يسجل أصوات الحوريات دون أن ينفجر والعقول الوحيدة القادرة على حفظ نص غير متجانس، إنهم الزبائن الوحيدون الذين يدفعون ثمن بطاقاتهم غالياً كي لا يروا لأنهم يتحركون بعيون مغمضة تحت الألواح الخشبية وهم لا يسمعون لأن قوة الصوت تخرق طبلة الآذان. كيف كانوا يتوصلون إلى التموج وضرب الأيدي ورفع الأذرع في الهواء، بينما كانوا محتشدين ومحشورين شأن حبات الأرز الدبق؟ وما هي المتعة التي يشعرون بها بخلط أصواتهم كلها معاً؟ من الأفضل الغناء تحت قصف القنابل...

كان العرض يستحق هذا التقدير المتناقض: فوضى تامة! لا تُحتَمل من أولها إلى آخرها ولا ينقصها الذوق الفاسد وتحوي تجانساً مستحيلاً: لم يكن ثمة شيء جميل، لا للبصر ولا للسمع، ولا للشم أيضاً ـ لأنه، بسرعة كبيرة، كان ينبعث من المغنيات ومن الجمهور رائحة حامضة لآباطٍ تقطر عرقاً. في نهاية العرض، راح الجمهور يطلب المزيد من الحوريات، ويعبر عن إعجابه، ويصفق لهن بلا انقطاع، وفق الحقيقة المعروفة وهي إذا كانت الطبيعة تهلع من الفراغ فالجمهور يخاف من الصمت.

أتممت عملي ذاك المساء: وهو أن أمنع المعجبين من القفز إلى خشبة المسرح. لذلك، وجب عليَّ أن أقف بالقرب من مكبرات الصوت الضخمة، لا شك أنها المكبرات الأكبر حجماً والأشد قدرة المخصصة للعروض الهائلة التي صُنِّعَتْ في كوكبنا. فبالرغم من

Twitter: @ketab_n

الشمع في أذنيَّ والقبعة على رأسي، أنهيت الحفلة وقد صُمت أذناي وكنتُ سكران.

إن قلبي الذي ضاعف إيقاع الطبول ضرباته، قد أرسل إليَّ الدماء في أسفل البطن فكان يثير فيَّ الغرائز، رغماً عن إرادتي، لممارسة الجنس.

حين تفرق المتفرجون، تضخم السكون وتورم فأصبح مُصماً شأن الضجيج.

لاقيت بوب، وأنا أترنح، في الجهة الثانية من المسرح والذي أوكلت إليه مهمة شأن مهمتي، أي المحافظة على الأمن. تحول لون وجهه الذي كان عادة بلون الشوكولا إلى لون ضارب إلى الأخضر وراح يتهزهز من ساق فوق الأخرى، وقد أدخل يده في بنطاله الرياضي، شأن فتى يود أن يبول. حين سألته عن أخباره، لاحظتُ أنني لا أسمع صوتي؛ فوجئت حين أجابني وهو يحرك شفتيه الغليظتين اللتين لا تبعثان أي رنين.

كنا كلانا أصمين.

لهذا السبب كان منتج فرقة الحوريات قد اضطر أن يستخدم كل مساء أشخاصاً غير نظاميين: فالعمل يحطم المستخدَم. لا يوجد أحد يريد أن يفقد إحدى حواسه من أجل بضعة دولارات وكان يعرف أن عاملاً بلا أوراق نظامية ويدفع له أجراً زهيداً، يقبل العمل ولا يرفع عليه بعد ذلك دعوى.

Twitter: @ketab_n

في غرف ملابس الملعب، اقتلع بوب لوحاً وطبشورة اكتشفها صدفة سمحت لنا بالتواصل.

خربش بكتابته «هل نتابع؟».

هززت رأسي بالموافقة. ليس وارداً ترك العمل. إذا بقينا في موكب الحوريات، سيمكننا أن نعبر في شاحنة، بعد مصر، إلى ليبيا، ثم إلى تونس. لا شك أننا نجد في أحد البلدين مركباً إلى أوروبا.

اتفق بوب إذاً باتصاله مع زنجي عملاق من جامايكا، كي نستطيع أن ننام بين الجدران.

بدأنا، في اليوم التالي، نسمع قليلاً، مما أوكل إلينا أعمال الانتقال. كانت ست شاحنات من الوزن الثقيل تنقل المعدات الكهربائية للحوريات ـ أدوات الإشراف والبث والمكبرات الصوتية ـ ولقد استقبل رجال الجولة بحماسة قوانا الإضافية لفك الأجهزة ونقلها وترتيب العناصر.

حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر، استيقظت الحوريات، وخرجنَ من قوافلهن، واندفعنَ إلى الخيمة التي تشكل غرفة الطعام.

فبالرغم من أنه لم يكن لنا الحق بالاقتراب منهن ـ تُحدد عقودهن أنه لا يُسمح لأحد من العمال، باستثناء المنتج والمدير، بالتحدث معهن ـ أحسست أن هؤلاء النساء وقد تجردن من زينتهنَّ ومن لباسهن التنكري، قد ظهرنَ مختلفات عما كنَّ عليه في الليلة السابقة. إنهن

Twitter: @ketab_n

هادئات وجميلات ومتزنات، يسعين لاستعادة نشاطهن وذلك بشرب القهوة وعصير الفواكه.

شرح لنا الجامايكي حينذاك كيف تعمل تلك المؤسسة الصناعية، التي تدعي فيها الحوريات أنهن نجوم فنية، لم يكنَّ في الواقع إلّا أدوات تتبدل فيما بينها. رون، مدير الأعمال ـ المنتج، والمبتكر للمشهد، قد أخذ أولئك الفتيات الرصينات، والموسيقيات الجيدات، ثم دربهن على تقليد مؤسِسات «الأطفال الشياطين»، وهن ثلاث عاهرات فعلاً، ماجنات ومتغطرسات ومجنونات تماماً والآن يتناولن المخدرات، آمنات، في جزر فيدجي دون أن يعلم الجمهور بذلك. إذاً ضبطتِ الشابات الراقيات تصرفاتهن على سلوك تلك المنحطات. ما إن يدخل أبسط مراقب غريب إلى الدائرة، حتى تقوم أولئك الفتيات اللواتي وظفن للعمل، ببذل جهدٍ كبير كي يتصرفن كعاهرات: فيرغمن أنفسهن على إلقاء نظرات ماجنة إلى الذكور ويظهرن في حالة اندفاع جنسي مستمر فيتكلمن بسوقية ويأكلن شأن الخنزيرات.

ـ بمجرد أن تنهار واحدة نفسياً حتى يستبدلها رون ولا يلاحظ الجمهور من ذلك شيئاً. فتلك البائسات لا يتحملن الوضع طويلاً. بالرغم من كتل الشمع في آذانهن، والعناية الطبية وفترات علاج بالصمت، فقد أصيبت أقدمهن بالصمم تماماً. مع ذلك بقيت اثنتان منهن لأنهما يشكلانِ وجوهاً تصلح دائماً للمقابلات الإعلامية: بما

Twitter: @ketab_n

أنهما لا تسمعان شيئاً فإن ذلك يساعدهما على أن تظهرا وقحتين، وعلى أن تجيبا بترهات على الصحفيين. فكانت الصحافة تعشق ذلك.

أما نحن، أنا وبوب، فلقد شعرنا، في اليومين التاليين، بآلام حادة في الرأس وبعض فقدان للتوازن. واضطررنا إلى الاختباء بين القطع الكهربائية لنهرب من المراقبة الجمركية على الحدود الليبية، وهذا ما وافقنا؛ لأننا وقد التففنا بإسفنج الشاحنات الذي يحمي من التصادم، استطعنا أن ننام ونرتاح.

في طرابلس، ساعدنا الحظ في أن نقيم هناك أسبوعين قُدمت فيهما ثلاثة عروض. كان بوب يختفي طوال النهار ليقيم اتصالات بينما كنتُ أؤدي شغلي كعامل مساعد للجمايكي.

في نهاية العرض الثالث، لحق بي بوب في موقعي وهو متحمس، وبالرغم من صممنا الموقت، أعلن لي بالحركات وبتحريك مبالغ فيه من شفتيه الغليظتين، أنه قد حصل على قناة.

بينما كانت قافلتنا بشاحناتها من الوزن الثقيل تسير بمحاذاة شاطئ المتوسط وكادت تصل إلى الحدود التونسية، قفزنا أنا وبوب من الشاحنة وتدحرجنا في الحفر ونحن نوجه تحية وداع إلى الحوريات ثم تركنا الموكب يتابع، بسرعة الحلزون، جولته المدوية.

ففي اللحظة التي كنا فيها على وشك الخروج ثانية إلى الشارع، ظهرت سيارة بيضاء يقودها رون وقد طوى سقف سيارته الفخمة محولاً إياها إلى سيارة مكشوفة أنيقة.

Twitter: @ketab_n

استنكر بوب قائلاً:

ـ يا له من أبله، انظر إلى لون وجهه!

كان قميصه مفتوحاً يكشف صدراً مغطى بالشعر وقد قُصَّ بالمقص. وكان رون يعرض اسمراراً مذهباً غير واقعي، كما تبدو غير واقعية كثافة شعره وسواده وكذلك نظارتاه السوداوان بإطارهما المنقط واللتان تحولانه إلى شاب يلهو وهو يعيش على أطراف أحواض السباحة ويتغذى بأكواب العصير الملونة.

همست قائلاً:

ـ هذا طبيعي. فهو لم يحضر عرضاً كاملاً للحوريات. إنه ليس مجنوناً! يُقيم بعيداً، في الكواليس، محتمياً من الأصوات، متابعاً العرض على شاشة فيديو للمراقبة.

بحسب التعليمات التي تلقيناها، علينا أن نلتحق بمرفأ زوارة الذي تنطلق منه، كل أسبوع، ثلاثة مراكب محملة بركاب غير نظاميين.

ألح بوب، طوال الطريق، كي نبقى حذرين وأن نمشي خافضين رأسينا، تحت ملابسنا القطنية، لا نلفت الأنظار ولا يمكن معرفتنا، شأن مزارعين من المنطقة.

قبل أن نصل إلى زوارة، لمحنا مخيماً موقتاً، عبارة عن قرية من الستائر والقش والكرتون. إنها مدينة من الصفائح أعدها بسرعة مسافرون غير نظاميين. إقترحت على الفور الاقتراب منهم.

صرخ بوب قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ أنت مجنون.

ـ بلى، سيمدوننا بمعلومات.

ـ هل تعتقد أن سوق العشب التي يبتلعها الجاموس تتساءل فيما بينها إذا كان للبقر نفس طيب؟

ـ بوب، لا أريد مثلاً أفريقياً، من فضلك. يكفيني أبي في كل ما هو غامض. ماذا تريد أن تقول؟

ـ لن يخبرنا هؤلاء التائهون بشيء. فهم أعداؤنا بقدر ما هم ينافسوننا ليبحروا. وبمجمل القول، من الخطر أن نرمي بأنفسنا في شدق الذئب.

ـ أي ذئب؟

ـ القذافي. يتلقى رئيس ليبيا أوامر من الغرب. إنهم يضغطون عليه ليلعب دور خفراء الشواطئ ويضاعف المراقبة ويُنزل رجال الشرطة كي يطردوا الساعين إلى السفر. يجب أن تبقى أوروبا قلعة منيعة، تحميها أسوارها من الأمواج. وبما أن النهار يميل، فلننم بعيداً، في الحفر.

قطعنا الليل بطريقة غير مريحة، وقد تكورنا بين تلعة وأدغال من الشوك.

لكنني، في الصباح، لم أندم على ذلك. فقد كان بوب على صواب! في الساعة السابعة، توقفت سيارات أمام المخيم، واندفع منها رجال راحوا، بدون عنف ولكن بلا مراعاة يجلون المخيم وهم

Twitter: @ketab_n

ينقلون السجناء في شاحنات عسكرية. بعد ذلك، يُعادون إلى بلادهم أو يوضعون في مركز احتجاز.

ـ شكراً، يا بوب.

ـ إنني حزين عليهم لكنني سعيد بالنسبة إلينا. سنجد مكاناً على سطح السفن الآتية قريباً. حتى إنني قد أستطيع أن أساوم على الثمن لأن المهربين سيكونون حانقين ومتوترين.

أدركت فجأة أننا حقاً على وشك الرحيل.

ـ كم تكلف المسافة؟

ـ لا تهتم بذلك.

ـ أجب.

ـ حتى الآن، تكلف ألفي دولارٍ للشخص.

جعلني النبأ أنهار.

ـ لن نستطيع أن ندفع ذلك على الإطلاق.

وقد تأكد بوب من أن لا أحد يرانا، أسند فخذيه إلى الأرض وخلع حذاءه الأيمن؛ ثم رفع النعل الأسفل، وسحب منه حزمة أوراق مالية.

ـ أجرنا. ألفا دولارٍ لكل واحد.

ـ ماذا؟ هل كسبنا كل هذا المبلغ؟

ـ أنت تمزح؟ اسمع. بعد أول حفلة في طرابلس، كانت الحوريات يمشين منهكات حتى إنني فتشت في حقيبة يد إحداهن بينما كانت تستحم. ففي رأيي، لم تلحظ ذلك لأنها لم تشتكِ.

Twitter: @ketab_n

ـ بوب!

ـ عجباً، إنها تصرف ذلك في فترة بعد ظهر واحدة لتشتري تنانير قصيرة جداً تصل حتى مؤخرتها.

ـ يا بوب!

كان ذلك ثمن صممنا. رحنا نذهب من مخبأ إلى آخر، بانتظار اللحظة الملائمة، ووجد بوب في طرابلس جهة الاتصال التي أشاروا بها إليه. ساوم على ثمن سفرنا. أخيراً تلقينا تاريخ الرحيل العظيم.

ـ يوم الجمعة مساءً حين حلول الظلام.

كان بوب مبتهجاً. أما أنا، فقد أدركت أنني سأغامر من جديد بالصعود إلى مركب.

انفردت كي أجنب رفيقي مخاوفي، متذرعاً بالغسيل بالقرب من النهر.

هناك، على ضفة مستنقع ضيق، بين بعض قضبان القصب الأخضر الغض، خلعت ملابسي وقمت بتنظيف ثيابنا.

لم يتأخر أبي في اللحاق بي.

ـ آه، ها أنت هنا! كنتُ أتساءل إن لم تكن الحوريات قد أرعبنك.

ـ لقد أحسنتَ الظن، يا ولدي. عندنا، نحن الموتى، الحوريات ذاتهنَّ اللواتي يعادل قبحهنَّ صخبهنَّ، في مناطق المملكة الأقل ارتياداً؛ لم أكن راغباً في رؤية رؤوس الغيلان. إذاً، تتطوع ثانية في البحريّة؟

ـ آه، لا تحدثني عن ذلك.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت تخشى أن تتوعك صحتك قليلاً؟

ـ أتمنى أن أكون مريضاً جداً، بل مريضاً حتى فقدان الوعي، مريضاً لدرجة أن أتخبط في الغيبوبة: هكذا لا أعي شيئاً من حولي.

ـ معك حق، يا ابني. يحدث أحياناً أن قليلاً من الألم قد لا يطاق أكثر من الألم الشديد. ما هي وجهتكم؟

ـ لمبادوزا. إنها جزيرة صغيرة تقع في جنوب إيطاليا. فما إن تطأ أقدامنا أرضها حتى نكون قد صرنا في أوروبا.

يوم الجمعة مساءً، ذهبنا إلى مكان الموعد، وهو خليج صغير قفر غير بعيد عن المرفأ. حين رأيت ضيق المركب وعدد الراغبين في السفر على الصخور، اعتقدت أن ثمة خطأً.

ـ بوب، اسرعْ، فلنتدافع إلى الأمام، إننا كثيرون جداً، وسيضطر المهربون إلى الاختيار.

راح بوب يدفع الناس بمرفقيه فوصلنا بين العشرة الأوائل لنمد مالنا إلى الرجال المشبوهين الذين ينظمون رحلتنا ثم قفزنا إلى الزورق الصغير. فبشكل غير منتظر، لم أشعر بالاطمئنان إلّا بعد أن تركت اليابسة.

لكن عمليات الإبحار تتابعت.

راح ضيق المكان يزداد، كما شرع المسافرون غير النظاميين المكدسين على المقاعد يحتجون، ثم يشتمون هؤلاء الذين على الأرض فيجيبهم الآخرون بعنف كبير. طقطق الخشب. أثناء تلك

Twitter: @ketab_n

الملاسنة الكلامية، كان الأقوياء النظاميون والهادئون والمتصلبون يساعدون زبائنهم في الصعود. راح رأس المركب شيئاً فشيئاً يزداد غوصه في الأمواج.

قبل أن يستقر آخر راكب، أدركنا أننا سنقوم برحلة تعد خمسين شخصاً على مركب قد صُنِع لعشرة ركاب. كاد الخجل يعترينا لأننا تجاسرنا على الاحتجاج. طأطأت رأسي، وتعلقت أصابعي المتشنجة على حافة المركب. هكذا لم يكن عليَّ أن أتحمل فقط البحر ولكن الاختلاط بكل هؤلاء الناس ومحاذاتهم. وتلك بشائر سيئة للرحلة.

ـ كما ترى، يا بوب، في هذا الحيز، لسنا مرصوصين أكثر من المعجبين بالحوريات أثناء الحفلة، لكنّ لهذا أثراً آخر.

تأوه بوب قائلاً:

ـ لا تقلق، يا سعد.

إثر جوابه، شممت رائحة مقززة.

قلت على سبيل المزاح:

ـ بالإضافة إلى ذلك، تنبعث رائحة كريهة. أنت تحجز لنا بطاقات بتعرفة درجة رجال الأعمال ونشم رائحة منفرة!

ـ تفوح مني، يا سعد، تلك الرائحة النتنة. إنني خائف.

تدافعت بكتفيَّ حتى أكون أمامه؛ تحت ضوء القمر، لم أرَ إلّا عينين وجلتين، وقطرات العرق تسيل من جبينه وتلقيت في وجهي نفسه الثقيل، والذي زاد القلق من ثقله ومن حموضته.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت لا تحب الماء، يا بوب؟

ـ لا أعرف السباحة.

وقد رأيته بهذا الهلع، توقفت عن التفكير بذاتي وبمخاوفي وسعيت إلى مواساته.

ـ لماذا ستسبح؟ لا أعتقد أنك تحتاج إلى أن تكون في الماء لتدفعنا. رأيتُ محركاً تنبعث منه رائحة قوية لزيت الغاز.

ـ زيت الغاز؟ إذا لم نغرق، من الممكن أن نحترق!

ـ أجل، يمكن أن ننجح في العمليتين: أن نشوَى أولاً، ثم يغرق رمادنا. سنشكل وجبة رائعة من اللحم المشوي للسمك. أيلائمك ذلك، كبرنامج؟

انطلق المركب.

أرغمت ذاتي تلك الليلة على ألّا أفكر: ألّا أتقيأ وألا أفقد الوعي وأن أهتم ببوب الذي كان يرتعش كورقة. فلشدة ما شرحت له أن الرحلة البحرية تسير على أفضل ما يُرام، وأن هذا المركب يعمل بشكل رائع، انتهى بي الأمر أن اقتنعت بذلك.

بالطبع، لا مجال للنوم، لأنه لم يكن لنا مكان للوقوف دون أن نتلقى ثلاث أذرع على الأضلاع، أما أن نتمدد فيستحيل ذلك.

عند الفجر، ميزتُ بشكل أفضل أي موكب نشكل: هناك كثير من الزنوج ـ من نساء ورجال وأطفال ـ، معظمهم من بنغلادش، وهناك بعض المصريين قد أتوا من الزقازيق، في دلتا النيل. كان الجميع ـ

Twitter: @ketab_n

تقريباً- يخشون البحر والماء. وكلهم يعانون العطش والجوع. وكلما ارتفعت الشمس إلى وسط السماء راحوا يهابون الحرارة.

كان البحار يثبت نظره نحو الأفق، غير مبالٍ بالصراخ والمخاوف، وكذلك وبالتهديدات ومحافظاً على إيقاعه في الرحلة البحرية.

وسط فترة بعد الظهر، صاح صوت:

- هناك! هناك! يوجد شخص ما.

خرج البحار عن صمته وعن صرامته وطلب توضيحات ثم اتجه نحو النقطة.

ميزنا على الأمواج رجلاً جريحاً، بثياب ممزقة نتفاً، وقد تعلق بشبكة صيد لسمك الطون. نجح في رفع ذراع ضعيفة.

صرخت قائلاً:

- إنه حيٌّ. لا يزال حياً.

وكجواب مباشر، وجه البحار المركب إلى الاتجاه المعاكس، مسترجعاً محوره السابق. سيلف حول الرجل دون أن ينتشله.

احتججت.

بدا البحار كمن لم يسمعني ثم، بما أنني ألححت، انتهى به الأمر أن صرخ في وجهي:

- سد فمك، الآن! إنني هنا لأنقلكم إلى لمبادوزا. لا وقت لي لأقوم بدور المنقذين.

- لكن قوانين البحر...

Twitter: @ketab_n

ـ قوانين البحر، ماذا تعرف عنها، أنت، العراقي؟ إذا رأيتُ بحاراً في البحر، أنقذه. ولكن، حتى الآن، لم يرَ أحد مطلقاً بحاراً معلقاً بشبكة صيد الطون. إن الغبي الذي رأيته هو شخص غبيٌ مثلك، إنه غبي وقع من مركب شأن المركب الذي أنت عليه، غبيٌ دفع مالاً إلى شخص آخر غيري لينقله إلى لمبادوزا. إنني لست مسؤولاً عنه ولا دخل لي به. والآن، إذا كنتَ غير مسرور، تغطس للحاق به. اتفقنا؟

دسَّ بوب رأسه في عنقي وأوحى إليَّ بعذوبة:

ـ أعتقد أنك موافق.

ـ ولكن...

ـ لا تثير حنقه أكثر من ذلك، من فضلك. لخاطري.

استمرت الرحلة واستطعنا أن نفهم بشكل أفضل ما حدث بلا شك. كلما تقدمنا، كنا نلمح أشكالاً مشبوهة تعوم على سطح الماء؛ إذا استطعنا أن نتبين أولى الأشكال من أحذية وحقائب وثياب، ثمة بعض الكوم كانت تشبه بشراً؛ بعد ذلك، لم يعد هناك مجال للشك: كانت جثث نساء ورجال وأطفال تعوم حولنا. من المؤكد أن سفينة قد غرقت وألقت بحمولتها لتغرق في عرض البحر.

على مركبنا الصغير، تشنجت الرقاب وخرجت بعض التأوهات من الحناجر، لكن لا أحد قد علَّق على ذلك. شكَّل صمتنا رد فعلنا الوحيد. ربما أمِلنا بسكوتنا أن نحذف ما كان يضايق عيوننا، وبرفضنا أن نصوغ الهول المريع بكلمات فقد نقلل تأثيره، بل واقعيته؟

Twitter: @ketab_n

كما لو فهم ما يخلق البلبلة في نفوسنا، رفع بحارنا ذقنه، بزهوٍ وتعالٍ وتصميم. عرف من الآن فصاعداً أن الخوف يكمّنا، وأننا لم نعد نناقش أوامره وسيكون، حتى تطأ أقدامنا اليابسة، بطلنا.

كان خيالي يعدو. كيف يغرق المركب؟ ولماذا يغرق؟ كنت أتفحص الأفق بحثاً عن رصيف صخري، كنت أكسر رقبتي لأتأكد من أن السماء لا تُغطى بالغيوم، وأعرض وجهي لهواء البحر كي أكتشف إذا كانت النفحات التي تضربه بشدة آتية من مجرد دفعنا أو من الرياح التي تهب من بعيد.

عند حلول الليل، أوقف البحار المحرك ونبهنا إلى أنه يرغب في النوم، وأننا سننطلق ثانية عند الفجر. عملنا، من أجله، ما لا يمكن أن نقوم به لأي واحد منا: أفسحنا له مكاناً ليتمدد على الأرض بينما، حشرنا أنفسنا أكثر من أي وقت، وبقينا واقفين.

انقضى الليل، بطيئاً. وقد نمت واقفاً، رحتُ أستيقظ بلا انقطاع. شعرت بالمركب يميل على جنبه؛ ما إن أفتح عينيَّ حتى يستقيم وضعه؛ فبمجرد أن أكف عن مراقبته، يتمايل؛ في شبه وعيي الكابوسي، ظننت نفسي مسؤولاً عن مصيرنا، فكنتُ حارساً مثيراً للسخرية يناضل ضد الغرق بقوة جفنيه وحدهما.

عند الفجر، هدر المحرك. أما بحارنا، وقد انتعش، شق الأمواج من جديد.

فجأة، قطب وجهه وراح يشتم.

Twitter: @ketab_n

ـ اللعنة! إنهم هناك.

تفحص الأفق بناظوره وقد أعطى أوامر للراكب الأقرب منه. شوه القلق تقاطيعه؛ فكانت شفتاه تتمتمان؛ وجفناه يرتجفان؛ مديراً رأسه يمنة ويسرة، فبدا كأنه يبحث عن حل على الجوانب.

ثم ترك ناظوره وأخذ نفساً وحدجنا معلناً لنا:

ـ تغيير الاتجاه. نحن ذاهبون إلى مالطة. ثمة كثير جداً من المراكب المشبوهة حول لمبادوزا. فخفر الشواطئ يبدون حماسة في عملهم.

احتج بعض الركاب من بيننا، اما أنا فلم أناقش في ذلك. كنت أعرف قرارات هذا الرجل التي لا تتزعزع لأنني كنتُ قد قبلت أن أعهد إليه بمصيري.

تمتم بوب ليطمئننا:

ـ سواء لمبادوزا أو مالطة، فالأمران سيان.

ـ كلّا، يا بوب. لا تنتمي مالطة إلى الأسرة الأوروبية. ليس بعد.

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟

ـ لست متأكداً من شيء. لكنني لا أظن ذلك. على كل حال، يجب أن نترك مالطة لنرحل إلى قارة أوروبا، كما كان علينا أن نغادر لمبادوزا.

ـ ربما سيكون ذلك أسهل؟

Twitter: @ketab_n

ـ ربما. ليس هناك من رحلة بحرية دون توقف في مرفأ، أليس كذلك؟

بما أننا كنا نعي وجودنا في مأزق، ولا حول ولا قوة لنا في اتخاذ القرار، كنا مرغمين على التفاؤل، فهو الفعل الوحيد الذي لا يزال بعد متوقفاً على إرادتنا.

حوَّل المركب اتجاهه. راح بحارنا، بفترات منتظمة، يراقب إذا كان أحد يلاحقه من خفر الشواطئ: بعد ساعات كثيرة، انفرجت أساريره.

حين حل الليل، وجب علينا إعادة مسعى الليلة السابقة وهو أن نفسح له مكاناً لينام، وأن نتحمل أن نراه يشرب ويأكل بينما كان معظمنا قد أكلوا كل مؤونتهم، وأن نبقى هادئين في المركب الذي يترنح. لحسن الحظ، بدأ التعب والارهاق يزيلان نشاطنا ويضعفان قدراتنا على القلق.

أعادت شمس شاحبة وكسولة وكئيبة النشاط إلى قبطاننا. تأفف، وتمطط وأقسم وبصق ثم شغَّل محركه ـ أعلن لنا في طفرة مزاج حسن قائلاً:

ـ سنكون في مالطة هذا المساء.

شجعنا النبأ على أن نتحمل بضع ساعات أخرى من الوضعية المرهقة. كانت بعض النساء وأطفالهن في وضعية مرضية سيئة.

Twitter: @ketab_n

حينذاك قرر الجميع مساعدتهم مظهرين غبطة حقيقية: راحوا يمزحون ويغنون ويضحكون ويداعبونهم.

شعرنا بأن هذا العذاب على وشك أن ينتهي.

ظهرت مالطة، جذابة، ضخمة بمنازلها كأنها أحجار الماس يحملها تاج من الصخور. ليس ثمة شك: إننا في أوروبا. اختلج قلبي.

كان قبطاننا بلا ملاحيه يحك رأسه. شرح لنا أنه يعرف شاطئاً حيث ننزل من المركب. هذا الشاطئ مأهولٌ طوال النهار. سمعنا، بالرغم عنا، توقف المحرك ووجدنا أنفسنا ثانية وبصمت، فوق المحيط. وجب علينا أن ننتظر.

بدا لي الغروب لا ينتهي. والشمس تغوص في البحر لكن المشهد قد استغرق وقتاً لا حد له كي يبرد ويفقد ألوانه ويمحو معالمه.

في سواد الليل انطلق قبطاننا بمركبه.

فما إن تقدم كيلومتراً حتى دوَّت الصفارات. اندفعت ثلاثة مراكب نحونا، مسلحة بأنوار كاشفة في مقدمتها. أطلق القبطان مسبة وحاول الدوران ثم أدرك أنه مطوقٌ. صرخ نحونا بملء رئتيه:

ـ خفر السواحل! سيوقفوننا.

تخلَّى عن مركز قيادته وشق مجموعتنا ليقيم بيننا.

ـ إنني راكب غير نظامي مثلكم. لم أكن القبطان بتاتاً. قولوا إن القبطان قد وقع في الماء في نهاية بعد الظهر. إنكم لا تعرفونني، لم

Twitter: @ketab_n

تروني. لا تتفوهوا ببلاهات، هل فهمتم؟ لا تشوا بي. لأنني مهدد بالسجن، أما أنتم، فلستم بالمهددين.

هجمت المراكب السريعة لتنقض علينا.

التفتُّ على الفور نحو بوب وسألته:

ـ ونحن، ماذا يهددنا؟

ـ لا أعرف شيئاً، أنا... يطردوننا. يرسلوننا إلى بلادنا.

ـ كيف سيعرفون من أين أتينا؟

ـ من أوراقنا الثبوتية.

لمعت الفكرة في ذهني وكذلك القرار في آن واحد.

ـ بوب، لنرمِ أوراقنا في البحر.

ـ أنت مجنون.

ـ فلنرمِ أوراقنا في البحر. هكذا، يجهلون بلدنا الأصلي ولا يستطيعون مطلقاً أن ينفونا...

ـ أخيراً، يا سعد، هل تدرك ما أنت فاعله؟ ليس هناك أوراق على الإطلاق!

ـ بوب، أنظرْ. أنا، أرميها.

طارت محفظتي فوق سطح المركب وراحت تبتلعها الأمواج.

لم يلحظ أحد ذلك.

ـ والآن، هيا يا بوب، بسرعة!

تردد بوب. كان يُمسك ثبوتيات هويته بيده، مرتجفاً، واهناً. راح

Twitter: @ketab_n

الركاب حولنا يصرخون قلقهم، كل بلغته. ألقى واحد منهم بنفسه في الماء.

كانت الزوارق تصرخ بأوامر من خلال مكبرات الصوت. بدأت الحزم الضوئية تُثبت على وجوهنا.

إذا لم تقم بذلك فوراً، يا بوب، فسيرونك ويكون الوقت قد فات.

عض بوب على شفتيه وأطلق صرخة وأرسل أوراقه من على سطح المركب.

في تلك اللحظة، ربط مشبك مركبنا وقفز شرطيان بيننا.

صرخت امرأة كما لو كان قراصنة قد هاجمونا.

Twitter: @ketab_n

٩

كانت العنكبوت تدعم، بلا كلال، حياكة الشبكة التي مدتها بين قضبان النافذة وزاوية الجدار.

لقد انتقلنا معاً أنا وهي، مساء أمس الأول حين وصلتُ إلى مالطة.

كانت تتابع عملها، باسطة قوائمها بأناقة وحذر، كأنها تدرك رهافة تلك القوائم النحيلة، وهي تقوم، هنا وهناك، بتقوية خيوطها. كان عدد وفير من البعوض والذباب الكبير منه والصغير قد التصق في نسيجها المخرم اللعين. تلك وجبة طعامها التي تخبئها لأيام الجوع الكبيرة القادمة، لأنها الآن ذو مزاج للبناء.

كنتُ أحسدها.

لماذا، أسوة بها، لم أعتد مركز الحجز؟ لماذا أعتبر نفسي في السجن حيث كانت العنكبوت تشعر بأنها قادرة على تأسيس بيتها؟ إنها واقعية، بلا مناقشة، فهي لا تحلم بأماكن أخرى، تبني هنا حياتها الجديدة، أما أنا فأقضم أظفاري متذمراً ومحتجاً وممتنعاً عن أن أحيا

Twitter: @ketab_n

وباحثاً عما يرضيني في أماكن أخرى، في الماضي أو في المستقبل، وليس في الحاضر مطلقاً، أتحين كل يوم الفرصة التي قد تسمح لي بالهرب. كانت العنكبوت، العنيدة، قادرة على أن تقيم شبكتها وتتغذى وتؤسس أسرة في أي مكان؛ أما أنا، فلقد قررت ذلك في لندن، ولا مكان آخر. إذا كان الذكاء يعتمد على قدرة التلاؤم، فإن العنكبوت أذكى مني ألف مرة.

في الخارج، نبه جرسٌ المحتجزين إلى وجبة استثنائية: كان الصليب الأحمر يُدللنا في ذاك الثلاثاء. من الباحة حيث تجمَّع الناس عشرات، أشار بوب إليَّ كي ألاقيهم. هززت رأسي، سلباً. ليس لي رغبة في تكبير قطيع الدواجن لاسيما حين يرمى إليه الحَب.

جلست على فراشي وتركتُ العنكبوت لعدة ثوانٍ كي أراقب باطنيْ قدميَّ. كانت تآليلي قد نمت على هواها، تخلط من الآن فصاعداً ظلالها الرمادية بنسيج جلدي. ربما عليَّ أن أهتم بتسميتها لأتخلص منها؟

وإذا ما سميتُ هذه الثالولة العراق؟ وتلك صدَّام حسين. فقد تكون الثالثة الأمم المتحدة. لنحاول: العراق، صدَّام حسين، الأمم المتحدة.

أعدتُ تسميتها مرات كثيرة لأرى إن كان ذلك يُحدث أثراً لديها: يبدو أن لا واحدة قد سمعتني، كما لم تنكمش أية واحدة مطلقاً.

ـ يا لحماً من لحمي ودماً من دمي ويا عرق النجوم، كيف يمكنك

Twitter: @ketab_n

أن تعتقد أن الأشياء بهذه البساطة؟ ليس لديك فكرة بالتعقيد الذي يكونك.

ـ يا أبي، لقد وجدتني! خشيتُ أن تبحث عني في جزيرة لمبادوزا.

ـ يا ابني، لستَ بحاجة إلى أن ترسل إليَّ خط عرضك وطولك كي ألحق بك، عندي وسائل أخرى.

ـ إنني أتساءل ما هي تلك الوسائل.

ـ لا يحق لنا الكشف عنها.

ـ هل ثمة وكالة معلومات عند الموتى؟ لوحة ما تمثل خريطة العالم تحددون عليها على شكل بقع مضيئة الأحياء الذين يهمونكم.

ـ إنك ترتكب خطأ حين تفترض أنني أصل من الخارج، عن طريق الجو أو عن طريق الأرض كما لو كنتُ أركب أو قطاراً.

ـ مع ذلك، لا بد من أن تصلَ من مكان ما! من عالم موازٍ، هل هو تحتنا؟ هل هو فوقنا؟ أو بالقرب منا؟

ـ هذا المكان هو في داخلك، يا سعد. إنني أجيء من جسدك ومن قلبك ومن نزواتك. فأنت ابني وأنا متأصل فيك، في ذكرياتك بقدر ما أنا في جيناتك.

أشار إلى العنكبوت.

ـ إنها ظريفة تلك العنكبوت، أليس كذلك؟

ـ هل تعرفها؟

Twitter: @ketab_n

ـ عندي واحدة مطبوعة في أعماق دماغي، في جزء الزواحف؛ فبفضلها، استقررت حيث ولدتُ، في العراق، وسعيت إلى العيش هناك.

ـ النتيجة: أنت ميت!

ـ في مكان آخر، لانتهيت بالموت أيضاً.

ـ طبعاً ولكن فيما بعد.

ـ مم؟ أجل... ربما فيما بعد...

ـ كيف يمكنك أن تتخذ كمثال لك عنكبوتاً تقبل أن تعيش في سجن؟

ـ آه نعم، الحرية... أنت، تحب ذلك كثيراً؟ أما أنا، فليس بكل هذا المقدار...

بما أنني رفعتُ كتفيَّ، ألح أبي قائلاً:

ـ الحرية، تساوي ذهباً، طبعاً، لكن هل هي القيمة الأولى؟ يمكن أن يفضل الإنسان الحياة على الحرية. إن عنكبوتي الحضرية على صواب إذا كان هدفها أن تصنع بيتها وتقيم أودها وتلد أطفالاً ثم تربيهم.

ـ إن أصهارك وأحفادك قد ماتوا، يا سيد عنكبوت، كما اتشحت بناتك بالحداد وهن شابات، يا سيد عنكبوت، وذلك بسبب المكان الذي نسجتَ فيه بيتك. أما أنا فلا أريد أن أقدم لأطفالي الفوضى والبلبلة.

Twitter: @ketab_n

سكت ونظر من النافذة التي تقطعها القضبان إلى هيئة برتقالية اللون، تطير بجنون، نحو الشمس.

ـ ربما، في نهاية الأمر، أنت على صواب، يا سعد، فليس ثمة العناكب فقط، هناك أيضاً الفراشات...

اختفت الفراشة فجأة، وقد ابتلعتها نفحة هواء. ابتسم والدي قائلاً:

ـ فراشة حملتها الريح...

ـ أما أنا، فالأمواج هي التي حملتني...

جلس أبي على السرير أمامي، وقد أصبح فجأة جدياً، وحدق إليّ بشدة:

ـ ما هو مخططك من الآن فصاعداً؟

ـ عندي مخططات كثيرة.

كنتُ على وشك أن أشرح له مخططاتي حين ظهر رجل مضطرب بطقم بني على باب غرفتي. دون أن يلاحظ أبي، ناداني قائلاً:

ـ ينتظرونك للمقابلة.

ـ أخيراً!

رفع الرجل عينيه إلى السماء وأمرني باللحاق به. همست لأبي بأذنه:

ـ عندي موعد مع المرحلة الأولى من مخططي.

ـ حسناً، يا ابني، ستروي لي ذلك فيما بعد.

Twitter: @ketab_n

اختفى أبي، وهو يغمز لي بعينه.

صحبني ذو البزة الكاكي إلى بناء إداري طويل يلاصق المركز المغلق. تركت بسرور الباحة ذات الشبك حيث وضِع المسافرون غير النظاميين بالمئات، وهم يخبطون نعالهم، عاطلين من العمل.

دق على باب أحمر، لم ينتظر جواباً، فتح المصراع و صفقه خلفي.

كانت كتلة لحم تنتظرني في أعماق الغرفة المعتمة.

من خلال بعض خيوط النور التي تركتْها المصاريع المخفضة تمر، كان محدثي يُشبه ضفدعاً هائلاً أكثر مما يشبه إنساناً. كان قابعاً في الظل الرطب، وقد تكور على نفسه، فبدا كتلة مدورة متراصة، مستعدة للقفز، وقد أسند قنطار وزنه القلق إلى كرسي صغير منخفض يئن تحته. كان الضفدع ينتعل حذاءين وبنطالاً أزرق وقميصاً أبيض يمكن أن تُقتطع منه أشرعة كثيرة لمركب. كان جلده السميك يفرز قطرات من العرق.

تركني، أنا، فريسته، أقترب.

بينما كنت أتقدم، لم يتحرك فيه شيء إلا جبينه بين الفينة والفينة ليبسط تجعيداً فوق عينيه الجاحظتين. كانت إحدى يديه تدقدق برخاوة على ملامس من البلاستيك. اكتشفت، وأنا على مترين منه، رأسه الأقرع المؤلف من جلد سميك ولمَّاع، وعليه آثار حبوب قديمة.

خاطبني بالإنكليزية لأنني طلبت التحدث بها.

Twitter: @ketab_n

ـ من أنت؟

ـ أنا؟...

ـ اسمك؟

ـ اسم والدك؟

ـ هل تفهم ما أقول؟ هل تفهم الإنكليزية؟

ـ نعم.

ـ إذاً أجب عن أسئلتي. اذكر هويتك.

ـ لا أدري.

ـ من أين جئتَ؟ من أي بلد؟ من أية مدينة؟

ـ لم أعد أتذكر... على المركب، حين كدنا أن نغرق... حين سقط القبطان في الماء... هناك... بالنسبة إليَّ، الصدمة... فقدت ذاكرتي.

ـ طبعا، طبعا. ماذا كنتَ تفعل على ظهر هذا المركب.

ـ أجهل ذلك.

كان يشغل حيزاً ضخماً جداً حتى إن الأشياء التي كان يستعملها من قلم حبر، وسجل، وحاسوب قد بدت لعباً بين يديه. لو لم يعلنوا لي أنه موظف رئيسي، ولو لم أقطع الممر الإداري للبناء الرسمي للوصول إليه، لما أخذته على محمل الجد ولظننت، وأنا أحلم، أنني أزور عملاقاً ينتظر أصدقاءه ليلعبوا كالأطفال بإعداد وليمة وهمية.

ـ إلى أين كنتَ ذاهباً؟

ـ مم...

Twitter: @ketab_n

ـ وتريدُ أن أصدقك؟

صمتُّ.

بدا لي نظره غريباً. ثابتاً بغرابة. متفحصاً بغرابة.

تمتمت شفتاه بقرف:

ـ وتريد أن أصدقك؟

سكوت. يجب ألَّا أفكر. إن تبريري يعني قبولي أن أكون مخطئاً. يجب أن أضع نفسي خارج المناقشة، في منطقة لا يصل فيها إليَّ.

تابع قائلاً:

ـ أتصور أنك تدعي الآن فقدان ذاكرتك، وتطلب طبيباً نفسياً لمعالجتك.

ـ كلّا، آمل أن تعود الأمور من تلقاء ذاتها.

ـ أجل، هكذا! بخاصّة لا تريد طبيباً نفسياً، كي لا نكتشف حيلتك الفظة،

إنك ملفق حكايات!

ـ عندك حق: أحتاج إلى طبيب نفسي. أحضروا واحداً.

رمشت عيناه. أتيت على تسجيل نقطة لمصلحتي. استفدت من ذلك كي أحاول أن أسجل نقاطاً أخرى:

ـ إذا كانت لي امرأة وأولاد، فسيقلقون. إن كان لي بيت، فمن الأفضل أن أجد أثره بأسرع ما يمكن. استدعوا طبيباً، من فضلكم.

تذمر.

Twitter: @ketab_n

لقد فهمت! كان أعور. فنظرته الغريبة ناتجة من أنه لا يرى إلَّا بعين واحدة.

ـ هل عندك زوجة وأولاد؟

عينٌ واحدة، أجل، ولكن أيهما؟

ـ أكرر: هل عندك زوجة وأولاد؟

ربما العين اليسرى؟ كلّا، اليمنى. أجل، اليمنى. كانت تبدو اليسرى كئيبة، بطيئة النظر، بلا بريق، بيضاء جداً وبنية جداً معاً، أقرب إلى لون الحليب. أجل، لا بد من أن تكون العين اليسرى من الزجاج.

تمالكت زمام نفسي لأجيب:

ـ ربما قد أتوصل، بصدمات كهربائية، إلى أن أستعيد ذاكرتي، أليس كذلك؟

تردد، متسائلاً للمرة الأولى إذا كنتُ صادقاً.

من جهتي، كنتُ منجذباً. أرغمت ذاتي على ألَّا أتعلق بالكرة التي كانت تتفحصني، لكنني لم أستطع الامتناع عن فحص العين الأخرى، الكاذبة.

ـ كيف تريدني أن أصدق فقدان ذاكرة يلائمك كثيراً؟

ـ إنني... إنني أسف... أرجو معذرتي.

ـ أنت تعرف تمام المعرفة أنه إذا لم يكن لدينا أي عنصر للتحقق من الهوية، فلن نستطيع أن نعيدك إلى بلدك.

ـ أرجو معذرتي.

Twitter: @ketab_n

ـ الأمر هكذا. أرجو معذرتي، اسخر مني. ما يهمك هو ألّا تعود إلى بلدك على الإطلاق.

ـ أريد أن أعود إلى بيتي.

ـ بالضبط، أين يقع؟

ـ في لندن، ربما. لست أدري. أرجو معذرتي.

صرخ غاضباً:

ـ كفَّ عن الاعتذار.

ـ إنني آسف، أرجو معذرتي.

ـ إنه يُعيد الكرة!

ـ آه، عفواً، إيه... أرجو معذرتي.

بلع لعابه كي لا ينفجر غضباً ثم أبعد حاسوبه من أمامه.

ـ اخرج.

ـ شكراً، سيدي.

ـ سنلتقي ثانية، أيها الشاب. لم أفرغ من شأنك. لن أتركك ما دامت ذاكرتك لم تعد.

ـ آه شكراً، سيدي.

كان بالغ القناعة في أنني أمثل حتى إنني رأيت اللحظة التي سيصفعني فيها لكنه تمالك نفسه وأشار إليَّ بالخروج ثم عاد ليغوص في إضبارة ما.

Twitter: @ketab_n

بعد عشر دقائق لقيت بوبكار في مركز الاحتجاز. شرحت له المقابلة ناصحاً إياه باتخاذ المنحى الذي سلكته.

ـ يا سعد، لن يصدقوني، بعدك.

ـ لا أهمية لذلك! يا بوب، المهم لا يكون في تصديقنا ولكن في ألّا نخطئ مطلقاً. ليس الموضوع في أن ننجح في تمثيل دور، علينا أن نمنع ظهور الحقيقة. ما داموا يجهلون من أين جئنا، فلن يستطيعوا اتخاذ أي إجراء ضدنا. بدءاً من الآن، يجب علينا أن نحذر الناس جميعاً. إنني على يقين من أنهم يضعون أجهزة ميكرو في زنزاناتنا، ويبثون وشاة بيننا كي يعرفوا بهدوء ما نخفي عنهم. الخلاصة: أولاً، أنا وأنت لا نعرف بعضنا إلّا منذ الرحلة البحرية، ثانياً، لا نتحدث إلّا بالإنكليزية. اتفقنا؟

ـ موافق، قبل بوب ذلك مرغماً لأنه لم تكن تعجبه الخطط التي ليست من صنيعه.

بعد انقضاء أسابيع كثيرة، كان لنا موعد مع العملاق.

كان موعد بوب يوم الجمعة وموعدي الثلاثاء.

كل ثلاثاء، كنتُ أنتصب أمام ذاك الجبل ذي العين الوحيدة.

كان يسألني الغول، كل ثلاثاء:

ـ من أنت؟

كنت أجيب كل ثلاثاء:

ـ لم أعد أتذكر شيئاً.

Twitter: @ketab_n

كل ثلاثاء، كان ينتهي به الأمر بأن يشير إليَّ نحو الباب مع هذا التعليق الذي لا يتغير:

ـ أنت تعرف أنني لا أصدقك، ولن أصدقك مطلقاً ولن تترك هذا المركز قبل أن تبصق لي الحقيقة.

خلال تلك المبادلات الطقسية، جرب العملاق بعض الحيل. هكذا، ذات مرة، وجه لي الكلام بغتة بعد صمت قائلاً:

ـ هل تحلم؟

ـ نعم.

ـ بأية لغة؟

كدت أن أجيبه «بالعربية»، لكنني ضبطت نفسي، في آخر لحظة، حككت رأسي ونظفت ظفراً من أظفاري ثم قلت:

ـ لست أدري. بلغة أفهمها.

تنهد، وقد خاب أمله لأنه لم يستطع أن يحرجني.

في مناسبة تالية، اقترب من علبة معدنية، ضغط زراً وفجأة خرَّت مكبرات الصوت في الغرفة.

ـ هذا ما سيساعدك على أن تلتقط ذكرياتك، سيدي العزيز. ستتوالى رسائل بلغات كثيرة، ستقول لي أية رسالة فهمت، لا بل أية رسائل لم تفهم كل كلماتها.

وسط اصطلاحات غريبة، تعرفت إلى اللغة التركية، والفارسية،

Twitter: @ketab_n

والعبرية لكنني لم أحرك ساكناً: لا نفع في أن أشير إلى جيران بلدي. حين سمعت العربية، رفعت ذراعي.

ضغط على زر «توقف».

تمتمت قائلاً:

ـ أعرف هذه اللغة.

ـ العربية، أنت عربي؟

ـ أفهم العربية لأنني تعلمتها.

ـ إنها لغتك الأم.

ـ لا أظن ذلك. أتذكر أنهم ثبتوها في ذهني، تلك اللغة. أجل. أعرف قرآني بهذه اللغة.

ـ بأية لغة تصلي؟

ـ بالعربية.

ـ آه، أنت إذاً تتكلم العربية!

ـ برداءة. إنني مسلم صالح، درست لغة النبي في المدرسة. على كل حال، لقد تعلمت في المدرسة الإنكليزية والإسبانية وقليلاً من الروسية، أتذكر ذلك. إن العناصر الشخصية هي التي نسيتها.

أعاد وضع الشريط الذي يعدد الاصطلاحات، وهو مغتاظ.

بعد ساعة لم أعد أسمع شيئاً، وأعتقد أنه هو أيضاً لم يعد يسمع شيئاً.

انتهى بي الأمر أن سألته:

Twitter: @ketab_n

ـ كم لغة يجب علينا أن نسمع؟

ـ خمساً وثمانين لغة.

حدث في يوم آخر، أثناء مقابلتنا، أن ادعى الغول أنه مضطر إلى أن يتركني وحدي نصف ساعة؛ في انتظاره، اقترح عليَّ أن أفتح التلفاز. بما أنني قبلت بسرور، أجلسني أمام جهاز، وأمدني بجهاز التحكم ووعدني بعودته القريبة.

ماذا يحسبني؟ أيظن أنني في منتهى الغباء؟ كنت أعرف أنه جالس في الغرفة المجاورة يراقبني ليعرف أية لغة قد أختار.

توقفت، عمداً، على أولى البرامج التي وجدتها باللغة الإنكليزية؛ بالرغم من الضجر العميق الذي غامرني، بقيت أتظاهر بالنشوة أمام برنامج يُبثُّ عن الحيوانات وضبطت نفسي كي لا أبحث عن قناة بلدي أو عن أية قناة عربية.

بعد قليل، نقل الحرس سريراً آخر إلى غرفتنا الصغيرة جداً وظهر رجل في الثلاثين من عمره طويل القامة بلحية لا تنتهي ادعى أنه أفغاني وسيشغل السرير.

ففي نظري وفي نظر بوب، كان بالبداهة جاسوساً علينا. إلَّا أن نتيجة حضوره جعلت حياتنا أبسط مما كانت عليه؛ رحنا نثرثر قليلاً، أقل من قبل ونغفل الإجابة عن الأسئلة وننسى أن نطرح أسئلة. شرعنا في الانزلاق إلى عالم المسافرين غير النظاميين وهو عالم يشكل الخوف إسمنته: لا أحد يفضي بمكنونات ذاته والجميع حذرون؛ بدا

Twitter: @ketab_n

كل واحد مشبوهاً، من يرتدي البزة العسكرية ومن لا يرتديها؛ يقتصر الصنف الثاني على وظيفتين، فإما أن يكون واشياً وإمّا منافساً، يستطيع إما أن يشي بي وإمّا أن يسرق مني مكاني. لم يعد هناك رحمة ولا تعاطف ولا مساعدة، كل واحد يبحث عن مصلحته الخاصة لأن الله يُقيم في البلد الأجنبي!

في مالطة، كان هناك فرد واحد، قبطاننا، يعرف أصولنا؛ لكننا كنا واثقين من سكوته لأنه يخشى هو ذاته في كل لحظة أن يكشف عن حقيقة تجارته. كان مهربُ المسافرين يفضل أن يعيش متكاسلاً بضعة أشهر في هذا المركز ثم يتحمل إعادته إلى ليبيا، من أن يُدان بتهمة تهريب الناس فيُسجن سنين كثيرة.

ـ فلنتحمل، يا بوب، لنتحمل عدة أسابيع. حسب ما فهمتُ، ستدخل مالطة قريباً في الأسرة الأوروبية. أتتصور ذلك؟ ببعض الحظ، حين يُفرجون عنا، سنكون حينذاك على أرض أوروبية.

ـ كم يستغرق ذلك من الوقت، يا سعد، كم يستغرق ذلك؟

في ذاك الثلاثاء، كان العملاق ينام في سرير عسكري، في أعماق الغرفة، تحت الشبابيك المغلقة، حين دخلت إلى مكتبه.

تنحنحت كي أشير إلى حضوري. فلم تبدُ منه حركة.

اقتربت ولاحظت، من نَفَسه البطيء، ومن ارتخاء تقاطيعه، أنه مستغرق في نوم عميق.

انتهزت تلك الفرصة واتجهت نحو الطاولة حيث تفحصت ما

Twitter: @ketab_n

عليها. في إناء، وسط أقلام الحبر، والمساطر والأقلام، لاحظت بيكاراً.

ـ لمَ لا؟

بدون تردد، اختلسته ودسسته في جيبي.

في الحال، وقد ارتفع شخير هائل إلى أعلى شأن موجة، ضاقت أنفاس الغول وسعل ثم استيقظ وهو يزمجر وفرك رأسه، فشعر بحضور أحد ما في الغرفة.

ـ من أنت؟ من هناك؟

أجبته ممازحاً:

ـ لا أحد.

انتصب على مؤخرته وفحص بعينه الوحيدة مكان الغرفة حيث انطلق الصوت واكتشفني.

ـ آه، لا أحد، إنه أنت.

شعرت برغبة في الضحك لا تقاوم؛ مع ذلك فقد أكدت قولي.

ـ نعم، لا أحد، إنه أنا.

نهض وترنح حتى كرسيه الصغير.

ـ أنت تعرف أنني لا أحبك، يا لا أحد.

ـ وكذلك أنا أيضاً، لا أحبك مطلقاً.

ـ حسناً، فلنبدأ استجوابنا.

بينما كان يحاول أن يركز فخذيه الضخمتين على الكرسي الضيق، لمحت فجأة، بالقرب من حاسوبه، شيئاً فلت من بحثي السابق

Twitter: @ketab_n

وهو مجموعة مفاتيح. بمجرد رؤية قياساتها المختلفة، أيقنت أن ثمة ما يفتح كل أبواب مركز الاحتجاز التي تعترضني.

التقطت عينه نظري، فأحس الخطر لكن يدي كانت قد أمسكت بمجموعة المفاتيح. رحتُ أهزها في الهواء وأنا أقفز، منتصراً. أخذ يئن، والعرق يقطر من جبينه.

ـ كلّا، دع هذه!

ـ بلى.

ـ يا لا أحد، أعد لي تلك المفاتيح. سأفقد مكاني.

ـ لو تعرف كم أسخر من ذلك! وظيفتك! وأنت، ماذا تقدم لي؟ مكاناً في طائرة إلى الموت مباشرة. لا علاقة لي بمشاكلك!

بينما كنتُ أتفاخر مرحاً، اندفع نحو الباب. حين أدركت تصرفه، ركضت إلى هناك بدوري. فات الوقت! كان قد تمركز على المصراع. هدَّدته قائلاً:

ـ دعني أخرج.

وقف بتضخم بين المخرج وبيني، هائلاً، لا يمكن اختراقه.

ـ يا لا أحد، لن تمر!

ـ دعني أخرج وإلّا فسأقوم بحركة لا أرغب في القيام بها.

ـ أتضربني! فكر، يا ضعيف الإدراك. لو نفختُ عليك، لذهبتَ تتحطم على الجدران. هل أنت في وعيك، يا لا أحد؟ هل تدرك أنك، أمامي، لا وزن لك؟

Twitter: @ketab_n

أرسلت له ضربة ظننت أنها على أعضائه الحساسة، لكن وسط كتلة شحم بهذا الحجم، ضاعتْ يدي وضربتْ لحماً مرصوصاً، بلاستيكياً، وقفزتْ، فتحمل الحركة دون أن يرد.

ـ يا لا أحد، توقف فوراً وإلّا رددت لك ضربتك!

ـ دعني أخرج. للمرة الأخيرة.

انفجر ضاحكاً. في تلك اللحظة، وقد أنهكتُ، أمسكت البيكار، وفتحته وغرزت رأسه في العين الحية.

صرخ الغول.

غرزته بكل قواي.

فراح يصرخ بشدة.

انبثق الدم قوياً شأن صراخه.

غرزته وتركت رأس البيكار يقف وحده وسط العين المبقورة.

هد الغول الألم، فسقط أرضاً. فتحت الباب وأطلقت ساقيَّ للريح.

أعطتني الأحداث التي تلت أنها قد حدثت في عدة ثوان...

لم أصادف عوائق كثيرة، فاندفعت خارج القلعة. كان الطريق حجرياً، يحميه نبات مزهر يعرش على الجدران، وينحدر نحو المرفأ: سلكته دون أن أصادف أحداً ما. على الرصيف، بمعجزة، كان مركب ينتظرني. قفزت فيه بجرأة وأعطى القبطان الأمر بالرحيل.

Twitter: @ketab_n

على قمة الأسوار، ظهر الغول مضرجاً بالدماء وهو يزعق. وقد استنفر العساكر والحرس، فوجه مدافع مرفأ «لافاليت» نحو سفينتي.

حدث انفجار.

رأيتُ كرة المدفع تصل إليَّ، اقتنعتُ، في ثانية، أنني سأوقفها شأن كرة لعب. بسطت يديَّ ثم...

أيقظتني الصدمة من نومي.

كانت الزنزانة، حولي، تقبع في هدوء الليل المالطي. والأفغاني يشخر في فراشه، أما بوب، فعلى عادته، ينام وهو يصفر من أنفه.

لقد رأيتُ حلماً مرعباً.

وقد اقتربت من النافذة، تأملت القمر الرابط الجأش. ظهر أبي إلى جانبي ونظر إليَّ بعذوبة، منتظراً أن أبوح بمكنونات نفسي.

ـ أبي، هل تعتقد أن للأحلام معنى؟

ـ طبعاً، يا ابني. لا تعلمنا الأحلام بما سيحدث لكن بما يحدث. إنها أبعد من أن تدلنا على المستقبل، لكنها تكشف لنا الحاضر، بدقة لا تملكها أية فكرة. إن أحلامك تنبئك بما أنت عليه، لا سيما بعد يوم أضناك، وكسَّرك، وقطَّعك، وأرغمك على قوانين أو واجبات. فحياة اليقظة تغرقنا لأنها تشتتنا وتكيفنا؛ والحلم وحده يوقظ ما نحن عليه.

ـ إنك رائع، عندك نظرية عن كل شيء.

ـ هذا ما يختص به المثقفون. إن لم يقولوا دائماً الحقيقة، فإن لهم دائماً الخيال. إذاً، يا ابني، هل حلمتَ؟

Twitter: @ketab_n

ـ أجل.

ـ ماذا يُعلمك هذا الحلم؟

ـ حككت رأسي، وأنا أفكر بأعمال العنف التي تخيلها فكري.

ـ لا أعرف.

ـ انتبه، يا ابني، إنك تكرر! «لا أعرف.» إنك تثير قلقي! «لا أعرف.» احذر الكذب الذي يكرره الناس، فإن هذا الكذب ينتهي إلى أن يصبح واقعاً.

إذا ما مثل الإنسان دور النذل كثيراً، يصبح نذلاً.

أدار رأسه فالتقى بشبكة العنكبوت.

ـ هل لاحظتَ أن رفيقتي ميتة؟

ـ العنكبوت؟

ـ أجل. ميتة.

بما أن ضوء القمر القوي كان يرسل نوراً رمادياً، واضحاً، أقرب إلى نور جِراحي في الزنزانة، بحثتُ عنها بعينيَّ بين شبكتها، ثم على الجدار، ثم على الأرض. عبثاً.

ـ ولكن لا، يا أبي، لقد انتقلتْ إلى مكان آخر.

ـ ماتت بعد الظهر هذا. حتى إنني أستطيع أن أكشف لك عن مكان جثتها.

أشار إلى حافة النافذة إلى شكل ملتوٍ يشبه الخنجر المعقوف، في غمد من النحاس البرونزي. كان الحيوان ذو العينين الصفراوين

Twitter: @ketab_n

والمشدودتين، والمثير للقلق، يتفحص، تحت الضوء الزئبقي الذي يسقط من السماء، مركز الاحتجاز وأبنيته المتوازية السطوح وباحته وأسلاكه الشائكة وجدرانه ونوافذه البارزة، وبوابته بحرسها.

ـ هو ذا قبر عنكبوتك.

ـ عظاية؟

ـ أجل. في نهاية الأمر، معك حق، وهي مخطئة: لم يكن البقاء هنا بالفكرة الصائبة.

ما إن رحت أتعجب من هذا التصريح حتى اختفى والدي.

على الفور، أيقظت بوب وأنا أهز ذراعه، ثم همست له، وأنا مستعجل ومحموم ومصمم، بأقرب ما يمكن من أذنه كي لا يسمعنا الأفغاني:

ـ يا بوب، لقد استسلمتُ. بمنهجي، لن ننجح مطلقاً.

تثاءب بوب ثم تمتم، وهو مسرور من تحولي:

ـ إنني موافق.

ـ تغيير الخطة، يا بوب! يجب أن نهرب...

Twitter: @ketab_n

١٠

كان الليل يزأر.

ممزقاً الهواء شأن أنين إنساني والهواء يصفر ويزمجر فوق المحيط المعتم، بينما راحت المياه تضرب هيكل السفينة.

انتصب المركب وهو يئن ويتمايل ويسعى إلى أن يضبط توازنه بينما منعته من ذلك مؤامرة من العناصر الطبيعية.

كناَ مُهَاجمين من كل الجهات.

صاح بوب في أذني: ـ إنني خائف، يا سعد، خائف جداً.

كان الموت يوشك بالبداهة أن يقتحمنا. والبحر بعد أن سخر منا بابتسامة هازئة مكشراً عن أسنانه المليئة بلعاب الزبد، قد أرسل إلينا من أعماق الظلام جيشه المؤلف من عساكر لا تُحصى من الأمواج الفظة، والعنيفة، وهي أبعد من أن تحملنا، تبغي هلاكنا، كما أنها أقسى من الخناجر وهي تهاجم جوانبنا، وتسدد ضربات إلى هيكل السفينة فتهز مركبنا شأنه شأن سدادة.

أجبت بوب وأنا أصرخ ملء رئتيَّ كي أطمئنه:

Twitter: @ketab_n

ـ من المتوقع أن نقترب من جزيرة صقلية.

أضأتُ مصباح جيبي وبحثت في الظلام. عبثاً. كانت الشواطئ المرئية قبل العاصفة، قد اختفت الآن.

فجأة ارتفع المركب، كأنه قد تحرر بحركة من خاصرتيه، فطار ثم راح يغور في قعر موجة، وهو يعطينا انطباعاً بأنه قد وجد ثانية طريقه، فقفز إلى الأمام. واستعدت الأمل.

كان جزء المركب الخلفي يغرز وكذلك المقدمة. سحقتنا صفعة ماء على ظهر المركب، فطرحتنا أرضاً، نحن المئة راكبٍ غير النظامي الذين عهدنا بحياتنا إلى هذا المركب الهزيل. دوَّت شذرات صراخ يائس بالرغم من الضجيج. بينما كنا نتعلق بأي شيء ممكن من حبال ودرابزين وآلات بحرية وأيدٍ وسيول الماء الباردة التي تتدحرج مدوية على السطح، عنيفة، مندفعة ومستعدة أن تأخذ معها، خارج المركب، هؤلاء الذين قد لا يقاومونها.

تعلقت بدرجة، وقد أمسكت بوب باليد الأخرى، تمسكنا بالأرض. خلفنا الموجة الهادرة والضخمة قد حملت معها كثيراً من الركاب.

بصقت الماء ذا المذاق المالح والدموي.

طقطق المركب، كأن هيكله قد تصلب ضد الأمواج.

كانت الريح العنيفة لا تتوقف، وهي تحاول أن تطرحنا على

Twitter: @ketab_n

ميسرة المركب، ثم تحاول ثانية على الميمنة، بقوة وسرعة وارتجال، وهي تدور حوله لتحطمه بحركة مفاجئة.

دوَّت طقطقة: تحطمت السارية. فانهارت على سطح المركب.

صرخ كثير من الضحايا ألماً، وقد جُرِحوا، وصرعتهم الضربة؛ كما قذفت بعضهم، فغرقوا على الفور. ولمنع الذين نجوا من أن يرأفوا بالباقين، تكسرت بعض الأمواج البحرية بيننا. حدثت صدمة في دفة القيادة وضربة في الصالب.

حين انسابت آخر موجة، كانت قد نظفت جوانب المركب. لم يبقَ منا إلّا عشرون. راح المركب الآن يهتز كقطعة من الفلين. لم يعد القبطان الموجود في المؤخرة يسيطر على الأمواج التي تهاجمنا، فلفائف الموج قد ابتلعته. ما هي النتيجة؟ كنا نهوي نحو العدم، بدا أنّ حتفنا لا مفر منه.

كنا نتأرجح. نتقدم. كانت الأعماق والقمم تتتابع. فجأة لمعت فرجة في السماء المظلمة. تباعدت الغيوم تاركة ضوء القمر يمر منها.

في الأفق، كما بمحاذاة الرمل، ثمة عينا سرطان غائر، إنهما منارتان تدوران وتراقباننا.

صرخت قائلا:

ـ الشاطئ! إننا في عرض بحر صقلية.

للأسف، لم يكن أحد مستعداً لسماعي. كان الباقون على قيد الحياة، المترنحون، يركزون ما تبقى لهم من قوى على النقطة الصلبة

Twitter: @ketab_n

التي تعلقوا بها، في حال جاءتهم هجمة جديدة، كي لا يُجرفوا إلى قعر المياه. حتى بوب، لم يرفع رأسه، حين بشرته بالنبأ السعيد.

ألححت قائلاً:

ـ أرى الأرض، يا بوب، لسنا ببعيدين.

أطلق وهو يجهش بالبكاء:

ـ سنموت! لا أريد أن أموت...

أمدني يأسه بنشاط جديد. تحديت الحذر، فذهبت إلى المؤخرة وأمسكت بدفة القيادة التي تحركت، وحدها، من اليمين إلى اليسار، بلا انتظام.

أمسكت بحزم المقبض، ووجهت رأس المركب نحو الأرض وسط لامبالاة مطلقة من رفاقي. فإذا كان القبطان لم ينفعنا في شيء وسط العاصفة، فإنني سأفتقده لأرسو بالمركب. ما العمل؟ وكيف العمل؟ لا أهمية لذلك. يجب الاستمرار والتحكم بالقيادة.

كانت الحبال المعقودة هناك. والمركب يهتز كصندوق مليء جداً. سعل المحرك: هل سيتوقف؟ كلّا. انطلق ثانية. وهو يهدر بقوة أكبر.

استمر البحر يكشر عن أسنانه لكن الريح دفعتنا نحو الصخور التي تحرس الشاطئ. وجب عليَّ تحريك دفة القيادة.

كان المركب يعاني تحطم قفصه. فجأة، ثمة طقطقة من العنف لا تُطاق. كانت كتلة قد صدمتنا. دُفعت فوراً إلى طرف السطح:

Twitter: @ketab_n

شق البحر خلفي فتحات في المركب؛ انزلق تحتي سطح المركب الخشبي.

حين وصلت إلى الماء وجدته بارداً وقاسياً كصخرة. قُذِف بوب في إثري، فراح يزعق ويرتجف، بصوت مخنوق وحاد وهو يمسك برقبتي.

بدأت أسبح. تقدمت ببطء وبصعوبة، وكان بوب يثقل عليَّ في كل لحظة.

تابعت السباحة إلى أن انفك ذراعا بوب عن كتفيَّ. قلقتُ، فالتفتُ حينذاك، في الوقت الملائم لأراه يبتعد بعينين هلعتين، فات الوقت لأمسكه.

بعد ذلك، لم أعد أتذكر شيئاً...

في الصباح، بدا البحر شأن حيوان ضخم نائم، منهكٍ.

حين فتحت عينيَّ، لم أر إلَّا الهدوء الذي عم السماء والمياه والأرض بعد التنظيف الذي قامت به العاصفة وشعرت في أعمق أعماقي هذا الارتياح الأساسي. إنه مكافأة.

بعد ذلك تفحصت جسدي، دون أن أتحرك، وأنا ممدَّد على الرمل، لأتأكد بالفكر ثم بعضلاتي أن كل جزءٍ من جسدي يعمل. وقد اطمأننتُ، انتصبتُ وتأملتُ المكان الذي قذفتني إليه الأمواج. لقد سقطتُ في خليج صغيز مستدير ترصعه صخور سوداء ورمل محمر،

Twitter: @ketab_n

إنه شاطئ طبيعي يحصره في الأسفل منحدر مخضوضر بشجيرات وبصنوبر يلتوي بينها درب.

ـ بوب؟

استدرت، قلقاً: أين كان؟ قفزتُ على قدميَّ لكن ألماً مزق معدتي وطرحني أرضاً. هل كنتُ جريحاً؟ بأصابعي جسست معدتي، وجوانبي وعضلات بطني دون أن ألاحظ شيئاً غريباً. نهضت حينئذٍ. عاد الألم أقل صعقاً وأكثر تحديداً: كنتُ جائعاً. كان الخليج الصغير يدور حولي ويتمايل شأنه شأن خيول خشبية اختل توازنها: بسبب لساني الضخم واليابس في سقف فمي الملتهب، أدركت أنني ظمآن.

تركت نفسي، وأنا قلق، أنهار على الأرض. كانت صورة بوب، الهلع، وقد حملته الأمواج تعود إلى خاطري. ماذا حدث له، صديقي بوبكار الذي لا يعرف أن يسبح؟ كررت السؤال ألف مرة على نفسي كي أتجنب أن أعطي لذاتي الجواب الذي هو في منتهى البداهة.

ـ بوب! بوب!

ناديت في اتجاه البحر، ثم في اتجاه الجبل. فلم يأتِ أي رنين ليجيب عن ندائي، ولا حتى الصدى وضاع صوتي بقلقه، في البعيد غير المتناهي للأمواج أو لأدغال الأشواك.

كانت الشمس، وهي ترتفع في السماء، قد أخذت تدفئ الكون. في البدء، اعتبرت هذا الإحساس لذيذاً؛ أصبحت الحرارة بعد ذلك قوية جداً، يُضاف إليها اليأس والتعب، حتى إنني قد فقدت الوعي.

Twitter: @ketab_n

ثمة أحد راح يداعب خديَّ.

سمعت أولاً الصوت، عذباً أنثوياً بالرغم من قتامته، يكاد يكون أجشَ، يلفظ كلمات إيطالية كأنه يطقطق حباتِ عقد من اللآلئ المزخرفة. كانت النبرة بمخملها وبحريرها ذي المذاق الفاكهي توحي بحبة دراق ناضجة.

بعد ذلك، ركزت تفكيري على اليد التي تلامس جلدي من الوجه أو من الرقبة، بأصابع طويلة يقظة، ملساء وحساسة.

ثم تعرف منخاراي على عطر، إنها رائحة قمح فاتر، رائحة وجه شاحب وشعر طويل أشقر.

فتحت جفنيَّ ورأيت امرأة بشعر كثيف ذهبي تبتسم لي بفم رائع الجمال، فشفتاها الورديتان بشكل مرهف تحيطان ببياض الأسنان النقي.

وجهتْ لي جملاً بالإيطالية، ثم بلغة أخرى، أخيراً غامرتْ بالإنكليزية.

ـ نهارك سعيد، كيف حالك؟

ـ ضعيفاً.

ـ ماذا حدث لك؟

إن رواية ما حدث لي قد بدا لي طويلاً جداً، وشاقاً حتى إنني اكتفيت بالتنهد وأنا أشيح بوجهي. من الأفضل أن أخفي الانفعال الذي اجتاحني.

Twitter: @ketab_n

ألحت قائلة: ـ هل تهتَ وأنت تسبح؟ هل جئتَ من خليج صغير آخر؟ من زورق صغير؟ أم من مركب؟ هل أصبتَ بتوعك؟ أين ملابسك؟

أثارت هذه الجملة الأخيرة انتباهي. رفعت رأسي وأنا أشنج رقبتي التي تؤلمني واكتشفت الوضع: كنتُ عارياً كدودة!

أطلقت، في الحال، تأوهاً ودرتُ على بطني. ليس وارداً أن أتصرف بشكل يخلو من الحياء أمام امرأة، لا سيما تلك المرأة الرائعة.

ضحكتْ واستدارت، فرحة، كي تجعلني أشعر بالراحة قائلة:

ـ لا تكن مرتبكاً، إنني معتادة شواطئ العراة.

بسرعة! ليس هناك دقيقة أضيعها. قبل أن يستقر سوء التفاهم بيننا. وجب عليَّ أن أشرح لها مغامرتي.

وقد أدرت رأسي نحوها، بدأت أروي رحلتي من مالطة إلى صقلية وكيف ساءت الأحوال الجوية والعاصفة والغرق. أحسستُ في البدء، أنها لا تصدقني مطلقاً، ولكن حين شرعتُ في وصف مرحلة اختراق المركب للمنارتين، أظهرتْ فضولاً مباغتاً، وما إن لفظت آخر كلماتي، حتى أمسكتْ بهاتفها الجوال واتصلت بأشخاص كثيرين أعطتهم، كما بدا لي، معلومات إن لم نقل أوامر بنبرة حازمة، وبسرعة في الكلام، في طقطقة من الحروف.

أحدثت فيتوريا ـ وهذا كان اسمها ـ في تلك اللحظة ـ فهمت ذلك فيما بعد ـ مخطط الإنقاذ: أخذ قرويون مركبهم لينتشلوا غرقى

Twitter: @ketab_n

ربما لا يزالون على قيد الحياة، خرج الأولاد من المدرسة ليقطعوا الشاطئ، كما أعد أصدقاؤها غرفاً للناجين. بعد عدة ساعات، وصلت الإسعافات الرسمية ـ من الدرك وحرس الشواطئ وشرطة الجمارك. دخل الجميع بدورهم في المعمعة. أثناء ذلك، انتُشِل ثلاثةُ رجال وطفلٌ وامرأتان وقُدم لهم الطعام.

في تلك اللحظة، لم أستطع أن أفرق بين ما تقوم به فيتوريا بدافع إنساني أو من أجلي وحدي لأنني لم أفكر إلّا في أن أستريح في انتظار أنباء عن بوب.

مدت لي منشفة شاطئ، وساعدتني على السير حتى سيارتها في أعلى الطريق وصحبتني عبر تعرجات طريق مظلل حتى قرية صغيرة حيث تسكن في شقة فوق مدرسة كانت فيها المعلمة الوحيدة والشابة.

بعد عدة ساعات من النوم، بهرتني ثانية رؤيتها على السطح المزهر وهي تقدم لي عصير فواكه. فإذا كان شعر بعض الناس يوحي بأنه قد نبت شعرة تلو شعرة، فإن شعرها يبدو قد انبثق على شكل خصل تنساب بقوة وصحة وغزارة. أما عيناها فبلون الكستناء، بنيتان أحياناً ومخضرتان في أشعة الشمس وهما تتأملانني بود أقرب إلى الحنان. فبالرغم من إشراقة الابتسامة، كان في ذاك الوجه حذر رئيسي وتحفظ تظهره الذقن الصغيرة والثنية الخفيفة تحت الفم والشفتان الرقيقتان أكثر من كونهما منفرجتين، لا ترتفعان مطلقاً، ولا تبدوان ساذجتين بتاتاً، بل حازمتين. كانت فيتوريا طويلة القامة جداً حتى يخال المرء

Twitter: @ketab_n

أن ساقيها المنتصبتين ستباعدان ظلها. كانت ممشوقة القوام، تحمل على صدرها الضيق علامات ثديين أكثر من كونهما ضرعين، وكان في هذا الجمال الصارخ شيء من المراهقة، أو من الخنثى، على مشارف الجنسين. وكانت جاذبيتها الخلابة وحركاتها تقنعني بأنه ليس أمامي ملاك أشقر، ذهبي، عابر، ولكنني أمام امرأة، أي ملاك لم يكتمل.

- من أين أنت؟

- لم أعد أتذكر، يا فيتوريا.

- طبعاً... ستقوله لي فيما بعد. ما اسمك؟

- لم أعد أتذكره. كيف تريدين أن تسميني؟

- بما أنني قد وجدتك عارياً على الشاطئ، شأن نوسيكا التي اكتشفت أوليس عارياً بين أغصان القصب، فسأسميك أوليس.

- أوليس؟ هذا يلائمني.

خلال يومين، استرجعت قواي. مع ذلك، لم أستطع الامتناع عن التفكير في كل لحظة ببوبكار، متسائلاً إن كان قد خرج سالماً، وهل هو من الناجين بمعجزة، إذا...

أفضيت إلى فيتوريا بمخاوفي التي، بعد أن تلقت وصف رفيقي، استفسرت عنه من المختار ومن القسيس ومن أصدقائها هؤلاء الذين، وفق عادات الضيافة في صقلية، إن كانوا قد فتحوا أبوابهم لغريق. لا أحد من هؤلاء الذين أنقِذوا يتفق مع وصفي.

اقترحت عليَّ، يوم الأحد، أن أذهب إلى القداس الذي يُتلى عن

Twitter: @ketab_n

أرواح الموتى في البحر وأن أزور قبل ذلك المكان الذي عرضوا فيه الجثث التي انتشلوها، أو التي رست على الصخور الضخمة.

حين دخلت من الباب ورأيت العشرين نعشاً مفتوحاً من الصنوبر الأبيض، وقد وضعتْ على الأرض، اقتنعتُ على الفور أن بوب موجود في واحد منها.

وبالفعل، كان في العلبة الثالثة في الصف الأيسر صديقي بوبكار ينتظرني، بعينيه المغلقتين، وبجلده الذي تآكله الملح، وبيديه الكبيرتين المضمومتين على شرشف نظيف، يكاد المكان بين الألواح الخشبية يتسع له بسبب طول قامته.

صرخت وأنا أقع على ركبتيَّ:

ـ بوب!

دون أن أفكر، قبلْتُ رفيقي على فمه، كأنني أريد أن أعيده إلى الحياة وأبعثه وآتي بهذا الصبي النحيل والفرِح الذي مرَّ بسرعة كبيرة على الأرض. هدني الألم، فصرخت:

ـ لماذا؟ لماذا؟

اندفع نحوي ضباط، وقد سمعوني أتأوه، بأضباراتهم وأقلامهم بأيديهم، كي أمدهم بالسجل المدني عن الميت. لمحتُ فيتوريا، وأنا رافع رأسي، وقد اختبأتْ وراء أكتافهم وهي تشير إليَّ إشارة سالبة برأسها.

سألني موظف: ـ هل تعرفه؟

Twitter: @ketab_n

ـ هل يمكنك أن تذكر اسمه وتاريخ ومكان ولادته؟ أله أسرة؟ أين؟

نظرت إلى بوب وفكرت: «من المفروض، يا صديقي بوب، أنه لا يحق لي أن أكلمك»، ثم قَطبتُ جبيني وحككت رأسي، وغيرتُ تقاطيع وجهي بحركات كثيرة قبل أن أقول بتلعثم:

ـ كلّا، اعذروني. لقد اختلط عليَّ الأمر. ظننت أنه... كلّا، أرجو معذرتي، ثمة خطأ.

ساعدتني فيتوريا على النهوض، واعتذرت عني إلى الموظفين، ثم بمجرد أن صرنا في الخارج، دست يدها في يدي قائلة:

ـ هل ترغب في البكاء؟

ـ إنني لا أبكي على الإطلاق.

ـ تعالَ. لن نذهب إلى القداس.

دفعتني داخل سيارتها وانطلقتْ بسرعة كبيرة، فوصلتْ إلى مطلٍ يشرف على البحر وكذلك على جزء من الجزيرة. ببطء، تقدمتْ بسيارتها بين أشجار الصنوبر الواقية من الشمس، والسرو، ثم وقفت في الظل.

قطعتِ الكهرباء عن السيارة وأمرتني قائلة:

ـ ابكِ الآن، إذا أردتَ.

ـ لا أستطيع البكاء. لا أبكي بتاتاً.

ـ إذاً قبلني.

Twitter: @ketab_n

أخذ فمي بعنف شفتيها، وهناك، على مقعد السيارة، وسط الزيزان، بينما كان يقرع جرس الموتى، تطارحنا الغرام للمرة الأولى.

كانت فيتوريا، بالرغم من أصلها الصقلي، قد بقيت في صقلية، لكنها كانت، مثلي، كائناً قد قطع الروابط مع ماضيه لأنها هربت من سلالة مربكة. لم يكن جداها فقط فاشيين مشهورين، مقربين من الدكتاتور موسوليني في أسوأ الأمور وليس في أفضلها مطلقاً، ولكن والديها قد اشتهرا، بدورهما، بتطرفهما: كانا يساريين بقدر ما كان والداهما يمينيين، وأعضاء في السرايا الإرهابية في السنوات ١٩٧٠ عن قناعة، وليتجنبا السمعة الوراثية الفاشية، قاما باغتيالات قاتلة دانها التاريخ. قُتل الأب برصاصة خلال جولة ردعية، وماتت الأم بعد فترة قصيرة في السجن من نزف دماغي.

ربتها عماتها وأعمامها الذين كانوا يتخلصون من هذا الحمل المربك بأن يرسلها كل واحد منهم إلى الآخر. كبرت فيتوريا في العزلة وفي ازدراء الأعراف. صارت معلمة لتعطي معنى لحياتها ولتبني من جديد طفولة وذلك بمساعدة تلاميذها على بناء شخصيتهم.

لكنها كانت تعرف أن مزاجها الذي يماثل مزاج والديها وجديها والذي سبب موتهم، يمكن أن يقودها إلى أقصى الحدود. كانت كريمة، وقد عملت في الدفاع عن المسافرين غير النظاميين الذين يرسون في شواطئ الجزيرة، فكانت تحب عملها السياسي بقدر ما كانت تخشاه.

Twitter: @ketab_n

فتتصرف وهي تلوم نفسها على ذلك. في الحقيقة، كانت تتحدى ذاتها، فتخجل مما كان عليها أن تفتخر به.

ذات صباح، بعد شهر تماماً من موت بوب، لاقاني والدي حين كنتُ فجراً، مشغولاً بنظافتي.

ـ سعد، يا لحماً من لحمي ويا دماً من دمي ويا عرق النجوم، كم أنا متأثر ومطمئن لمعرفتي أنك هنا، بالقرب من امرأة جميلة ومُحِبَّة. لو كان لا يزال في استطاعتي أن أصنع دمعة فرح، لذرفتها.

ـ لقد جئتَ في الوقت المناسب. عندي سؤال لك: كيف تعيشون هناك، من حيث أنت قادم؟

ـ لم نعد نعيش، فنحن أموات.

ـ ولكن ماذا بعد؟

ـ يا ابني، من المحظر علينا أن نبوح بأدنى إشارة.

ـ هل هذا أمر؟

ـ إنه من الحس السليم! يجب أن يحيط السر بالموت. فليس للأحياء أية معرفة في ذلك طوال حياتهم، لأنه، مهما حدث، فسيجتازون العتبة عندما تحين ساعتهم. إن هذا لأفضل، صدقني.

ـ لماذا؟ هل هو فظيع بلد الموتى؟

ـ إن حيلك كي تجعلني أثرثر فجة، يا عزيزي سعد. تصور نتائج معلومة... إذا أكدتُ لك أن هناك سيئاً، فستُصاب بخيبة وتقع في المرض النفسي المسمى (النورستانيا)، وبالتالي ستنسى أن تعيش.

Twitter: @ketab_n

بالمقابل، إذا ادعيتُ أن هناك حسناً، فستتمنى أن تموت. إن ما يحمي حياتك، هو أن واقع موتك يبقى خفياً. وما يقوي وجودك ويدعمه، هو الجهل.

ـ هل رأيتَ بوب؟

ـ ما من جواب.

ـ لماذا لا يأتي لرؤيتي؟

ـ رحل إلى مكان آخر.

ـ إلى أين؟

ـ ما من جواب، يا ابني. لكن رحيله يمثل إنجازاً وإنني سعيد من أجله. عليك أن تبتهج بذلك، نظراً لصداقتك له.

ـ لن أراه مطلقاً حتى نهايتي الخاصة؟

ـ كلّا.

ـ وبعد ذلك؟

ـ ما من جواب.

ـ كيف يحدث أنني أراك وتحدثني وترافقني ولماذا ليس هو؟

ـ لقد أقِر لي بأنني روح معذبة غير قادرة على ترك الأرض.

حين ذكر ذلك، بدا راضياً عن نفسه، شأنه كمن انتزع، بعد نضال مرير، لقباً أو وساماً يُحسد عليهما.

ـ هل أنا مصدر قلقك، يا أبي؟

ـ عفواً؟

Twitter: @ketab_n

ـ أنا الذي أحتجزك.

ـ مم... أفترض أننا يمكن أن نفكر هكذا.

ـ ولكن ذات يوم، بدورك، سترحل؟

ـ لا تحاول أن تزلقني بالجواب. فمع ميت وبعكس الأحياء، هذا لا ينجح!

سكتُّ. لاحظ وجهي المُقَطّب وعينيَّ الحزينتين، فركع أمامي.

ـ ماذا تريد أن تقول له، يا ابني؟

ـ هل سترى بوب؟

ـ ربما، لا أستطيع أن أعدك بشيء. حسناً؟ إذا اقتضى الحال، ماذا عليَّ أن أردد عليه؟

ـ أطلبُ منه العفو.

ـ ماذا؟

ـ أطلبُ منه العفو، لأنني لم أكن قادراً على إنقاذه. ولأنني لم أدرك، وهو حي، أنه كان صديقي. إنني خجل من نفسي.

انحنى أبي وأراد تقبيلي، لكنه تردد فوضع يده على كتفي.

ـ سأنقل رسالتك، يا ابني، وإن كنتُ أفكر أن بوب لن يعلم شيئاً كان يعرفه. بالمقابل، ستستطيع أنت هذا المساء أن تبكي.

ـ أن أبكي؟ يا أبي، إنني لا أبكي مطلقاً.

ـ هل تراهن؟

ـ إنني لا أبكي مطلقاً!

Twitter: @ketab_n

ـ أتحداك! تراهن على أي شيء؟ كم؟

كيف عرف ذلك؟ فما إن اختفى، وأنا أفكر بكلماتي إلى بوب، حتى بدأت عيناي توخزانني واهتز جذعي من الشهقات، فطفحت دموعي حتى منتصف الليل.

بفضل تدخل فيتوريا، لم يُعتَبر الناجون من مركبنا المميت بمسافرين غير نظاميين ولكن كغرقى. وهذا يغير كل شيء في نظر أهل صقلية. فبدلاً من أن ينقلونا إلى مركز احتجاز، شأن مركز مالطة، مع ركاب آخرين غير نظاميين أوقفهم حرس الشواطئ، أعطي لنا الحق في أن نتجول بكل حرية. وأفضل من ذلك، راحت قرية فيتوريا تعتز باستقبالنا بحسب أعراف الضيافة الأسطورية للجزر: قُدم لكل واحد منا مكان متواضع ينام فيه، وتلقينا معونة صغيرة من المال كما كنا نُعالج مجاناً. جمع القسيس مؤناً من رعيته ليوزعها علينا كما استغلت فيتوريا، المعلمة، غرفة من مقر العمدة ابتدأت تعلمنا فيها اللغة الإيطالية.

للأسف، لقد تحطم اندفاعي. طالما لاحظت أن الإيطاليين يعاملوننا معاملة جيدة، لكنني كنتُ أسيء معاملتهم، فلا أرد جميلهم وصرت سكوتاً، غامضاً، حذراً، مستعداً أن أعض الشخص الذي يُقدم لي يده ليساعدني.

إثر فحص لضميري، وأنا خجل من نفسي، لمتُ ذاتي ليس لأنني تركت بلدي وأتلفتُ أوراقي الثبوتية وفقدت صديقي ولكن لأنني

Twitter: @ketab_n

لم أعد أتحمل أحداً؛ بينما بقي هدفي أن أجد مكاني في المجتمع الأوروبي، رفضت ما قُدِم لي وفضلت أن أغوص وأن أهوي. لا شك أن المرحلة القادمة هي الجنون!

كانت فيتوريا وحدها، بفضل اهتمامها الغريب بي، قد جعلت رأسي خارج الماء ومنعتني من أن أغرق في الانهيار العصبي. أحياناً كانت تنجح في ذلك؛ فإثر حرارة ابتسامتها، أعود لأصبح سعد السريع والسعيد والمقدام الذي قام بتلك الرحلة؛ إلّا أنها ما إن تتركني عدة ساعات حتى أرزح تحت الأفكار الحزينة ويشل مزاجي الكئيب قلبي وعملي ويمنعني من أن أستمر في الحياة.

بعد علاقتنا الجنسية تحت الصنوبر إثر موت بوب، خجلت من نفسي خجلاً كبيراً حتى إنني طلبت منها ألّا تعاود الكرة. على الإطلاق.

ـ لا أريد أن أستغل معاً حسن ضيافتك وجسدك.

ـ ولكن...

ـ أرجوك. سأفقد بذلك احترامي لنفسي.

احتجتْ بعنف لأنها أحبت كثيراً تلك اللحظة؛ ثم، بعد أن أكدتُ لها، أنني في أعماقي أود معاودة الكرة، سعت إلى مغازلات جديدة ادعيتُ أنني لم أفهمها. فحين أصبحتْ تلك المحاولات مباشرة، هددتها بترك سقفها إذا حدث ذلك ثانية. انتهى بها الأمر أن قبلتْ نذر عفتي.

ليس الماضي بلداً يتركه الإنسان بسهولة خلفه. كنتُ أعوم.

Twitter: @ketab_n

فقدت السيطرة على نفسي. بالرغم من إعجابي باللغة الإيطالية التي كانت تعلمني إياها فيتوريا، فإن استعمال كلمات مختلفة لتشير إلى أشياء قديمة تجعل تلك الكلمات أقل واقعية وأقل شرعية، بلا مذاق ولا تاريخ ولا ذكريات. فالعالم الذي تحدده لغة جديدة لم يكن له حضور صريح وأكيد شأن ما له في لغتي الأم.

لا شك أنني كنت قد تركت صقلية بسرعة كبرى لو لم أفتح، بمحض الصدفة، ذات يوم دفتراً مكتوباً بخط اليد لفيتوريا، فرحت أقلب صفحاته بشكل آلي. كان نوعاً من مذكرات، غير مؤرخ، حيث تسجل خواطرها. قرأته بسرعة فمزقتني المفاجأة: لم أتعرف على فيتوريا المفعمة بالحياة والإرادة، والنشاط والتي تخصص ساعة ونصف ساعة كل صباح لرياضتها مع رفيقة في القرية، اكتشفتُ فيه شخصية أشد قتامة، تتحدث عن جسدها السقيم وعن الجهود التي تقتضيها منها المهام اليومية وعن خوفها من المستقبل. كان نصاً مرصعاً ببداية فقرات كالتالية: «الموت هو رفيقي. أنام وأنا أفكر فيه، وأعتقد أنه، إذا ما تفاقم وضعي، فسيمكنني أن أرتاح دائماً على كتفه وأتعزى عن الحياة إلى الأبد» أو تلك الجملة: «كلما تضاءلت حياتي وزحفتْ، شكرتُ الطبيعة على أنها قد ابتكرت الموت. حين أشعر بأنني مفعمة بالقرف والغضب أو الألم، يبقى لي الموت».

في المساء، رجوت فيتوريا أن تغفر لي تطفلي وأن تشرح لي ما قرأتُ.

Twitter: @ketab_n

صعقتني الحقيقة دون انتظار: كانت فيتوريا مصابة بمرض لا شفاء منه وهو انحلال عصبي. كانت رياضة الصباح تخفي في الواقع جلسة يومية لتدليك طبي تؤخر تفاقم العاهة لكنها لا تشفيها. لم تكن فيتوريا تتعلق بأي وهم: فبسرعة تقدم المرض، يقل أملها في الحياة لأنه لم يتجاوز أي مصاب بهذا المرض الأربعين من العمر مطلقاً.

ـ سترحل من الآن فصاعداً، يا أوليس.

ـ كلّا.

ـ بلى، ستتركني كما تركني الآخرون. بمجمل القول، كلمة تركي مبالغ فيها، بما أننا لا نعيش معاً كزوجين.

حينذاك طلبت منها أن نذهب بالسيارة إلى المطل، تحت أشجار الصنوبر، حيث تطارحنا الغرام بعد موت بوب، وقد أخذتُ المبادرة، هذه المرة، لمواساتها وأنا آخذها بين ذراعيَّ.

منذ ذاك اليوم، لم أعد أفكر بالرحيل ولكنني أصبحت عشيق فيتوريا النظامي. رمتني الشفقة على درب الحب. في الأسابيع التالية، عشنا غراماً في منتهى الوله، بين الحزن والنشوة، ونحن نقفز من الألم إلى المتعة. كنا طوال ساعات ننعم بالكسل تحت الشراشف بعد تعاطي الغرام. كثيراً ما كانت تفضي لي بمكنونات نفسها. لماذا؟ لأنها كانت تحتاج إلى ذلك. ولأنني لم أكن أنبس ببنت شفة.

كانت رغبتي فيها تدفعني إلى أن أقبلها وأن أداعبها وأن أنفذ إليها ولكنني أرفض تبادل الاعترافات. وقد أثقلتْ على قلبي بلاطة من

Twitter: @ketab_n

رصاص، لم أكن أتخيل قط ما كنتُ أستطيع أن أروي لها. هكذا كنتُ أتصرف كعاشق لائق لكنه أخرس.

قررت فيتوريا أن تنظم حفلة، بمناسبة ذكرى وصولي إلى تلك الجزيرة.

في ذاك الصباح، كان جسدها الحار يلتصق بجسدي، ويدها تداعب صدري وبصوت موسيقي، سألتني:

ـ إذاً، يا أوليس، ألم يحن الوقت لتبوح لي باسمك الحقيقي؟

ـ مم...

ـ أعرف، ستدعي من جديد أنك لم تعد تتذكر شيئاً. احترمت تلك الكذبة لكنني أعتقد الآن، بعد عام، أنه يحق لي معرفة الحقيقة، أليس كذلك؟

فتحت عينيَّ واسعتين وتأملتها وأعجِبت بكمال تقاطيعها وتاهت أصابعي في شعرها اللامتناهي وفكرت أنني، موضوعياً، يجب أن أكون أسعد رجل على الأرض. إلّا أن كلمات أخرى خرجت من فمي:

ـ أوليس يلائمني كثيراً. لقد تآلفت معه.

قلت ذلك بنبرة جافة وباردة وبلا انفعال. ارتعشت رموشها.

ـ كان بودي أن تفتح لي قلبك، يا أوليس، وأن تثق بي وأن تصف لي ماضيك.

ـ ماذا قد يُغَير ذلك في علاقتنا؟

ـ سيتيح لي ذلك أن أحبك بشكل أفضل.

Twitter: @ketab_n

ـ طريقتك الحالية تلائمني.

ـ قد يُثبت ذلك أنك تحبني.

أدرت رأسي نحو النافذة؛ بدأ الحديث لا يروق لي. دون أن ترفع نبرتها، وبالحرارة العذبة عينها، ألحت قائلة:

ـ أجل، هذا سيُثبت أنك تحبني وهو ما لم تقله لي مطلقاً. وأخيراً حين تروي قصتك تهب ذاتك بقدر ما أعطيتُ نفسي. ما رأيك في ذلك؟

تمتمت بقرقرة غير مفهومة. نقرتْ أذني ثم ختمت قولها وهي تقفز بنشاط خارج السرير:

ـ فكر في ذلك، يا أوليس. وأجبني هذا المساء.

كي لا أفكر في ذلك، استغرقت في مراقبة دُرة، خلف النافذة شبه المفتوحة، قد استقرت على شرفتنا وقررتْ أن تبني فيه عشها.

ثم نهضتُ لأستحم. وأنا أنشف رجليَّ، شعرت بحضور. ظهر لي أبي بمزاج لعوب.

ـ يا ابني، يا ابني، يا ابني! لو رأت أمك هذا! إنكما تشكلان زوجين رائعين، أنت وهي. إنك أسمر بقدر ما هي شقراء. يجب حبسكما في المتحف في قفص للإشادة بالجنس البشري.

ـ لا تتحمس، يا أبي. لم أرك بهذا التشجيع حين كنتُ أعاشر ليلى.

ـ هذا ليس صحيحاً! كنت أحب بهذا القدر ليلى! حقاً! إنها فتاة

Twitter: @ketab_n

استثنائية، مبدعة، ذكية، تدخن بطريقة لا يدخن بها أحد. لكنكَ تألمت كثيراً منذ ذاك الحين حتى إنني أغتبط اليوم أكثر.

ـ فيما يخص ليلى، هل التقيتها في مملكة الموتى؟

ـ كلّا، مطلقاً.

ـ هذا مثير للفضول.

ـ أجل، هذا غريب. يجب أن نحدد أنها ماتت قبلي.

ـ هل يغير ذلك شيئاً؟

ـ ربما. لست أدري.

أشار إلى علبة نحاسية خضراء على منضدة الزينة وغمز بعينه.

ـ تهانيَّ على الخاتم!

ـ أي خاتم؟

وفق تعليماته، فتحت الغطاء ووجدت خاتمي خطوبة.

Twitter: @ketab_n

١١

إن السعادة التي ننتظرها تُفسد أحياناً تلك التي نعيشها.

كنتُ قد قلت « نعم» عن ضعف، ليلة خطوبتنا. إلَّا أنني، وإن عشت لحظات بسيطة، هانئة بصحبة فيتوريا، لكنني تمنيتُ دائماً الرحيل. لم يكن البقاء في صقلية في مخططي. فلندن هاجسي ولندن تجذبني. لسبب عنيد لا أفهم جذوره، لقد أعطيت موعداً لنفسي في إنكلترا. فكل ما أقوم به قبل ذلك لا وجود له إلَّا بشكل نصفي، «في انتظار ذلك».

وإن ظهرتُ في نظر الجميع كخطيب فيتوريا، كنتُ أعرف أنني لم أكن إلَّا شبحاً له وأنني ذكرى لها، في تلك الساعة، تشكل حضوراً من لحم لكنها ستأخذ قريباً كيانها الحقيقي، كيانها النهائي، وهو الغياب.

غالباً ما أستشف الألم الذي سأسببه لها، فأبدي رقة، رقة متناهية؛ وفي الساعة التي تليها، أتمالك نفسي لأنني أدرك أن كل تلك المحبة تجعل رحيلي لها أكثر غموضاً وأعظم ألماً؛ فأبدو حينذاك قاسياً، في منتهى القسوة. بمجمل القول، بقدر ما كنت

Twitter: @ketab_n

أقترب مما يظنه بعضهم زواجي وأنا أعرف أنه رحيلي، صعب عليَّ أن أجد تصرفاً ملائماً.

أتساءل أحياناً إن لم تكن فيتوريا قد استشفت مشروعي. ففي الصمت بعد تعاطي الغرام، بالرغم من أعضائنا المتشابكة، كانت عيناها تتأملانني شأن لغز ويبدو رأسها مضطرباً من أسئلة تحبسها شفتاها. فيدها تداعبني بطريقة غامضة، بحثاً عن نقطة تستند إليها لتنطلق الكلمة.

فهمتُ، منذ البدء، أن الحزن يربطنا أكثر مما يفعل الفرح. لم تكن السعادة تجمعنا بل التعاسة: لقد طارحتها الغرام لأقتل حزني على بوب، ولم أستمر في ترددي إلى سريرها إلَّا هرباً من أفكاري السوداء، هكذا، منذ اليوم الأول حين أنقذتني فيتوريا على ضفاف الخليج الصغير، اعتبرتها كملجأ ضد العاصفة؛ استقبلتني، من جهتها، لتكسر عزلتها وتتحدى التقليديين وتحطم التقاليد العائلية التي تجمع أشخاصاً في منتهى التماثل وبخاصّة لتبادل جسمها الذي يتألم بجسم يتمتع. من طرفينا، ُخيل إليَّ أن لهوانا أسباباً سلبية أكثر منها إيجابيةً؛ «كنا نتحابب كي لا...»؛ شأن غريقين، تدفعنا قوة الكآبة، كنا نتحابب كي لا نفكر وكي لا نضيع الوقت. كلانا ينتظر شيئاً آخر عما يستطيع كل واحد منا أن يعطيه للآخر.

حين أصبحت على يقين من معرفتي للكلمات التي تعبر عن فكرتي، جمعت أشيائي القلائل ـ منها غطاء والدتي الذي وجدته بعد

Twitter: @ketab_n

ستة أشهر من الغرق، وقد رمته الأمواج على رأس صخرة ـ، خربشت نصاً ووضعته على السرير، بشكل مرئي جداً.

«فيتوريا،

بعض قصص الحب تستمد جمالها من كونها موقتة؛ فإذا ما طُلب من تلك القصص المزيد فإنها تكد وتعبس وتصبح دميمة. شأن خيول وحشية لا تركض بسرعة إلّا لفترة قصيرة، فهي تتألق في العدو الطليق لكن أنفاسها تتقطع ما إن يُثقَل كاهلها.

هكذا تنساب علاقتنا، رائعة إذا تعرفنا فيها على نزوة، وتصبح عرجاء تتعثر إذا أردنا أن ندفعها نحو الزواج. إنني سعيد حين أضاجعك؛ وحين أتصور أنني سأقاسمك حياتي، أخجل من اغتصابي مكان الرجل الذي سيحبك حباً تاماً ولن يحب سواك.

لأنني أحب امرأة، وليس أنت. تدعى ليلى. توفيت.

وما العمل؟ إنني آسف، يا فيتوريا، فتلك الشابة ليلى، وإن رحلت، تبقى فيَّ بشكل قوي، فهي حاضرة حتى إنها لا تزال تجعلني أسير حبها. لستُ أنا الذي أملك قدرة شد الرباط بيننا أو حله، إنها هي. إلّا أنني ظننت حين التقيتك أنني قد أستطيع فك ذاك الحبل. وهذا خطأ. فليلى هي التي تقرر دائماً.

سأرحل، يا فيتوريا. فإذا كنتِ متعتي، فإن ليلى قدري.

Twitter: @ketab_n

إنني متعلق بك بقدر ما أستطيع التعلق بامرأة جميلة وذكية وكريمة، أشتهيها وأحترمها وأعزها.

إذا رحلت غداً، نكون قد عشنا أجمل ذكرياتنا. أما إذا بقيتُ، فسنكتشف أننا لسنا بزوجين كاملين وأن ملذاتنا، في الوقت الحاضر، تخفي نقائصنا. لأنني لستُ سوى عابر، لكن عام سعادتنا لن يمر، سيتوهج شأن منارة لينير حياتنا؛ فحيث قد أقيم، تستقر التعاسة لأن الإنسان لا يستطيع، إلّا إذا كان فناناً عظيماً، أن يجعل الموقت والعابر خالدين.

سامحيني على الدموع التي ستسببها تلك الكلمة لكنني أفضل أن تبكي بسبب غيابي عن أن تبكي بسبب حضوري. إنني أحبك بقدر ما أستطيع أن أحب، وبالطبع ليس بالقدر الذي تستحقينه.

المخلص لك، بالرغم من كل شيء، إلى الأبد.

سعد سعد».

للمرة الأولى ـ والأخيرة ـ أفضيت إليها باسمي.

نظرتُ إلى مرآة غرفة النوم، لأتأكد من أن مظهري يصلح للسفر بإيقاف سيارة على الطريق العام وركوبها مجاناً ثم سرَّحت شعري.

استغل أبي تلك الفرصة ليخرج من إطار المرآة.

ـ لمَ الرحيل، يا ابني؟ إن كان الأمر هو العيش، مجرد العيش، يمكنك أن تعيش هنا. .

ـ ربما أريد أكثر من ذلك.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟

ـ لا أعرف.

ـ إن كانت الغاية أن تكون محبوباً، فهنا أنت محبوب. إن حب السفر عندك يتحول إلى عبثية ولا معنى. أخشى أن تكون قد أسأت الاعتياد وذلك بتفضيلك أوهاماً على كل واقع.

ـ أريد أن أذهب حيث تقبع رغبتي، في لندن. ثم إنني لا أتحمل شيئاً مما تحمله لي الصدفة. لقد حددت لنفسي هدفاً ولن أرتاح قبل أن أبلغه، ليس لي محطات توقف بعد الآن.

ـ حسناً، على كل حال، سأتبعك. أضف بعض المرهم المثبِت على الجانب الأيمن.

ـ شكراً.

بعد عدة ساعات، بفضل سيارتين متتابعتين ساعدتاني على قطع الطريق، وصلتُ إلى مرفأ «بالِرمو».

كان عليَّ أن أجد طريقة لمغادرة صقلية دون تقديم أوراق لم أعد أملكها، ودون أن أنفق كذلك بعض الأورو الذي تصدق به عليَّ القرويون.

وأنا أضرب نعليَّ على رصيف المرفأ، وأضاعف الملاحظات، سعيت إلى إعداد خطة. بينما كنت أدرس حمولة مركب عبور، دوّى صوت خلفي:

ـ أنت، أيها الشاب، تبحث عن نقل مباشر ومجاني، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

حين استدرت، اكتشفت عملاقاً أسود، إنه كتلة من اللحم ومن العضلات يلتصق بها بنطال من النايلون المذهب وقميص بلا أكمام وردي اللون ويحمل في ذراعه اليسرى أربع ساعات فخمة وزائفة من الذهب، ثلاث منها مستديرة وواحدة مربعة. وقد استرخى على مربط سفينة راسية، راح يبتسم لي بأسنان متباعدة جداً.

فكرت بوصولي إلى القاهرة، كما تذكرت جدالي مع بوبكار أمام مكتب الأمم المتحدة، لم أستطع الامتناع عن التفكير في أن القدر قد أرسل لي، جالساً على الرصيف، تجسداً لبوب. بادلت العملاق ابتسامته دون أن أخاتل في جوابي.

ـ لقد أصبتَ.

ـ آه!

ـ هل لديك مخطط؟

ـ أجل.

ـ ما هو؟

ـ لا أرى لماذا أعطيك إياه.

ـ باسم الصداقة.

ـ لستَ بصديقي.

ـ ليس حتى الآن.

ـ ولا أرى كيف ولماذا تصبح صديقي.

ـ أتراهن؟

Twitter: @ketab_n

فوجئ من جسارتي الهادئة، فانفجر ضاحكاً. اقترحت عليه أن أصحبه لنتعشى وأنا أحدد «أدعوك»؛ أجاب عن دعوتي أن لديه دائماً متسعاً من الوقت يخصصه لأصدقاء المستقبل.

كان لوبولد ـ وهذا اسمه ـ آتياً من ساحل العاج. فبعد محن تختلف عن مصائبي، ولكنها تعادلها تعقيداً، أراد الوصول إلى باريس.

أعلن لي منذ الصحن الثاني قائلاً:

ـ إنني فيلسوف.

ـ هل أنت مجاز في الفلسفة؟

ـ كلّا، ما العمل؟ لم يكن عندي وقت للتعلم. كان عليَّ أن أقيم أودَ العائلة. حتى لو ركضت في كل مكان، لم أكن أتوصل إلى ذلك.

ـ إذاً، لماذا تدعي أنك فيلسوف؟

أجاب قائلاً:

ـ لأن على المرء أن يكون فيلسوفاً ليعيش الحياة التي أعيشها. كنتُ، في الماضي، في شاطئ العاج، شأني اليوم، بلا أوراق نظامية. حلمي هو أن أصبح فيلسوفاً في باريس.

ـ تُعَلم الفلسفة في باريس؟

ـ ولكن ماذا تروي لي، بحكاياتك التي ترددها على الدوام عن الدروس في المدرسة، وفي الجامعة! فيلسوف في باريس يعني أن أمارس فلسفتي على الطريق المُعَبَّد في باريس وكذلك على الشارع المبلط.

Twitter: @ketab_n

ـ تحت الجسور، على سبيل المثال؟

ـ تماماً.

ـ مع المتشردين؟

ـ أخيراً، فهمتَ! لأنّ هؤلاء المتشردين، إذا لم يصلوا إلى قمة الفلسفة، فهذا يعني أنني لم أفقه شيئاً من الفلسفة.

وافقته. تابع ليوبولد أكله وحديثه بنهم لا ينضب.

ـ كما ترى، أريد أن أجد مجرد مكان صغير مريح في فرنسا، لكنني لا أريد أن أصبح فرنسياً ولا أوروبياً، إلّا من أجل الأوراق. لأنني بصراحة، لن أستطيع مطلقاً أن أتفهم العقلية.

ـ العقلية الأوروبية؟

ـ أجل. إنني بالغ اللطف، في منتهى الشراهة والسذاجة. أنا أحب الحياة، أحب السلام. إنني أعجز، شأنهم، عن أن أعشق الحرب.

ـ أنت تمزح؟

ـ كن ثاقب الفكر، أيها الصديق. يعشق الأوروبيون المذابح، ويطيرون حباً بالقنابل وبرائحة البارود. والبرهان؟ إنهم يشنون حربا، كل ثلاثين سنة ويعانون من أن يصبروا مدة أطول بدون حرب. حتى في زمن السلم، لا يحبون إلّا الموسيقى العسكرية؛ فحين يقرع الطبل وينفخ البوق بأناشيدهم الوطنية، تغرورق عيونهم بالدموع، بل يسترسلون في البكاء وتتدفق مشاعرهم، كما لو كانوا يسمعونهم أغنية حب. كلّا، هذا واضح، إنهم يحبون الحرب والقتال والغزو. وأسوأ ما في الأمر،

Twitter: @ketab_n

هل تعرف لماذا يشن الأوروبيون الحرب، ويقتلون، ويقتتلون؟ بسبب الملل. لأنه ليست لهم مثل عليا. إنهم يشنون الحروب لينجوا من الضجر، يشنون الحروب ليفلتوا من اليأس، يشنون الحروب ليتجددوا.

- إنك تبالغ. تعيش أوروبا بسلام منذ ستين عاماً.

- بالضبط! لقد ابتعدوا كثيراً عن الحرب: اليوم شبانهم على مشارف الانتحار، والمراهقون يبحثون عن الطرق ليقتلوا أنفسهم.

- كلّا، لقد تغيروا. إنهم الآن في وضع أفضل.

- أجل، تحسنت الأمور لأن عندهم السينما، والتلفاز اللذين يبثان لهما يومياً جرعتهما الصغيرة من الهول والجثث والدماء والجرحى المنقولين والانفجارات والأبنية المتهدمة والجنود الواقعين في الكمائن وأهالي الجنود يبكون ولكن بعزة وكرامة. إن كل ذلك يحافظ على صحتهم، فهي تدابير تساعدهم في انتظار المجزرة الجميلة القادمة.

- قد يدهشني أن تلتقي بأوروبي مقتنع بالصورة التي تخطها عنه.

- طبعاً! لا يعرف الأوروبيون أنهم هكذا. لماذا؟ كي يدرس الإنسان نفسه، اخترعوا المرآة المشوِّهَة: إنهم المثقفون. اختراع عبقري: المرآة التي تعطيهم صورة تختلف عن صورتهم عن أنفسهم! إنه الانعكاس الذي يُتيح لهم أن يروا أنفسهم دون أن يروا ذواتهم! إن الأوروبيين يعشقون المثقفين، فيقدمون لهم المجد والثروة والنفوذ كي يؤمن لهم هؤلاء المثقفون الانطباع بأنهم ليسوا كما هم، لكن

Twitter: @ketab_n

العكس: مسالمون، دعاة الفلسفة الإنسانية، ينادون بالتآخي، مثاليون. يا له من عمل مقدس، هذا العمل الذي يقوم به المثقفون! برواتب جيدة، وبنفع كبير. لو كنت غير راغب في أن أكون فيلسوفاً في باريس، لأحببت أن أعمل مثقفاً. يستطيع الأوروبيون، بفضل مفكريهم، أن يعيشوا مرتاحين في عالم مزدوج: يتحدثون عن السلام ويشنون الحرب، يخلقون العقلانية ويقتلون بالباع وبالذراع ويبتكرون حقوق الإنسان ويجمعون أكبر عدد من السرقات والاستيلاء على ممتلكات الغير والمجازر من كل التاريخ الإنساني. يا له من شعب غريب، الأوروبيون، أيها الصاحب، إنهم شعب عجيب، شعب لا يتواصل رأسه مع يديه.

ـ ومع ذلك، فهناك تريد أن تعيش، أيها الصاحب؟

ـ أجل.

طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، لم نفترق، أنا وليوبولد.

حوالى منتصف الليل، وقد هاج ليوبولد من النقاشات المملة والمشروبات، راحت الدماء تغلي في عروقه ولم يعد يستطيع البقاء في مكانه وشعر بحاجة لإغراء النساء. حينذاك، لا شيء يستطيع منعه من الحديث عن كل ما يُظهر أفخاذاً ونهوداً. والأغرب من ذلك هو أن ليوبولد، تحت ملابسه ذات الألوان الصارخة من وردية حمراء إلى صفراء فاقعة، بسلاسله وأساوره البراقة ومجموعة طرفه التي يلبسها المغنون الشعبيون وحذاءيه المذهبين وقبعته الفضية، فكل هيئته تأخذ

Twitter: @ketab_n

مظهر راهبة إذا ما قارناه بأكبر المتنكرين البرازيليين الرديئين. كان يغري السائحات ويتوصل دائماً إلى أن ينال مراده.

حين يترك فريسته العابرة، يعود إليَّ بعينين قرمزيتين، وبرأس ملتهب.

ـ هل تعرف ما أنا فاعل؟ سنغوص في هؤلاء الأوروبيين، ونجعلهم يحملون أطفالاً، نحن الزنوج والعرب والآسيويين لأننا نضاجع أكثر منهم وأفضل منهم ولأننا نحب الأطفال ونصنع منهم بشكل متزايد. سيأتي يوم، لن يبقى فيه كثير من الأوروبيين.

ـ بلى، لكن سنكون أنا وأنت. أو بالأحرى أولادك غير الشرعيين بما أنك مصمم على إعادة إعمار الكوكب بالسكان.

ـ أبنائي وبناتي في كل مكان؟ تعتقد أن الوضع سيكون أفضل!

ـ حين أسمعك تروي كل تلك السخافات، لست في منتهى الثقة من ذلك.

كلما تقدم ليوبولد في النظريات التي ينشئها عن هؤلاء الأوروبيين الذين يجذبونه راح يُفضي إليَّ، قطعة فقطعة، بخطته في الهرب. كي نترك صقلية، كان علينا أن نصعد إلى مركب عبور؛ لكننا، كي نتجنب أن ندفع أجرة أو أن نبرز أوراقاً ثبوتية لا نملكها، يلزمنا سيارة سائحين نجد فيها مكاناً نختبئ فيه. لذا، رحنا نمضي أيامنا نتفحص مجموعة المسافرين، ونحن نفتش عن الزمرة التي تتيح لنا تحقيق مخططنا.

ـ الطريقة المثلى تكون بإيقاف سويسريين صغار.

Twitter: @ketab_n

ـ عفواً؟

ـ سويسريون صغار. أسرة، كل فرد من أفرادها أشقر، غنية، تلبس كتاناً أبيض وتتنقل في سيارة بحجم الشاحنة، الأسرة المثالية التي يبتسم فيها الوالدان. والأطفال نظيفون دائماً، تتمتع تلك الأسرة بسلسلة امتيازات، فللرضيع هاتف جوال وللجنين بطاقة اعتماد بلاتينية. لا يُضايق الشرطة هؤلاء الناس الذين هم خارج المجتمع ومشاكله حتى إنهم لا يتصورون الضربات الدنيئة مطلقاً. أوجد لنا سويسريين صغاراً! لكن حذارِ: سويسريون صغار وليسوا بسويسريين! لأنه، فلنفرض أننا نبقى محبوسين في صندوق، في أوروبا، في سويسرة لا أحد يرغب فينا. يُغلقون حدودهم بالبحيرات والجبال والجمارك والكلاب ورجال الشرطة، بكل شيء! لاحظ، ليست بقية الدول أكثر تسامحاً حين تُمس حدودها.

أجبت قائلاً:

ـ إن السهر على أرض البلاد تصرف عاقل حين لا يكون للمرء إلّا بلد واحد.

ـ في القرون الأخيرة، ذهب الأوروبيون قليلاً إلى كل أصقاع الدنيا، فأسسوا تجارات، في أماكن كثيرة وحلّقوا في أماكن كثيرة إلى حد ما وحفروا في أماكن كثيرة وبنوا في أماكن كثيرة وتكاثروا في أماكن كثيرة واستعمروا أماكن كثيرة. والآن، ينزعجون إذا ما جئنا عندهم؟ لكنني لا أصدق ما تسمعه أذناي! أرضهم، جاؤوا يوسعونها

Twitter: @ketab_n

عندنا بلا حياء، أليس كذلك؟ هم الذين بدأوا فبتغيير أماكن الحدود. والآن، جاء دورنا، وعليهم أن يعتادوا ذلك، لأننا جميعاً سنأتي عندهم من أفارقة وعرب وآسيويين ومن أميركا اللاتينية. أما أنا، بعكسهم، لن أجتاز الحدود بأسلحة وبجنود أو بالرسالة النبيلة وهي تغيير لغتهم وقوانينهم ودينهم. كلّا، لن أغزو ولا أريد أن أبدل شيئاً، كل ما أبغيه هو أن أجد مجرد مكان صغير أركن إليه. انظر، أليس هؤلاء سويسريين صغاراً؟

أراني أسرة أنيقة أوقفت في المرآب سيارتين ضخمتين للاستجمام.

ـ هناك، يمكن أن تجد مكاناً.

ـ ألا تأتي؟ ربما هناك مكان لاثنين.

ـ كلّا، لن أتحرك.

ـ ماذا؟ ألن تعمل فيلسوفاً في باريس.

ـ بلى، بلى. ليس فوراً. إنني الآن أعمل فيلسوفاً في باليرما. أساعد الناس الذين على شاكلتك. أشعر بأنني أكثر نفعاً هنا.

ـ ولكن...

ـ اسمع، يا صديقي، لا يوجد في الجنس البشري إلّا نوعان من الناس: هؤلاء الذين يلومون أنفسهم والذين يلومون الآخرين على سلوكهم. أنت تنتمي إلى النوع الأول؛ تندفع ولا تلوم إلّا نفسك إذا ما أخفقتَ. أما أنا، فلسوء الحظ، أضَخِم قطيع النوع الأخير، رجال

Twitter: @ketab_n

الحقد، هؤلاء الذين ينتقدون الأرض بأسرها. أتحدث كثيراً لكنني أتصرف قليلاً.

ـ إذاً اسكت، خذ كيسك واتبعني.

ـ دعني وشأني! اقفز في صندوق السويسريين الصغار. لا تتأخر وإلّا ضاع كل شيء.

أدركت أنه على صواب: لو أطلتُ الانتظار، فإن مركب العبور سينقل السيارتين.

ـ ليوبولد، لماذا ساعدتني؟

ـ لأنك صديقي. ثم لأنك قدمت لي الشراب والطعام طوال أيام كثيرة.

ـ ليوبولد، أعتقد أنك لن ترحل.

ـ آه، لقد فَهِمتَ هذا! هل تعرف أنك حقاً صديقي، أنت؟

بعد نظرة على ليوبولد وساعاته الزائفة، وحليه اللمّاعة وملابسه التي تظهر علامات هذا العالم الذي يعشقه ويكرهه والذي، بلا شك، لن يلحق به مطلقاً، قفزت إلى أقرب سيارة وانزلقت إلى المؤخرة، بين المقعد الأمامي وكرسي الأطفال وكومت فوقي بعض حقائب السفر الخفيفة التي أخفتني. انتظرت.

صعد موظف إلى العربة ووجهها نحو معبر الإرساء، وصفها في مكان الاصطفاف الذي يشغل بطن السفينة المعدني.

مكثتُ ساعات بدون حراك ثم، بعد ضجة كالتي تحدثها الطناجر

Twitter: @ketab_n

وصوت الصفارات التي تمزق الفضاء، راحت الأرض تتحرك تحتي.

انطلق مركب العبور متوجهاً نحو نابولي.

تتابعت في رأسي بسرعة جنونية من الصلوات والاعتبارات العلمية عن حجم هيكل السفينة، وقدرته على مقاومة العواصف. بمجمل القول، كنتُ مذعوراً.

Twitter: @ketab_n

١٢

في نابولي، يكفي أن يدور المرء حول المحطة لينفذ إلى الشبكات والمبادلات التجارية غير القانونية. فإذا بحث أحد عن مخدرات، وجدها حول المحطة؛ وإذا فتش عن مومسات، يحاذيهن حول المحطة؛ وإذا أراد رجالاً مأجورين أو مجانيين، يمكن مغازلتهم حول المحطة؛ وإذا بحث أحد عن عمل بدون ترخيص، أمكنه أن يقع على أرباب عمل وعمال حول المحطة. حقاً، لم تكن محطة نابولي بالجنة، لكنها تتيح الوصول، بدون بطاقة، إلى الجحيم: هناك، كانت الإناث قبيحات والذكور متعبين والأعمال مُذِلة، وأرباب العمل وقحين، والأجور هزيلة شأن هياكل عظمية والمخدرات قاتلة. كان المرء يجد كل شيء في محطة نابولي، ولكن كل شيء منحط، كل شيء فاسد، كل شيء يقرضه العدم والاضمحلال.

بعد عدة أيام قمت فيها بتحقيق سري، التقيت هناك بمهربي العبور الذين كانوا هم أيضاً يجرون أحذيتهم اللماعة بين البنايات والذين لم يتأخروا عن شرح شروطهم.

Twitter: @ketab_n

مقابل أجر عادي من أربعة شهور إلى ستة، كانوا يؤَمِّنون النقل حتى بحر الشمال، يقطعون بلدين هما إيطاليا وفرنسا، كذلك يجتازون حدود دولتين: الحدود الفرنسية والبلجيكية. بعد ذلك، يجب على المرء أن يدبر أموره هناك باتصالات أخرى للوصول إلى إنكلترا. نادراً ما كان الراغبون في الهرب، بيننا، لا يزالون يملكون هذا المبلغ. لم يكن ثمة مشكلة! إذا لم يكن لدينا المال، فإن مهربي العبور يعرضون كسبه. كانوا يقدمون، شأن وكالة للسفر، «مجموعة تركيب كاملة»: أي عدة أشهر من العمل مقابل نقل موعود.

لم أتأخر في الشك بأنَّ المافيا كانت تحوم خلف هؤلاء الرجال الذين يحاذوننا.

ـ إن المافيا، وهي دائماً تواكب العصر وتترقب أسواقاً جديدة، قد استشفت أن ثمة مالاً يمكن كسبه من المسافرين غير النظاميين. تلك هي عبقرية التجارة، يا ابني: وهي أن تفهم أنه من الممكن كسب الذهب من الفقراء بقدر الأغنياء.

ظهر لي والدي وأنا أدلك كاحليَّ، وقد جلست على شبك للتهوية في شارع صغير ذي رائحة نتنة.

ـ ماذا عليَّ أن أفعل، يا أبي؟

ـ يا ابني، تطلب مني نصائح؟ هل تُصغي إليها؟ بصراحة، يا للوقاحة! تتصرف وفق هواك طوال أعوام ولا تستشيرني إلَّا وأنت على حافة الهاوية... إنني أرفض الجواب.

ـ أنت ترفض الجواب؟ هذا يعني أنك توافقني.

Twitter: @ketab_n

بعد دراسة المقترحات وملاحظة أنها متساوية القيمة ـ فإما أن التنافسيين عقدوا اتفاقاً سرياً فيما بينهم كي لا يكسر أحدٌ الأسعار، وإما أن المافيا تضبط كل شيء ـ، إنني ارتبطت بواحد منهم.

طوال أسابيع كثيرة، اشتغلت إذاً عند بائع حدائد، والخلاصة أنه كان بائع حدائد غريباً. فللرجل عمل رسمي لكن نشاطه الرئيسي يجري خارج القوانين. فحين يحل الظلام، كان رؤساء العمال يكسرون مدخل الورشات أو يختفي رجلان موثوق بهما، قبل ساعات كثيرة، فيقطعان صفارات الإنذار وآلات التصوير والخطوط الهاتفية؛ نحن، اليد العاملة، بلا نور ولا صوت، يجب أن نسرق نحاس الأبنية أو توتياءها ونفَرِّغ المؤن ونقتلع العناصر التي أقيمت؛ في الساعة الخامسة صباحاً نعبئ الغنيمة في سيارة شحن صفراء ترحل بعد ذلك لبيع هذه الأطنان من مواد البناء ثانية على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات. أحياناً، حين لا تتوافر ورشات هامة، نسرق يوم الأحد المعامل التي تُصنِّع تلك المواد أو تخزنها. وفي مرات أخرى، حين يتربص القحط بنا، يرسلنا رئيسنا إلى الريف حيث نفصل، عند حلول الظلام، سطيحات المنازل الصيفية الفخمة والمنعزلة.

منذ أول سرقة، وضعت أخلاقياتي بين قوسين. وقد اعتبرت أن الحاجة تصنع القانون، فلم أفكر بالضحايا مطلقاً ولا بالمؤسسات التي نُهبتْ ولا بالصناعيين الذين سلبوا، وأقل من ذلك، بأصحاب البيوت

Twitter: @ketab_n

الذين يكتشفون منازلهم بلا سقوف، اشتغلت بكد وكسبت مالاً قليلاً وكززت أسناني غضباً.

بين الفينة والفينة، حين كنتُ أغتسل بالماء الحار والصابون في الحمامات العامة، أعجب من نزوات القدر؛ فخلال عدة ثوانٍ، أدركت أنني قد تركت العراق ومظالمه لأجد نفسي في نابولي حيث تستغلني المافيا.

- إنني مسرور أنك، في لحظات، تعي، يا ابني، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، أنَّ ضميرك، وإن كان هارباً وحتى خفياً، لا يزال موجوداً.

غالباً ما كان والدي يستفيد من تلك اللحظات ساعياً إلى تقديم عظاته.

- طاب يومك، يا أبي، هل الأمور على ما يرام في العالم الآخر؟

- أنت مضحك. أتعتقد أن هؤلاء الناس سيحترمون العقد؟ ألن يخدعوك؟

- إنني مقتنع أن الناس الأنذال يحافظون بدقة فائقة على التزاماتهم بمجرد أن يعرضوا عليك صفقة.

- أرى ذلك: فالأشرار ليس لهم إلّا كلمة لأن لا شيء لهم غير ذلك!

- بالضبط. بما أنهم لا يوقعون على شيء، فكلماتهم تساوي المكتوبات.

Twitter: @ketab_n

ـ كفى، يا ابني، سأتقيأ. شرف اللصوص! احترام الوعد! رومنسية الجريمة! توقف، رحمة بي! هؤلاء الأوغاد يستخدمون بؤسك ليملأوا جيوبهم، وتود أن أصفِّقَ؟ قطب وجهه وهو يتفحصني.

ـ هل تتحمل الوضع، يا ابني؟

ـ أجل.

ـ أمتأكد؟

ـ نعم.

ـ لأنك تعتني برجليك، ولكن أرأيت يديك؟ محززتين. ممزقتين. تكبرانك بعشرين سنة. لم تعد يداك شأن يديَّ. أتذكر يديَّ، يا ابني؟

ـ كانتا جميلتين جداً، يا أبي.

ـ يجب أن أقر أنني لم أتلفهما البتة: أقلب بهما الصفحات، أداعب أمك، وألاطف بناتي...

ـ تصفع ابنك.

ـ آه، مرة واحدة.

ـ مرتين. لكنني سعيتُ إلى ذلك...

ـ لو تعرف كم أحببتك، يا ابني، وتلك الصفعات، لم أسددها إلَّا حباً بك.

ما جرى بعد ذلك أيد كلامنا، بالنسبة إليَّ لأنني رحلت في نهاية الأمر وبالنسبة إلى أبي لأنهم طلبوا مني أن أعمل ستة أسابيع إضافية

Twitter: @ketab_n

لأدفع أجور نقلي. أخيراً أعلموني أن مهربَي ركاب، الأحد التالي، سيقومان برحلة نحو بحر الشمال.

في ذاك الصباح، مثلتُ في الباحة الخلفية لمصنع بسكويت، في جنوب ضاحية نابولي. ثمة ثلاثة عمال أعرفهم لأننا قطعنا معاً كيلومترات من الأسلاك، واحد تركي وواحد أفغاني وواحد ألباني كانوا على الموعد. تبادلنا سلاماً بسيطاً. وصل آخرون، مجهولون، غالبيتهم من الزنوج، وقد لبسوا ساعات فخمة زائفة، رمز الازدهار الذي سيكونون عليه قريباً؛ كان كل واحد يحمل صرة أو كيساً، لأنه، وفق التعليمات، لا يحق لنا حمل حقيبة. بالرغم من أننا كنا كلنا نجر أجساداً تعبة ونُظهر تقاطيع مشدودة وبالرغم من أن لا أحد يتكلم، كان في عينينا بريق الفرح ذاته ونتشارك شعورنا بالخلاص. كان بعضهم يُدخن وهو يبتسم نحو السماء وبعضهم يغني وكان زنجيان فتيان يصفقان بأيديهما. حين ظهرت أول شاحنة، لاحظتُ أننا كنا أكثر من ثلاثين شخصاً.

برز ثلاثة أفراد من المافيا طلبوا منا الدخول إلى المبنى والذهاب إلى المراحيض، وهو احتياط ضروري لعدم قطع السفر. أحدد أنهم نصحونا أن نأكل قليلاً ليلة الرحيل، ونفرغ أمعاءنا. نفذنا الأوامر بصبر.

ثم جمعونا ثانية في الباحة ورجونا أن نصعد إلى الشاحنة.

سأل الألباني باستياء معبراً بإيطالية مفهومة:

Twitter: @ketab_n

ـ أين الشاحنة الثانية؟

ـ الجميع في المؤخرة. من ليس راضياً ما عليه إلّا العودة إلى مسكنه.

حدثت همهمة تذمر لكن لم يرغب أحد منا في الاحتجاج أكثر. ما جدوى ذلك؟ فإذا كنا نهرب أصلاً من بلدنا، فمن الآن وصاعداً نهرب من هذا الوضع، وهو التخفي والعبودية وسلطة أفراد المافيا وتلك المعاملة التي تنحدر بنا إلى مصاف البهائم. تسلق كل واحد. من الأفضل التصرف للمرة الأخيرة كالماشية لنهرب من القطيع...

تراصصنا. على كل حال لم يكن هناك إلّا حلان: فإما أن نتكدس أفقياً وكلنا يقين أن الذين في الأسفل سيختنقون، وإما أن نرص صفوفنا وذراع أحدنا في أضلاع الآخر، وكتفا هذا في عظام كتف ذاك. لحسن الحظ، كان كل واحد، احتراماً لنفسه ولرفاقه، قد تنظف للطريق؛ فلم تكن تنبعث من الملابس رائحة التعرق أو الشحم، كما لم يُشم من الجلد القذارة ولا البول، كانت بعض الجلود وحدها تبعث عفونة طعام فيه توابل وثوم. لم يكن ثمة ما لا يُطاق.

ظننت نفسي وسط كابوس حين قرَّب أفراد المافيا لوحة خشبية تبلغ مترين مكعبين تحوي علباً شرعوا في تكديسها في المؤخرة.

لم يعد هناك مكان لنا.

راح كل واحد بلغته يعبر عن استيائه. بدا التمرد يهدر.

Twitter: @ketab_n

أمسك السائق، فوراً، أول اثنين غير نظاميين وقعت يداه عليهما، جرهما بفظاظة وطرحهما أرضاً.

ـ هذا لا يعجبكما؟ إذاً ستبقيان هنا.

توقف عصياننا مباشرة.

نهض الاثنان المرميان وتمتما أسفهما لما قالاه واستعدا للصعود ثانية.

لكن أفراد المافيا أمسكوهما، وهم يتابعون تكديس تعبئة علب البسكويت التي شأنها شأن جدار من القرميد ستحمينا من تفتيش الشرطة.

حين أدرك الزنجيان أنهما سيُقصَيان من السفر، راحا يصرخان ويتوسلان ويبكيان؛ خلع أحدهما حذاءيه المطاطيين وأخرج من النعل أوراقاً نقدية جديدة.

بقي أفراد المافيا لا يلينون.

أما نحن، الجبناء، فلقد سكتنا. أدركنا أن إقصاء هذين الزنجيين هو هذا الثمن الذي اشتروا به خنوعنا. اعتبرنا أنفسنا مميزين وقد سُحق كل واحد بالآخرين في الشاحنة.

زعق السائق:

ـ لا تحدثوا أدنى صوت، لا تنادوني، لا تدقوا على الصفيحة، سووا مشاكلكم بتكتم. إنني أغامر بحياتي كما تغامرون أنتم بحياتكم. بل أكثر منكم. بالنسبة إليكم، إذا ساءت الأمور، تضيعون مالكم

Twitter: @ketab_n

وتعودون إلى بلادكم؛ أما أنا، فالسجن! إذاً سدوا أفواهكم حتى النهاية. إذا احترمتم التعليمات، ستجري الأمور بشكل حسن. من فهموا ليترجموا إلى رفاقهم؛ من مصلحتكم أن تتعاضدوا. إذاً ولا حركة ولا كلمة. وبولوا في زجاجاتكم المائية حين تفرغونها. لن أراكم بعد الآن شأن علب البسكويت، هل فهمتم؟

صُفقت الأبواب وسُجنا في عتمة تامة.

انطلقت السيارة. سمعنا خلال عدة أمتار صيحات توسل هذين المتروكين، غير المرغوب فيهما. ثم لم نعد نسمع شيئاً.

سلك السائق السادي طريقاً محفراً ليروض ركابه. وقد فوجئت أنه، بالرغم من الاهتزاز، لم يكن من الصعب الوقوف في الشاحنة وهي تسير وذلك لالتصاقنا بعضنا ببعض؛ ما كان عسيراً هو التنفس؛ بالرغم من طولي، رحت أمد أنفي على كتف نيجيريٍ قوي.

لم يكن أحد يحتج. لأننا كنا نُعامل كحيوانات، حرصنا على أن نتصرف بشرف كبشر، دون شكوى، ونحن ندبر أمرنا كي لا نُسحَق. بمجمل القول، لم أشعر مطلقاً بهذا القدر من الكرامة إلّا في هذا الوضع المُذِل.

لقد نبهونا إلى أن المسافة ستكون طويلة لكنني أدركت بسرعة أنها ستكون طويلة بشكل لا يُحتَمل. حينما لاحظتُ أن أفراد المافيا لا يحافظون إلّا على جزء من وعودهم، تساءلت متى يحق لنا استراحة قصيرة.

Twitter: @ketab_n

همست لجاري قائلاً:

ـ أتعتقد أننا سنقف في طريقنا.

ـ طبعاً.

ـ آه حقاً؟ إن السائق سيفك جدار علبه ثم سيعيد صفها كي ننشط سيقاننا؟ لم ألاحظ هذه الغيرية في طبعه.

صُدمت من تلك الفكرة، لم يجب جاري. لحسن الحظ تحدثنا بالعربية، وبصوت مكتوم؛ لم يُعدِ شكنا الآخرين، الذين كانوا، حتماً، يكررون خشية مماثلة. كيف نعرف ذلك؟ كنا كلنا صامتين.

يا له من سفر غريب... أتذكر تلك الرحلة كسلسلة من مزعجات عذبتني بشكل متتابع. فالحرارة أولاً. والجوع بعد ذلك. ثم الرغبة في التبول؛ وقد قاومتها طويلاً؛ ولكن حان وقت، بعد أن تحملت تشنجات المعدة، ويبس البلعوم، وقسوة اللسان، والملوحة الهائلة، تحملت التهاباً في المثانة، حتى حين أفرغتها في زجاجتي، كانت لا تزال تحرقني؛ كنت أنتظر أن تبعث رائحة كريهة لأنني أضعت الغطاء، ولكن حدث أن كل واحد منا قد بال طوال تلك الساعات، فبدأت أعتاد عدم شم الروائح مطلقاً.

غمرتنا الساعات الأخيرة من التنقل في الفوضى والبلبلة. لم نعد نعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، كم ساعة مضت على سيرنا. لم أكن أستطيع النوم واقفاً، فرحت أتلو قرآني؛ كان الذين ينامون يتلقون فوراً ضربة تسحق الأجساد عند المنعطفات أو في الشواطئ.

Twitter: @ketab_n

أبطأت الشاحنة مرة جديدة. سمعتهم يتحدثون الإيطالية. استنتجت، وأنا منهارٌ، أننا لم نترك بعد شبه الجزيرة الإيطالية.

أطفأ السائق المحرك. ارتعش بعضهم أملاً.

أجرى السائق حديثاً مع رجال الجمارك. طلب هؤلاء أن يروا ما تحويه الشاحنة. فتح السائق الأبواب نصف فتحة.

ـ كما ترون، لا شيء غير علب البسكويت.

كان يُغلق الأبواب حين أوقفه صوت قائلاً:

ـ انتظر، دعني أرى قليلاً.

وقد أطلق السائق زفرة تململ، فتح أبوابه بشكل أوسع.

تلقينا هواء الليل النضر. لم يتحرك أحد.

ـ اللعنة، تنبعث رائحة كريهة من علب البسكويت!

أطلق رجل الجمارك صرخة عفوية صادقة.

رد السائق قائلا:

ـ على كل حال، لن أبيعها لك. بالمقابل أردت أن أقدم لك منها.

ـ آه كلّا، تنبعث منها رائحة كريهة. ماذا يوجد غير ذلك في شاحنتك؟

ـ آه، ربما ثمة جيفة في قعر الشاحنة، اضطررت أن أحَمّل الشاحنة بسرعة لأنني كنت في عجلة من أمري. نعم، من الممكن أن هناك جرذاً ميتاً في قعر الشاحنة.

Twitter: @ketab_n

ـ جرذ ميت؟ مستعمرة جرذان ميتة، تريد أن تقول. ارفع هذه العلب لألقي نظرة.

ـ اسمع، إنني متأخر. سيقتلني رب عملي إذا لم أسلم البضاعة في الوقت المحدد.

ـ ارفع تلك العلب.

ـ كلّا.

ـ هل ترفض؟

ـ أجل، سأفقد عملي.

بينما تعارك رجل الجمارك والسائق بذراعيهما، حبسنا أنفاسنا. من سيربح؟

فجأة صرخ رجل الجمارك بتعجب:

ـ كلّا، الرائحة النتنة فظيعة، هذا مستحيل.

بحركة نشطة، حاول أن يحرك بعض العلب؛ حينذاك انهار الجدار بكامله ووجدنا أنفسنا وقد أعمانا مصباحه.

ـ اللعنة، ما هذا؟

لم يجب السائق لأنه كان قد أطلق ساقيه للريح.

وقد أدرك رجل الجمارك الوضع، أعطى شارة الإنذار. ركض زملاؤه إلى أسفل الشاحنة.

سلطوا مصابيحهم علينا، ونحن بكم ووجلون. أرعبتهم وجوهنا؛

Twitter: @ketab_n

ذُهلتُ أنا نفسي من سحنة جيراني، بنظراتهم الزائغة، وشعورهم الشعثة والمنهكين والظمآنين والجائعين.

شخَّصَ رجل الجمارك الوضع قائلاً: إنهم مسافرون غير نظاميين.

صاح صوت من أعماق موقف السيارات أن السائق قد نجح في الهرب.

ـ وآسفاه، لكننا نمسك بما هو أساسي.

ما هو مدلول تلك الجملة؟ هل يفضلون أسرنا، نحن المسافرين غير النظاميين، عن أن يقبضوا على عضو من عصابة منظمة تسخر بالقوانين وتبتز الناس غير القانونيين؟ أمن الأفضل إذاً وضع اليد على البؤساء من وضعها على المحتالين الذين يغنون من البؤس؟

ابتدأت بعد ذلك جوقة التعجبات. تعجبوا كيف تبوّلنا على أجسادنا، وكيف تغوط بعضهم في بناطيلهم: فكأنهم يكتشفون فعاليات الإنسان الحيوية، كما يُظن أنهم لا يخضعون لتلك الفعاليات ويُعتَقد كذلك أن روائحنا كانت أكثر تقززاً. أحسست من نظراتهم أنني اخترعت البراز، لا أنني تحملته، كلّا، إنني ابتكرته وإنني مسؤول عنه، والأسوأ من ذلك، إنني مذنب!

حين نقلونا إلى مركز الشرطة، وضعونا في صالات للحمامات الرشاشة، مما أتاح لنا أن نسترجع مظهراً لائقاً. حين رأيت سرورهم عندما عدنا، شعرت أنني إذا كنت قد اخترعت البراز، فإنهم قد أتوا

Twitter: @ketab_n

على اختراع النظافة. لا شك أن هذا الجناح للجمارك كان على موعد مع المخترعين!

ـ يا ابني، لا تنتقدهم، إنهم رجال شجعان يؤدون عملهم.

كان والدي ينتظرني في الممر حيث كنا نسترد صررنا.

ـ أرأيت تصرفهم، يا أبي؟ لأنهم كانوا يتوقعون إيجاد جرذان في الشاحنة، رأوا فينا حقاً جرذاناً. ليسوا متأكدين أننا بشر.

ـ إنهم خائفون.

ـ هل يرعب رجل لم يعد يملك شيئاً؟ كلّا، يا أبي، إنهم لا يرأفون بنا ولا يتعاطفون معنا ولا يتخيلون أنفسهم مكاني، فهم يتفحصونني شأن كائن أدنى منهم. إنني في نظرهم، أنتمي إلى جنس آخر. إنني مسافر غير نظامي، هذا الذي وجب عليه ألّا يوجد، ولا يُسمح له بالوجود. في الحقيقة، إنهم على صواب: لقد أصبحت أدنى من الإنسان لأن لي حقوقاً أقل من الآخرين، أليس كذلك؟

ـ لا تثَرْ ثائرتك يا سعد، إنهم يتصرفون بطريقة أفضل منذ وصولكم إلى هنا.

ـ معك حق. إنهم لطيفون. لطيفون شأنهم مع حيوانات.

ـ هيا، كفى!

ـ أبي، من هم البرابرة؟ هؤلاء الذين نظنهم أدنى؟ أم هؤلاء الذين يظنون أنفسهم أعلى من غيرهم؟

في صباح اليوم التالي، في المهجع حيث وضعنا، ترك حارس

Twitter: @ketab_n

ـ بلا شك خصيصاً لنا ـ الصحافة الإيطالية مبعثرة. فقراءة العناوين، ثم المقالات، أثار ذلك فيَّ غضباً عنيفاً تشنجياً وكاد يخنقني الغيظ الشديد.

كان رجال الجمارك ـ والصحفيون مجمعون ـ يهللون لإيقاف شاحنتنا؛ ويغترون لأنهم انتزعوا من رحلة مُذِلة، ثلاثين رجلاً تكوموا وهم واقفون في أقل من ستة أمتار مربعة، وبينهم سبعة قاصرين في السادسة عشرة من عمرهم، إذا أسفوا لأنهم تركوا المهرب يفلت من أيديهم، لكنهم لا يأسفون على شيء يعنينا لأن مصيرنا قد سوي: شأن كلاب تائهة، قرروا إرسالنا إلى ملاجئ ـ زريبتهم ـ؛ بعض منا يُعادون إلى أصحابهم ـ أي بلادهم ـ إذا تعرفوا إلى هويتهم. لم يكن أحد يدرك أن لا مصيبة بالنسبة إلينا أكبر من العودة إلى البلد؛ لا أحد يفهم أنهم جردونا من مدخراتنا، وكذلك مدخرات أسرنا؛ إنهم لا يتصورون أننا ننقل معنا آمال أهلنا، كلّا، شعروا بأنهم قاموا بواجبهم، ولم يشعروا بأنهم أتلفوا ثلاثين حياة، وخلف تلك الحيوات الثلاثين، هناك ثلاثون أسرة، أي مئتان أو ثلاثمئة شخص كانوا يعتمدون علينا.

مرحى! فالجلادون يحتفلون بشرب الخمر في مكتب الرئيس! أبطال البارحة ابتهجوا لأنهم أدوا عملهم جيداً.

كنتُ مهاناً إلى أقصى حد.

بعد عدة ساعات، حين جاؤوا لإحضاري ليستمعوا إلى أقوالي، لم أهدأ.

Twitter: @ketab_n

ما إن دخلت إلى المكتب، دون أن ألاحظ مع من أتحدث، حتى صرخت بالإنكليزية:

ـ أريد أن أقدم شكوى.

ـ عفواً؟

ـ أريد أن أقدم شكوى ضد رجال الجمارك الذين أوقفوا سفري. أمس مساءً، حرموني من السائق، سُرِقَ مالي، دُمر شغلي الذي قمت به طوال أشهر كثيرة، تبددت جهود ثلاثة أعوام لأصل إلى هذا الدرك.

تأملني الرجل ببزته العسكرية مندهشاً، بعين قلقة، وفم وردي ومشدود شأن برعم وردة، ببشرة سمراء فاتحة، كان يبدو شاباً جداً بقدر ما تسمح وظيفته بعمر فتيٍّ كعمره. شُد قوامه ببزة عسكرية، وبحزام من الجلد يشير إلى ضيق ردفيه، فكان يشبه مراهقاً متنكراً بملابس عسكرية أكثر منه موظفاً لامعاً كان بلا شك. تحدث بصوت رخيم ومتزن وغني وبنبرة واضحة، يتناقض مع اندفاع جسمه الفتي.

ـ آه أجل؟ هل أنت راضٍ على نقلك بطريقة مُذلة، أسوأ من المواشي؟

كان يتحدث الإنكليزية وهو يلفظ الجيم زاياً وبشكل متقطع شأن الإيطاليين، وشأن راقص إنكليزي من وجوه المجتمع، هذا الإنكليزي الذي يلبس حزاماً يجعل خصره نحيلاً، يداعب ردفيه ويدور على ذاته في كل جملة. ودون أن أشتت انتباهي، تابعت هجومي قائلاً:

Twitter: @ketab_n

لم يضعني أحد عنوة في تلك الشاحنة، لقد قبلت ذلك! بالمقابل إذا طال أمد هذا التوقيف وإذا انقطع سفري، أصبح حينئذٍ ضحية!

انفجر ضاحكاً.

كأن دخولي تحولَ إلى مقدمة مسرحية، رجاني أن أجلس وذهب هو ذاته ليجلس خلف حاسوبه كي يبدأ الاستجواب. أوقفته على الفور قائلاً:

ـ إن استجوابك لن يُجدي نفعاً.

ـ آه، حقاً؟

ـ منذ عدة سنوات، تعرضتُ لأعداد كبيرة من المقابلات شأن تلك التي ستكابدني إياها ولم يجدِ ذلك نفعاً على الإطلاق. لابد أنني أجيب بطريقة سيئة لأن الباب يُغلق دائماً أمامي.

ـ أو تجيب بشكل جيد لأنهم لم يعيدوك إلى بلدك.

ابتسم لي. فخفضت عينيَّ. بدا لي هذا الموظف غير النموذجي أشد ذكاءً من هؤلاء الذين التقيتهم في المرات الأخيرة. هل هذا طالع حسن أم نذير شؤم؟

ـ ما اسمك؟

ـ أوليس.

ـ عفواً؟

ـ أوليس. أحياناً أدعى أيضاً «لا أحد». لكن لا أحد يناديني «لا أحد».

Twitter: @ketab_n

على كل حال، لا أحد يناديني.

فرك ذقنه.

ـ حسناً، أدرك ذلك. من أين أنت قادم؟

ـ من إيتاك.

ـ من العراق؟

ـ كلّا، من إيتاك. حيث يأتي كل الأشخاص الذين يُدعون أوليس.

ـ أين يقع هذا البلد؟

ـ لم يعرف أحد ذلك مطلقاً.

ضحك بعذوبة. حدقت حينذاك إلى عينيه.

ـ لا تضع وقتك. لن أقول لك اسمي ولا جنسيتي مطلقاً. أستطيع أن ألوذ بالصمت طوال أشهر، ولقد أثبتُّ ذلك. لن تكونَ الرابح كما لن أكونه قط. يبدو أن هذه هي الحرب الحديثة، حرب بلا منتصرين ولا مقهورين. إنها مجرد الحرب.

ـ ماذا تقوله أيضاً؟

ـ لم أعد أتحمل الاستجوابات. لا أستطيع الامتناع عن التفكير في أن المجرمين هم الذين يُستجوبون بتلك القسوة.

ـ من يُثبت لنا بأنك لست مجرماً؟

ـ إنني حالة لا ينص عليها القانون، لكنني لست ضد القانون.

ـ أخشى أن أكون قد أحسنت فهمك تماماً.

Twitter: @ketab_n

رفعت حاجباً، أرسلت لي عينه نظرة تعاطف عميق، ملموسة. فجأة، وقد اضطربت، أوقفت مناجاتي.

نهض، وقدم لي سيجارة رفضتها؛ أشعل واحدة له وسحب نفساً بمتعة. فكرت بليلى حين رأيته يستمتع بالتدخين، فلاحت على وجهي بسمة خفيفة. بعد عدة نفحات، التفت إليَّ قائلاً:

ـ إنني أحب مهنتي، يا سيدي، لأنني أحب محاربة الجريمة. لكنني، أمامك، لا يُخيل لي أنني أمارس مهنتي. عدا أنني أضيع وقتي وأضيع إيماني... أجل إيماني بواجبي!

انفرجت أساريره، فكاد أن يكون جذاباً.

ـ إنك لا تحبذ ذلك، أن أفقد إيماني؟

ارتجفتُ. إلى أين أراد أن يصل؟

ـ فكر، سيدي، أن الحدود، ما دامت موجودة، يجب احترامها، وفرض احترامها على الآخرين. ولكن يحق لنا أن نتساءل لماذا هي موجودة. وهل تصلح كحل جيد للمشاكل الإنسانية؟ هل إقامة حدود هي الطريقة الوحيدة للناس ليعيشوا معاً؟

دُهشتُ من مجرى الحديث بيننا، فأجبت مع ذلك:

ـ حتى الآن لا يوجد طريقة أخرى.

ـ وإن كانت هي الطريقة الوحيدة، هل هي الجيدة؟ إن التاريخ البشري هو تاريخ حدود تغير مواضعها. ما هو التقدم إن لم يكن ندرة الحدود؟ منذ آلاف السنين، كانت تنتصب الحدود على باب كل قرية،

Twitter: @ketab_n

فكانت حينذاك كثيرة جداً؛ ثم توسعت لتطوق قبائل وأعراقاً وشعوباً؛ فراحت تندر وصارت مرنة، فحددت بعد ذلك مجموعات كثيرة في فسحة أمة. وبشكل أحدث، تجاوزت الأمم، سواء عن طريق الفيدرالية شأن الولايات المتحدة، أو بالمعاهدات شأن ما شكل أوروبا. فبحسب منطق جيد، يجب الاستمرار في ذلك. مهنتي عبثية، ليس لها مستقبل. ستختفي الحدود، أو ستمتد لتشمل أراضي أوسع.

ـ وما سيكون حدها؟

ـ القارة.

ـ لن يبقى إلّا الحدود الطبيعية، حدود البحر وحدود الأرض؟

ـ أجل.

ـ لكن الناس يحتاجون مع ذلك ليقولوا «نحن» ليثبتوا وجودهم: نحن الأميركيين، نحن الأفارقة، نحن الأوروبيين.

تساءل الضابط قائلاً:

ـ ألا يستطيعون محاولة قول «نحن الناس»؟

ـ إذن سيكون ذلك ضد الحيوانات.

ـ في تلك الحالة، لاحتوائهم أيضاً، قد يسعون إلى القول» نحن الكائنات الحية»؟

ـ حضرة الضابط، إنك حالم كبير، عليك أن تغير وظيفتك: وزارة العدل تلائمك أكثر من وزارة الدفاع عن الأرض!

Twitter: @ketab_n

بدا قد استيقظ، وبانزعاج، انفجر ضاحكاً بشكل أخرق. وقد جلس على الطاولة، انحنى عليَّ.

ـ في نظري، لستَ منبوذاً.

ـ هذا هراء! إذا قفزتُ من النافذة، فستطلق النار عليَّ.

تراجع، مدهوشاً.

ـ هل فكرتَ في ذلك؟

ـ أنك ستطلق النار عليَّ؟

ـ كلّا، أن تقفز من النافذة؟

ـ أجل.

أدار رأسه نحو الفتحة التي تقع على مترين من مكتبه. راحت أصابعه تنقر على الطاولة. ألححت قائلاً:

ـ لم تجب عن سؤالي. هل ستطلق النار عليَّ؟

رجع نحوي وقد استدار حاجباه.

ـ ما هو رأيك؟

ـ تفحصنا بعضنا بعضاً مطولاً. أجبت بحذر:

ـ حسب رأيّ، كلّا.

أضاف بالقدر عينه من الحذر:

ـ أنت على صواب.

خفضنا كلانا أجفاننا. بعد فترة، تابعت الكلام:

ـ خذ إذاً احتياطاتك: أغلق النافذة.

Twitter: @ketab_n

حدق إليَّ. لحظة. وأطلق من طرف شفتيه:

ـ أشعر بالحرارة.

لم أجرؤ تماماً على فهم الرسالة. راح دماغي يرتاع.

ـ إذا هربتُ، أين سأذهب؟

ـ لست أدري.

ـ لو كنتَ مكاني؟

ـ أنا، أقطع الحدود سيراً على الأقدام، متسلقاً الجبل. لن يكون هناك رجال جمارك في المراعي الجبلية.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ أجل. من الغباء أن تسلك الطَريق العادية وأن تظهر في مخفر جمركي. أخيراً، يجب ألَّا أقول ذلك، لأنني أخرب مهنتي... لكن ابقَ منطقياً: لا تستفزنا حيث وجدنا، تجنبنا بذهابك حيث لا نكون. أليس كذلك؟

سجلت بشغف ما اقترحه عليَّ.

ابتسمتُ. ابتسم هو أيضاً. ثم رفع عينيه إلى السقف وتنهد، بسخط:

ـ كم الطقس حار! هذا لا يُحتمل!

اتجه نحو النافذة، فتحها أوسع مما كانت عليه، ثم ألقى نظرة إلى الخارج.

تمتم قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ حقاً، يا للغرابة: لا أحد هناك!

بكل عفوية، عاد خلف مكتبه واستغرق في قراءة التقرير كأنه نسيني.

ترددت.

لكي يُشجعني، نظر إلى الثريا وتثاءب.

دون أن أنتظر ثانية أخرى، قفزتُ من فوق الدرابزين ووضعت قدميَّ أسفل الطابق، على الباحة المزفتة.

لمحت باب الخروج في آخر موقف السيارات، فركضت.

حين وصلتُ إلى الشارع، استدرتُ مع ذلك.

لمحتُ خياله في فتحة النافذة: وهو يدخن بهدوء، كان ينتظر بصبر أن أختفي لينذر الحرس.

Twitter: @ketab_n

١٣

حين استيقظت ذاك الصباح، متكوراً في قعر حفرة بين حقلين، وقد تبلل جسمي بالندى، ظهرت لي الأشياء بوضوح بينما كنتُ أحدق إلى السماء. يناضل الإنسان ضد الخوف، ولكن، خلاف ما يُكرر دائماً على مسامعنا، ليس هذا هو الخوف من الموت، فكثير من الناس لا يشعرون بالخوف من الموت، لأن بعضهم ليس لديهم أدنى خيال وبعضهم يظنون أنهم خالدون، ويأمل آخرون لقاءات عجيبة بعد موتهم؛ إن الخوف الأوحد الشامل، الخوف الوحيد، هو الذي يُسيِّر كل أفكارنا وهو الخوف من ألّا نكون شيئاً. لأن كل فرد قد أحسه ولو لثانية طوال يوم: أن يُدرك الإنسان، أصلاً، أنه لا ينتمي إلى أية هوية من الهويات التي تحدده، ومن الممكن ألّا تكون له أية صفة من الصفات التي تميزه وأنه على قيد شعرة لأن يكون قد ولد في مكان آخر وتعلم لغة أخرى وتلقى تعليماً دينياً مختلفاً وتربى في ثقافة أخرى وتعلم في إيديولوجية أخرى مع والدين آخرين وأوصياء آخرين ومثل عليا مختلفة. هذا يثير الدوار!

Twitter: @ketab_n

أنا، المسافر غير النظامي، أذكِرُهم بذلك. الخواء. كيف شكلتهم الصدفة. كلهم. من أجل ذلك يكرهونني. لأنني أتسكع في مدنهم وأقيم عنوة في أبنيتهم التي لم تكن مهيأة لذلك ولأنني أقبل العمل الذي يرفضونه، أقول للأوروبيين إنني أود أن أكون مكانهم وإن الامتيازات التي منحهم إياها القدر الأعمى، أتمنى أن أحصل عليها؛ أمامي، يدركون أنهم محظوظون وأنهم سحبوا الرقم الرابح وأن شفرة المقصلة القاتلة قد مرت على مستوى الأرداف، وأن مجرد تذكر تلك الهشاشة الأولى المكِونة لهم تجمدهم وتشلهم. لأن الناس يسعون، لينسوا هذا الخواء، أن يُعطوا لذواتهم التماسك والاعتقاد أنهم ينتمون لأسباب عميقة، ثابتة، إلى لغة، إلى أمة، إلى منطقة، إلى عرق، إلى أخلاق، إلى تاريخ، إلى إيديولوجية، إلى دين. لكن، بالرغم من تلك التمويهات، في كل مرة يحلل الإنسان نفسه، أو في كل مرة يقترب منه مسافر غير نظامي، تنمحي الأوهام ويرى الخواء: من الممكن ألّا يكون هكذا، ألّا يكون إيطالياً، ألّا يكون مسيحياً، ألّا... فالهويات التي يجمعها والتي تعطيه كثافة وثقلاً، يعرف في قرارة ذاته أنه اكتفى بتسلمها ثم بنقلها. إنه ليس إلّا الرمل الذي سُكب فيه؛ في حدّ ذاته، هو لا شيء.

وقفتُ فتخلصتُ من سوق العشب الذي التصق بقميصي وقررت ألّا أنتظر لأتصرف.

تسلقت حاجزاً، فوصلت إلى ساحة يستريح فيها سائقو السيارات،

Twitter: @ketab_n

تقع بين محطة لخدمة السيارات وفندق صغير؛ كنت مقتنعاً أن عليَّ أن أختفي قبل أن يجدني رجال الشرطة، درست الوضع.

فالرحيل سيراً على الأقدام، حسب اقتراح الضابط يفترض أن أحصل على مخطط وأن أمشي أياماً كثيرة: هناك فرص كثيرة للتعرف إليَّ. أليس ثمة طريقة مختلفة؟

وقد جلست بين الأدغال، على تلة صغيرة من التراب تطل على موقف السيارات، أدلك قدميَّ كي أحسن التفكير.

ـ أتتذكر، يا ابني، حادثة أوليس والخراف؟

ـ عمت مساءً، يا أبي. إنني سعيد برؤيتك لكن الساعة ليست ملائمة للأدب.

إن الأدب أكثر فائدة مما تتصوره. كيف كنتُ أغريت أمك لو لم أسمعها قصائد الحب؟ لو لم أتعلم في الكتب أن أعبر عن مشاعري؟ ولو لم يكن لديَّ دائما ألف حكاية أهمسها لها؟

ـ لا يهمني ذلك! ميزات الأدب في حياة الزوجين هي موضوع غريب لا يفيدني في شيء اليوم.

ـ يا ابني، لا تفهم والدك مطلقاً. قد أتيتك بحل وأنا أذكر أسطورة أوليس والخراف.

ـ ما هي تلك الأسطورة؟

ـ كلّا، فات الوقت. أقنعتني أنني أزعجك.

ـ أبي، كفاك دلالاً! اروِ لي القصة.

Twitter: @ketab_n

ـ لم يكن أوليس الداهية يعرف كيف يخرج من المغارة حيث كان محبوساً مع رفاقه. لأن العملاق (السيكلوب)، الأعمى(*) كان يتحسس حيوانات قطيعه حين تخرج من عتبة المغارة ليتأكد من أنَّ لا أحد من سجنائه يركب عليها. خطرت لأوليس فكرة ربط كثير من الخراف بعضها ببعضٍ وانزلاق كل يوناني تحت بطونها.

كان السيكلوب يتلمس بيده ظهور الحيوانات، وهكذا ترك طاقم سفينة أوليس يهرب.

كانت تحتنا، وقد تعرفنا إليها بسبب الثغاء الضعيف الذي يقطع ضباب الفجر، شاحنة غُطيت جزئياً تحوي قطيعاً من النعاج التصقت بها بعض حزم من القش. ترك السائق سيارته ليذهب إلى المراحيض.

ـ شكراً، يا أبي: لقد فهمت!

ـ آه أخيراً! تنهد وهو يختفي في الغيوم.

نزلت، مسرعاً، نحو الشاحنة، وبدون تردد انزلقت تحت القاعدة، ثم زحفت بين العجلات. حين وصلت إلى المركز، تعلقت بالمحور وثبتُّ قدميَّ؛ حينذاك استعملت حزامي ليساعدني على تثبيت جذعي ملتصقاً بالسيارة، بالضبط فوق الأرض، دون أن أعتمد على قوة ذراعيَّ وحدها.

حين عاد السائق، تسلق بين الحيوانات.

(*) Le Cyclope، كان هذا العملاق بعين واحدة فقأها له أوليس، وردت تلك الحادثة في الأوديسة. (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

ـ إذاً، العنزات؟ هل أنتن بخير؟

سمعته ينبش فوقي.

بعد حشرجة عميقة، نزل ثانية. انتظرت بقلق لحظة ركوعه ليفاجئني ولكنه، بعد أن دخن سيجارة، سحق عقبها وصعد ثانية إلى كرسي القيادة وانطلق.

شكرت والدي بفكري، لاقتراحه عليَّ حيلة أوليس، لأنني، بدون قصته، رضيتُ أن أختبئ بين الماشية.

بقي لي أن آمل من الآن فصاعداً أن يسلك طريق فرنسا وليس جنوب إيطاليا. بما أن موقف السيارات كان يلتقي في الاتجاهين، لم أستطع التأكد من ذلك مسبقاً، وحيث كنتُ، ملتصقاً على اللوح كي لا أقشط ظهري في الطريق، لم أرَ أية لوحة.

سرنا بعض الوقت، أبطأ وسمعته يتناقش مع رجال الجمارك، دون أن أفهم الكلمات بسبب هدير المحرك.

لم أعرف إن كنتُ سأغتبط: فمن جهة، كان يشير ذلك إلى أنه يقود في الاتجاه الصحيح؛ من جهة أخرى، ربما أشار ذلك إلى نهاية الرحلة. لماذا كان يناقش؟

طلب منه رجال الجمارك التقدم نحو الحافة وإيقاف المحرك.

ـ ماذا؟ تريد أن ننظر ما عندك، هناك في المؤخرة؟

ـ إنها مهنتكم، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ أجل، لكننا نحن، رجال الجمارك، الذين نختار أن نوقف تلك السيارة أو تلك.

ـ فتشوا لأنني على حذر منذ العام الفائت.

ـ ما الأمر؟ ماذا حدث؟

ـ ألم يروِ لكم زملاؤكم؟ تسرب ثلاثة زنوج بين الحيوانات التي أنقلها. يا للموقف الملتبس! ظنوا أنني كنت متواطئاً معهم! أوقفْتُ، استجوابات، تهديدات، إلى آخره! ذهبوا إلى بيتي، استجوبوا أسرتي، دققوا حسابي المصرفي، تأكدوا من أنني مغفل فقير وشريف! آه كلّا، كدت أصاب بانهيار عصبي، شكراً! إذاً الآن، أفتش بنفسي ثم أطلب أن تفتشوا من جديد.

صعد رجلا جمارك الدرابزين وغاصا بين الحيوانات التي غضبت من هذا التدخل. فتشا بسرعة.

ـ حسناً! ليس هناك مشكلة.

ـ شكراً، أيها الشباب. إلى اللقاء.

انطلقت الشاحنة من جديد.

تجرأت بصعوبة على تصديق اجتيازنا الحدود.

اتخذت الشاحنة مسيرة أكثر سرعة، فكانت أكثر تأثيراً عليَّ لاسيما أن الأرض راحت تهرب على بعد عدة سنتيمترات مني. كنتُ أخشى، في كل لحظة أن تسير الشاحنة فوق صخرة، أو جيفة حيوان، أو شيء ألقيَ من حمولة يمزق حينذاك ظهري.

Twitter: @ketab_n

تتابعت الأنفاق برائحتها الكريهة والخانقة؛ فبالإضافة إلى التشنجات، شعرت بصعوبة في التنفس.

كم سيستغرق هذا الوضع المزعج من الوقت؟ أحسست أنه يصعب عليَّ الاستمرار طويلاً في تلك الوضعية... لاسيما أن السائق قد اختار من الآن فصاعداً مساراً ـ لا شك أنه طريق خاص للسيارات ـ يجنبه التوقف والإشارات الضوئية الحمراء.

ما العمل؟

توقف فجأة ودفع رسم المرور ورحل في دروب أكثر تعرجاً تقطعها مفارق طرق. بدأت أسترجع الأمل. نزل الغسق. علَّ إحدى الإشارات، في تقاطع، تستغرق وقتاً طويلاً...

ما إن سنحت الفرصة حتى فككت رباط حزامي وانفككت من قاعدة الشاحنة.

انطلق من جديد حين كنت سأنتهي من عملي، وقعت على ظهري، لم يتسع لي الوقت لأتدحرج على جنبي.

وقد مر فوقي، كشفت لي الشاحنة السماء المرصعة بالنجوم.

ابتسمت.

لقد نجوت. إنني حر. كنت في فرنسا. والليل يتلألأ.

انزويت في الحفرة ورحت أصرخ فرحاً، دون أن أستطيع التوقف.

في هذه القصة، غالباً ما شكوت من سوء حظي، سوء حظ ولادتي، سوء حظ لتاريخ سياسي وعسكري مأسوي، سوء حظ من

Twitter: @ketab_n

الرصاص والقذائف العمياء، بمجمل القول، لقد ندبت حظي مراراً وتكراراً حتى إن من واجبي الآن أن أعلن أن القدر قد ظهر كريماً معي.

بعد يومين من المشي، وقد هدني الجوع، دخلت قرية حدودية كي أرطب وجهي في ينبوعها حين لفتت نظري لوحات غريبة.

«فلنناضل لتنظيم وضع من لا يحملون أوراقاً ثبوتية»، «احتلال كنيسة القديس بطرس»، «إضـراب عن الطعام لتخفيف القوانين الجائرة».

فوق كنيسة من الحجارة القاتمة، كان متظاهرون ببناطيل من الجينز وقمصان قصيرة يرفعون شعارات، ويهزون لافتات وينادون المارين. بالرغم من رداءة لغتي الفرنسية، فهمت بسرعة أن هؤلاء يناضلون ضد الحكومة ليحصلوا على تنظيم وضع بعض الأجانب الذين التجأوا إلى موْهِف الكنيسة، وقد اختاروا الموت عطشاً وجوعاً. أمام رواق الكنيسة، كان المناضلون يُبعدون قوى النظام التي تريد أن تقصي المضربين ليس عن المكان المقدس وحده ولكن عن فرنسا.

راقبت من يقود الجماعة إلى أن استدللتُ على شخص يُدعى ماكس، وهو رجل ضخم، كثيف الشعر، ذو لحية، صلب، في الثلاثين من عمره يحمل حلقة من الفضة في أذنه اليمنى.

حين تخلت قوى النظام عن هجومها ورجع رجال الشرطة إلى سياراتهم، اندفعت نحوه وتأبطت ذراعه.

Twitter: @ketab_n

ـ أتتحدث الإنكليزية؟

ـ قليلاً.

دون أن أنتظر، بطريقة ملحة، تكاد تكون جنونية، رويتُ له قصتي. أصغى إليَّ، وقد اتسعت قزحيتا عينيه اهتماماً. ثم بتعابير تقريبية تتعثر بمفردات فقيرة، نبهني إلى أنه سيهتم بي. بعد أن أعلم بعض رفاقه، اعتذر عن تشويهه لتلك اللغة التي لم يرغب في تعلمها مطلقاً، بالرغم من موسيقى الجاز والسينما، لأن اللغة الإنكليزية بدت له، بسبب السياسة الخارجية لأميركا، لغة المستبد.

في ذاك المساء، نمت في بيته، في السقيفة، فوق أولاده الخمسة.

في الأيام التالية، سعت زوجته، أوديل، بحماسة أن تغذيني، لأنني منذ مرحلتي الإيطالية، كنت أكثر هزالاً من المألوف.

لن أقول شيئاً عن الرابطة التي كان ينتمي ماكس إليها، فهي لا تزال موجودة وتنقذ عشرات الرجال مثلي، وكذلك النساء والأطفال؛ يعتمد نجاحهم على تكتمهم كما يعتمد على شجاعتهم لأنه هو وزملاؤه يتحدون قوانين بلادهم ويدافعون عن فكرة العدالة التي تتجاوز الحق الذي يعتبرونه سيئاً.

أخِذْتُ تحت أجنحتهم الحامية لي، فأكلت وربحت بعض قطع من الأورو أرسلتها فوراً إلى والدتي.

ذات يوم، أخرجني ماكس من نومي بابتسامة كبيرة.

Twitter: @ketab_n

ـ سعد، خذ صرتك، سأصحبك إلى الألزاس، عند الدكتور شويلشر، عمدة الموتى.

ـ عمدة الموتى؟

ـ إنه واحد من دعائمنا في الشمال، وهو عضو مؤسس لرابطتنا. سيسهر عليك.

لم أجرؤ على الإلحاح في السؤال كي لا أبدو أبله. عمدة الموتى؟ وسيسهر عليَّ؟ ماذا يعني ذلك؟ هل يحوي تهديداً ما؟...

من رفق ماكس وارتياحه، استنتجت أنني أتوه. نسيت كلماته وقررت أن أحافظ على ثقتي به. على كل حال، هل كان لي الخيار؟

قطعنا فرنسا ونحن نصعد من الشرق.

لا شك أنها كانت أول دولة أوروبية أقطعها، وقد التصق أنفي بالزجاج، لم أكن أستطيع أن أصدق أن بلداً يمكن ان يكون بهذه الخضرة، ولا أرضاً تزرع زراعـات متنوعة، دسمة، غنية، رطبة، وافرة، كما لم أستطع تصور مشهد يجمع كل تلك القصور وأجراس الكنائس والغابات. بعد عدة ساعات، حسدت القطعان التي تجاوزناها والبقرات غير المكترثات على سجادة العشب الغزير والأحصنة البدينة، والخراف السمينة جداً وكلها لا مبالية. وكلب المزرعة في تلك المملكة الفخمة بدا لي يُحسد على وضعه.

في الطريق، التقينا بسيارات لم أرَ مثلها قط، فهي حديثة وفسيحة وأكثر نظافة من تلك التي في الشرق الأوسط، فهي أكثر جدة وأكبر

Twitter: @ketab_n

سرعة؛ كانت الطرق المعبدة، على عكس ما كان عندنا، لا تتلف أطر الدواليب، لأنها طويلة وملساء وسوية ومنظفة وقد تخلصت من الحجارة والحفر؛ بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عوائق دائمة على جانبي الطريق.

سألت قائلاً:

ـ هل كل فرنسا هكذا؟

ـ ما معنى هكذا؟

ـ فخمة شأن ملكية مستبد؟

استدار ماكس نحوي ونظر إليَّ بجدية.

ـ إنها ملك الشعب.

هززت رأسي بسرعة، متمنياً أن يحدق بالطريق بدلاً من التحديق إليَّ. حين تحول ثانية إلى سائق يقظ، سألته أيضاً قائلاً:

ـ إذاً، إن شعباً على هذا القدر من السعادة عليه ألَّا يشكو مطلقاً؟

انفجر ماكس بالضحك.

ـ إنه يشكو ويتذمر طوال الوقت.

هززت رأسي، وقد عدلت عن الفهم. كانت قطارات على شكل مغازل تثقب الريف أحياناً بسرعة خارقة. وطائرات تشبك أذيالها القطنية في سماء لا متناهية. وشاحنات عملاقة تتتابع، هادئة، متواطئة.

ـ هل الوضع كل يوم هكذا؟

ـ كيف هكذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ كل هذا القدر من الناس على الطرقات؟

ـ اليوم، الوضع هادئٌ.

شككت أن ماكس يسخر مني.

أرخى الليل سدوله وبانت بقية الرحلة أكثر روعة. بما أنه قد ترك طريق السيارات العريض، راح ماكس يقطع قرية تلو قرية، وكلها أنيقة، حسنة الترتيب، ذات لافتات تعلن عن أسمائها وتحيي القادمين بساحات صغيرة مزهرة. كنت أود التوقف في كل قرية منها، وأوقف حركة الباعة الذين يسدلون الستارة الحديدية على واجهات براقة، وأن أقفزَ إلى داخل المنازل التي يُضيئها نور ذهبي وأعبر الستائر لأصبحَ ولد تلك الأسرة، وأخاً لتلك العائلة فأجلسَ في طرف تلك الطاولة المليئة وأحلّ مكان الرجل الذي يُغلق مصاريع نوافذه ليعود إلى كتبه، وألاقي تلك المرأة التي تفكر في مقعدها الأرجواني اللون بالقرب من باقة من الزهور.

توقف ماكس في ثلاث قرى ليسلم إلى أعضاء رابطتهم مستندات سرية.

كان يتركني، كل مرة، في الساحة الرئيسة ويختفي؛ فأستفيد من ذلك لأشم الهواء وأنظر فيما حولي.

في القرية الثالثة، حين كنت أغسل يديَّ في نبع من الحجر القشدي اللون، انزلق أبي بالقرب مني وصفَّر إعجاباً:

ـ حرية، مساواة، أخوة. أرأيتَ، يا ابني؟

Twitter: @ketab_n

ـ مم؟ عن أي شيء تتحدث؟

ـ حرية، مساواة، أخوة.

ـ هل هي أغنية؟

ـ كلّا، منذ الصباح، أقرأ ذلك في كل مكان، على واجهات المنازل، وعلى زخارف الأبنية وعلى الأنصاب التذكارية وعلى التماثيل. حسناً، ليس هذا إلّا شعاراً، موافق، لكن الناس الذين يطالبون به لا يمكن أن يكونوا أشراراً.

ـ إنهم يبالغون في ذلك. شأن البائع في سوق يصرخ أنه يبيع الأقمشة الأجمل والأرخص. إنه لا يؤكد ذلك إلّا لأنه كاذب.

ـ لا علاقة لدستور الجمهورية بتصرفات السوق، يا ابني، إنك تتوه!

ـ ألم يرفع الفرنسيون هذا الشعار حين غزوا العالم ليؤسسوا إمبراطوريتهم الاستعمارية؟

ـ في الجزائر، في المغرب، في السينغال، في آسيا؟ ربما أنت على حق. ـ إذاً «حرية، مساواة، أخوة» تعني بلا شك أننا أحرار في غزوكم، سنكون متساوين وإن كان بعضهم أكثر مساواة من غيرهم، ستكونون إخوة لنا حين يجب علينا أن نذهب معاً إلى «مجزرة الحروب».

ـ آه، أجدك متشائماً.

ـ يقبع الكذب في التعبير الثالث، «أخوة». لإقامة أخوة يجب تقرير من يشكل جزءاً منها، ومن ليس منها. فحين تُحدد مجموعة أفراد

Twitter: @ketab_n

متعاضدين سيتساعدون مهما حدث، يجب كذلك تحديد هؤلاء الذين يُقصون ولا ينتمون إلى المجموعة. بمجمل القول، يجب رسم حدود. فبمجرد أن تقول «أخوة» فإنك تناقض «مساواة»، يلغي التعبيران بعضهما بعضاً! نعود دائماً إلى تلك النقطة: الحدود. لا يوجد مجتمع إنساني دون رسم حدود.

تنهد والدي، بانزعاج وختم كلامه قائلاً:

ـ لم يكن على الإنسان أن يصبح حضرياً، كان عليه أن يبقى بدوياً، وهكذا لما وجدت الحدود.

ـ كلّا، يا أبي، هناك حروب بين الشعوب البدوية الرحالة بقدر ما هي بين الشعوب الحضرية.

ـ إذاً من أين تأتي الحروب؟

ـ يكمن أصل الصراعات في «نحن» لمجموعة ضد أخرى، هذه «نحن» تعبّر عن هوية ويبرر مهاجمة الهويات الغريبة عنه.

ـ إنك لا تلفظ «نحن» مطلقاً، أنت؟

ـ بلى، لكنني لا أريد أن أشكل «نحن» مع أي شخص. أنت، يا أبي، حين تصرخ «نحن»، تفكر بشعب العراق؛ حين أتمتم «نحن»، أفكر بأسرتي. أشعر بأنني مدين كثيراً لأسرتي، وليس للعراق. أريد التعرف إلى ديوني لكنني أحاول ألّا أخطئ بالمَدين. ماذا يُقدم لي بلدي؟ ماضياً مأسوياً وحاضراً فوضوياً ومستقبلاً غامضاً. شكراً. لقد فهمت، لا أنتظر شيئاً منه، ولا أدين له بشيء. بالمقابل إنني أدين لأهلي.

Twitter: @ketab_n

ـ إذاً لن تعود عراقياً؟

ـ أحاول ألّا أكونه.

ـ عندك مفهوم ضيق جداً عن جذورك!

ـ أنت، كان عندك مفهوم في منتهى الفساحة حتى إنك مُت منه.

ـ بمجمل القول، إنك تحلم بأن تكون بلا وطن؟

ـ كلّا، لا أحلم بألا أكون بلا وطن، أحلم أن يكون العالم كله وطني. أحلم بأن «نحن» التي سألفظها يوماً تصبح جماعة الناس الأذكياء الذين يسعون إلى السلام.

ـ حكومة عالمية؟

ـ صه، هذا ماكس!

إثر عودته، دخل ماكس بسيارته في غابة.

هنا، صارعتُ خوفاً غريزياً. انتصبتِ الأشجار عالياً فجعلت تلك العتمة التي هي بلون الحبر مثيرة للقلق حتى إنني أحسست أنني صغير كطفل في حكاية. أنارت أضواء السيارة بشكل خاطف الحفر والأدغال التي تنبثق منها حيوانات بعيون وجلة. فسمعت في الخارج نعيقاً، وشكوى مؤثرة.

توقف فأزت أطر الدواليب على الحصى.

أطلق زماميره.

بعد عدة ثوان، ظهر منزل أمامنا. فصاحب البيت الذي أضاء المصابيح الخارجية، ارتسم خياله أمام الباب.

Twitter: @ketab_n

صاح رفيقي قائلاً:

ـ مرحباً، يا شويلشر، هنا ماكس!

فتح المضيف ذراعيه، فتعانق الصديقان.

قدمني ماكس إلى الدكتور شويلشر.

ـ هذا هو سعد سعد الذي جاء من العراق والذي أعهد به إليك.

ـ طاب يومك، يا سعد سعد. أتسمح لي أن أدعوك سعد؟

ـ طبعاً.

انفجر الرجلان بالضحك. أما أنا فكنتُ أعاني البرد.

نظر ماكس إليَّ بتعاطف.

ـ لقد استخدم سعد عينيه كثيراً طوال الرحلة حتى إن عليه أن يطبقهما. إنه يموت من النعاس.

كان على صواب، كنتُ منهكاً. قادني ماكس إلى غرفتي بينما وضع الدكتور شويلشر في صينية طعاماً لي.

قال لي وهو يحمله إليَّ:

ـ لا تتردد في تناول طعامك في السرير. ارتح.

تركاني وحدي في الطابق وشرعا في الشراب في المطبخ؛ بالرغم من أن صوتيهما يصلان إلى مسمعي، لكنهما كانا يتحدثان بسرعة كبيرة حتى إنني لم أفقه شيئاً؛ في النهاية، ما إن قشطت آخر فتات من صحني ورفعت إصبعي إلى فمي حتى نمتُ.

Twitter: @ketab_n

لم أتعرف إلى الدكتور شويلشر إلّا في اليوم التالي. كان ماكس، دون أن يوقظني، قد غادر منذ الفجر.

طلبت من الطبيب أن يسامحني على إرهاقي ليلة البارحة. رفع كتفيه وسألني:

ـ أتفضل الشاي على القهوة؟

ـ نعم، شكراً.

اغتبطت أن مضيفي لم يجبر الشرقي الذي كنته على شرب هذا السائل الحامض الذي يعشقه الأوروبيون؛ كنتُ مرغماً على شربه خلال رحلتي الإيطالية، لكنني لم أستطع أن أستطيبه قط، كان الأدب وحده يمنعني في كل مرة من أن أبصقه.

ـ أعتقد أنك تحبه حلواً؟

ـ إنني مندهش من رؤية الأوروبيين يضعون قليلاً من السكر في مشروباتهم.

ـ لحسن الحظ! إنهم يستهلكون قدراً كبيراً من السكر في الكحول وفي الخمر. في الواقع، كيف حالك؟ إن الطبيب هو الذي يطرح السؤال.

ـ إنني لا أطرح على نفسي هذا السؤال مطلقاً.

ابتسم وهو يفكر.

ـ فلنخرج، هل تريد؟

أعارني شويلشر معطفاً، ووشاحاً، وجزمة واجتزنا الباب.

Twitter: @ketab_n

كانت المناطق المجاورة لا تشبه ما رأيت مطلقاً ـ أو بالأحرى ما لم أرَ ـ الليلة الماضية. فحول المنزل وخلف الجدار الصغير المنخفض الذي يعزله، تمتد إلى ما لا نهاية حقول من القبور.

دخلنا في أقرب فرجة لمكان الصلبان البيض. بدا المشهد أنيقاً ومتناظراً ومرتباً وينبعث منه تناغم قوي. أجل، هذه الصيغة المخصصة لهم تعبر هنا بشكل بليغ «الموتى يرقدون بسلام» ولقد شعرت بذلك بشكل محدد. فالنظام والتناسق يؤكدان على المساواة في الموت. لا يتميز أي رجل في تلك المقبرة العسكرية، ولا يتجاوز أي رأس غيره سواء أكان أقوى أو أغنى أو أعلى مرتبة.

شرح لي شويلشر أن ستة وعشرين مليون قذيفة قد سقطت بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى. أي ست قذائف في المتر المربع. هذا الطوفان من الحديد والنار قد أحدث سبع مئة ألف ميت. ولا أعد القرى التي هُدمت والتي لم يعد بناؤها ولا العتاد الحربي الذي لم ينفجر والذي لا يزال يلوث التربة. إن غالبية الرجال المدفونين هنا كانوا شباباً، نشيطين، مفعمين بالقوة. لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير اليوم من أن العشب بالغ الخضرة لهذا السبب، كأن النبات يستمد حيويته من الأجساد القوية التي توجد تحته.

تأملتُ جيش الصلبان، المصطفة بدقة، واقفة، نظيفة، بهيئة نظامية، وفكرت أن الجنود، وإن كانوا موتى، يقفون إلى الأبد بوضعية الاستعداد.

Twitter: @ketab_n

تابع شويلشر بصوت عميق قائلاً:

ـ أسكن قرية بروح واحدة، هي روحي، لكنني لا أشعر بأنني وحدي لأنهم جميعاً هنا، حولي، وهم كائنات رشيقة، صاخبة، قوية، شجاعة. اصغِ، يا سعد، اصغِ جيداً إلى هذا السكون، فتستمد منه قدرة جديدة.

ـ لماذا وصفك ماكس بأنك «عمدة الموتى؟».

ـ هذا ما أنا عليه. هنا، في مقاطعة «شارني ـ سور ـ مووز» كان هناك، قبل الحرب، حوالى ثلاثة آلاف مقيم، غالبيتهم من الفلاحين، يشغلون تسع قرى. اضطروا إلى الرحيل منذ بدء المعركة، فلم يرجعوا مطلقاً. منذ عام ١٩١٩، منح القانون كل قرية من القرى التسع التي ماتت من أجل فرنسا لجنة بلدية ورئيساً تقارب صلاحياته صلاحيات العمدة. تبع ذلك إقامة كنيسة صغيرة ونصب تذكاري للموتى حيث سُجلت أسماء الأبناء الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن. إنني أكرس ذاتي لهؤلاء الموتى.

ـ هل هم سعداء؟

ـ إنهم لا يشتكون.

ـ كيف اختاروك؟

ـ انتخبتُ عمدة إثر انتخاب وهمي. لأنه لا يوجد في قريتي أي منتخب حي. في بلديتي، لم يشر سجل الأحوال المدنية الذي أمسكه إلى ولادة طفل منذ مئة عام.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا يفعل الموتى كي يصوتوا؟

ـ يعينني رئيس بلدية «لا مووز» وقت الانتخابات البلدية.

ثنى الدكتور شويلشر جفنيه الحالمين وهو يتأمل هيكتارات من المساحة التي تشغلها الصلبان فوق آلاف الموتى.

ـ إنني أحافظ على صباهم. أسعى أن يبقوا موتى شباباً إلى الأبد. تصور أن تتداعى لحودهم، بل وأن تنهار: سيُهانون، ويُنسون، فيجعل إهمالي تضحيتهم لا فائدة منها. أما بقية الوقت، فأعالج الأحياء في المستشفى القريب.

فجأة، نظر إلى وجهي بانتباه ومودة.

ـ إذاً، يا صديقي الشاب، عليَّ أن أصحبك إلى الشمال لتأخذ مركباً في اتجاه إنكلترا؟

ـ سأكون ممتناً لك من ذلك، يا سيدي.

ـ سأرتب أموري لاصطحابك قريباً.

ـ هل أنت متفائل؟

ـ بالنسبة إليك، نعم. بالنسبة إلى مستقبل العالم، كلّا. تكمن مشكلة الناس في أنهم لا يعرفون التفاهم فيما بينهم إلّا إذا تحالفوا ضد آخرين. إنه العدو الذي يوحدهم. يمكن الاعتقاد، ظاهرياً، أن الوثاق الذي يربط أعضاء المجموعة، هو اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والتاريخ المشترك، والقيم المتبادلة؛ في الواقع، ليس هناك أي وثاق إيجابي قوي بقدر كافٍ ليجعل الناس متلاحمين؛ فما هو ضروري

Twitter: @ketab_n

لتقريبهم هو عدو مشترك. انظر هنا، حولنا. في القرن التاسع عشر اخترعوا الأمم، فأصبح العدو الأمة الغريبة والنتيجة: حرب الأمم. بعد حروب كثيرة وملايين الموتى، قرروا، في القرن العشرين، تصفية الأمم، النتيجة: خلقوا أوروبا. ولكن كي يوجد الاتحاد الأوروبي، وليدركوا أنه قائم، يجب ألّا يحق لبعضهم المجيء إليه. هذا ما جرى، فاللعبة في منتهى الغباء وهي على هذا الشكل: يجب أن يكون دائماً ثمة مبعدون.

انتزع بلطف هندبة برية وحملها إلى منخاريه.

ـ منذ آلاف السنين، لم تكن الأرض مأهولة إلّا بالمهاجرين وغداً سيهاجرون بشكل أكبر، منهم المهاجرون السياسيون والمهاجرون الاقتصاديون، والمهاجرون المناخيون. لكن الناس هم فراشات يحسبون أنفسهم أزهاراً: ما إن يقيموا في مكان حتى ينسوا أن لا جذور لهم، فيظنون أجنحتهم تويجات الزهرة ويبتكرون سلالة أخرى تختلف عن سلالة اليرقانة الهائمة التي تصبح الحيوان الطائر.

نفخ بلطف، وقد نشر غبار الطلع في الهواء.

ـ لماذا تساعدني، يا دكتور شويلشر؟

ـ إما أن تكون الفلسفة الإنسانية على قدر العالم وإما لا تكون. فالمؤمن حقاً بالإنسانية لا يتعرف إلى الحدود.

بناءً عليه، أدار كعبيه ورمى لي مجموعة مفاتيحه وأعلن لي أنه ذاهب ليعمل في المستشفى.

Twitter: @ketab_n

تبعتُ سيارته بعينيَّ إلى أن اختفت، صغيرة، على قمة الهضبة.

ـ كما ترى يا سعد، يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، هكذا الفرنسيون: يعتقدون أنهم يتحدثون معك لغة عقلانية جداً بينما في الواقع تفيض مشاعرهم. على كل حال، أشخاص يهتمون بأمواتهم هكذا لا يمكن أن يكونوا غير مكترثين بالأحياء، أليس كذلك؟ يا ابني، هذا بلد جميل لأنه قادر على تسمية عمدة ليدير أمور الموتى. ألا تود أن تبقى في فرنسا؟ إنني أقدر كثيراً تلك الدرجة من الحضارة، بعيداً عن الهمجية. وأتأقلم جيداً هنا؟ ألا تتأقلم أنت هنا؟

ـ إنكلترا، يا أبي، إنكلترا.

ـ ولكن لماذا؟

ـ هناك فرص عمل أكثر.

ـ لستَ بحاجة إلى أن تجد فرص عمل كثيرة لكنك تحتاج إلى عمل واحد.

ـ لا مجال للمناقشة. إنكلترا هي حلمي، لا أعرف لماذا. لا شك أنها غلطة أغاتا كريستي.

ـ كان عليَّ أن أضع في القبو روايات سيمنون البوليسية، إذاً لكنتَ توقفت هنا. نتابع، هل أنت متأكد؟

ـ أجل.

ـ حسناً، في نهاية الأمر، ربما لم يكن هذا الرجل إلَّا استثناءً...

Twitter: @ketab_n

١٤

وقفتُ مرة ثانية أمام بحر، بحر الشمال؛ مرة ثانية كان سهلٌ مائع يقف بيني وبين هدفي؛ مرة ثانية فكرت أن المياه المنبسطة، وهي ترفع جدرانها الدفاعية، تؤمن حماية في منتهى الفعالية لأرض تريد أن تنغلق.

ـ أنت على صواب، يا ابني. أقلّه يمكن تسلق الجدار. أما هذا...

فهو عذب، كالح اللون، أقرب إلى السكينة، بلون الأرض الموحلة؛ إن بحر الشمال أقل تأثيراً فيَّ من البحر المتوسط. ففي ذاكرتي وأنا تلميذ، كانت المسافة تبدو ضيقة، على الخريطة، تلك التي تفصل بخط أزرق فرنسا عن إنكلترا. وإذا...

ـ لا تفكر بذلك، يا ابني!

ـ ولكن...

ـ أن تقطعه سباحة، يا للجنون! أشير إليك إلى أنه، كل سنة، هذه الواحة الغريبة، بحر المانش، بالرغم من مظهره المسالم، يبتلع في أعماقه جثث الطائشين ويهضمها، شأنك شأن هؤلاء الذين يسيئون تقدير المسافة والخطر. فضلاً عن ذلك، لو كان يكفي أن يسبح الإنسان

Twitter: @ketab_n

بذراعيه أو بساقيه كالضفادع ليصل إلى إنكلترا، لكان هذا البلد قد أمَّن منذ بضع عشرات من السنين كل أبطال السباحة في المباريات العالمية، وهذا أبعد من أن يحدث. فالإنكليزي لا يحب أن يتحرك في الماء كما لا يحب أن يشربه. إنها جزيرة مدمنين على الكحول تحميها آلاف الكيلومترات من السائل المالح. بمجمل القول، امتنع عن التفكير بذلك.

لم أكن قريباً هكذا من الهدف على الإطلاق ولم أكن في هذا الإحباط قط.

وضعني الدكتور شويشلر هناك قبل عدة أيام، فرحت أطوف بين الشاطئ والأرصفة التي تحد مياهها سفن شحن أعلى من البنايات، هناك خيمة من البلاستيك الرطب يقدم فيها المسعفون إلى البائسين مثلي حساءً ساخناً وإسعافات طبية. فلقاء المتطلعين إلى السفر من أفغانيين وباكستانيين وأكراد وأفارقة ليس بينهم شيء مشترك إلَّا الإعياء ونظرة جامدة وقشور على أجسادهم الهزيلة والجريحة، كل ذلك قد أرغمني على النظر إلى ذاتي بعين أخرى. كنت أرى نفسي نحيلاً، منهَكاً، مُنَفِراً.

بسرعة، شرحت لي بولين، بديلة الدكتور شويشلر ما كان ينتظرني: الشرطة التي توسعنا ضرباً أو تنقلنا على بعد خمسين كيلومتراً وتتركنا حفاة، وسط حقل؛ غزوات الشرطة في المخيمات المرتجلة؛ اقتحام منازل مالكين يؤون بعضاً منا؛ قرارات الطرد خلال عشرة أيام

Twitter: @ketab_n

لهؤلاء الذين ادعوا الشرعية. كان عليَّ أن أجد طريقة للرحيل بسرعة، وإلّا، أخذوني إلى مركز احتجاز، في مدينة ليون أو في أورليان، أي على بعد مئات الكيلومترات في الجنوب؛ حينذاك يجب البداية من جديد.

انحنيت والتقطت حصاة. شددتها وفركت استدارتها الملساء على راحتي وضغطت حكمتها الألفية على جلدي المتشقق، فأعطاني ذلك راحة عذبة، لا أعرف سببها.

وقد نهضت وقطعت بناظري كله الأفق والشاطئ، ظننت أنني جُننتُ.

ـ أبي، هل ترى ما أرى؟

ـ أجل، يا ابني!

ـ الشيء ذاته؟

ـ أجل!

ـ الشخص نفسه؟

ـ نعم! أراها أيضاً. إذا كنتَ مجنوناً، يا ولدي، فكلانا مجنون.

كانت ليلى تمشي على الشاطئ، بالقرب من طريق المرور. وقد ظهر جسمها بثوب برتقالي اللون يخط أشكالها، كانت تنساب أكثر مما تتقدم في زوبعة من الستائر الرقيقة، فستقية اللون، ذهبية، مزركشة، تجعلها تشبه جؤجؤ سفينة في مهب الريح.

في تلك اللحظة، فكرت أنني وصلت إلى نهاية سفري. لن أذهب

Twitter: @ketab_n

أبعد من ذلك. ها أنا ميت، لا بد أنني عانيت وعكة على الأحجار. توقف قلبي. جلطة دماغية. وهذا شيء مألوف، وعادي بلا شك بالنسبة إلى الأطباء لكنه صعقني تواً للمرة الأولى والأخيرة.

ـ يا ابني، إنني أستشف ما تفكر به، لكنك تخطئ. فأنت لست بميت.

أرجوك، اقرص نفسك.

قرصت ذاتي بقوة. بالرغم من الجلد المتألم الذي أحرقني، كنت لا أزال أشك فيما أرى.

ـ يمكن أن نقرص أنفسنا في الحلم، أليس كذلك؟ إذاً لماذا لا يحدث ذلك في الموت؟

ـ يا ابني، إنك لستَ ميتاً!

افترضت حينذاك أنني وصلت إلى حد الواقع، حيث ترقد الحدود بين العالم المرئي والعالم غير المرئي. على ذاك الشاطئ من بحر الشمال، قطعتُ العتبة التي تفصل الأحياء عن الموتى.

ـ هل الأمر هكذا؟ هل أنا على وشك ان أدخل عالمك، يا أبي؟

ـ إلى مملكة الموتى؟

ـ أجل، ربما وجدتُ الممر السري الذي يقود إليكم؟

ـ كلّا.

ـ كيف حدث أنني أراها؟

ـ هل تراها كما تراني، أنا؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلّا. إنك أقل وضوحاً. أكثر هرباً. ضبابيٌ. إنها تبدو صلبة.

ـ إذاً، كن منطقياً، يا ابني: إذا كنتَ تراها كما ترى تلك الحصاة، بكثافة مماثلة، فهذا يعني أنها تتجول في العالم الذي تتجول أنتَ فيه. يا سعد، إذا كنتَ تراها فهذا يعني أنها حية. يا لحماً من لحمي ودماً من دمي، أسرع قبل أن تتلاشى. عجل! اندفع!

أطلقت ساقيَّ للريح راكضاً نحو ليلى. كنتُ أتوقع، في كل لحظة، أن يتغير شبحها وقد اقتنعت أنني كنت قد خُدِعتُ بتشابه مذهل؛ فالمجهولة التي كنتُ أركض نحوها لن تعود تبدو ليلى لتجسد إنسانة غريبة، وسيكشف لي تفصيل عن التباسي. حين صرت على بعد عدة أمتار منها، فوجئتِ المرأة، فاستدارت نحوي، ووجهها أمام وجهي. هنا أيضاً تعرفت إلى ليلى. تقدمت. خلال عدة ثوانٍ سمحتْ لي بالاقتراب منها، ما زلتُ أتوقع أن تقاطيعها وعينيها وفمها ستذوب في تقاطيع امرأة أخرى. أخيراً، حين وقفت على بعد عدة سنتيمترات منها، لم أتلقَ أي تكذيب على الإطلاق.

لم أكن أستطيع تصديق ذلك: كنتُ أجابه قرين ليلى التام، قريناً يطابقها بشكل صارخ يحدق إليَّ بفزع، وقد تقطب حاجباه.

خافت المرأة المجهولة من هذا الرجل الذي اندفع نحوها.

ثم تمتمت المجهولة في نفحة وهي مرتبكة ومترددة:

ـ سعد؟...

وعرفتُ حينذاك أن المجهولة هي حقاً ليلى.

Twitter: @ketab_n

تشابكت أذرعنا، وبحث فمانا عن الآخر، ووسط بكاء بدموع حارة، قبلنا بعضنا بعضاً حتى كادت تتقطع أنفاسنا.

بعد عدة ساعات، وقد تلاشى ذهول التلاقي، أخبرتني ليلى بما حدث لها. وكذلك بوالديها، فلقد نجت من الانفجار حين ظنها الجميع ميتة: في الواقع، كانت ليلى وأمها وأبوها يزورون عمة لها وقت الاعتداء. قرر أبوها أن يؤكد موتهم وأن يستفيد من ذلك ليهرب إلى الخارج، لا سيما أن ثلاثتهم كانوا يبكون موت الإخوة الأربعة. وقد فكرت ليلى فيَّ، في كلينا، وفي مستقبلنا، احتجت ورفضت. إلَّا أنه في ساعات البلبلة والألم، لم يترك لها أبوها الوقت لتفاوض. في الليلة ذاتها، رحلوا بتكسي إلى سوريا. في الأيام التالية، وصلوا إلى بيروت وضاعفوا مساعيهم.

حينذاك اتصلت ليلى بابن عمها أمين في بغداد ليعلمني أنها على قيد الحياة.

ـ ألم يلتقِ بك؟ لم تصلني أية أخبار مطلقاً.

تذكرت أن أمين كان ينتظرني في شارعي ليلاً حين عدتُ وأنا متوتر جداً شأن سمك القرش الذي اشتم رائحة الدماء، من دورتي التدريبية من عند الإسلاميين... كنت مرتبكاً، وقد أدركتُ فجأة المشهد، ففسرتُ بعدة كلمات إلى ليلى أن أمين قد سعى ما في وسعه ليؤدي مهمته لكن خطابي قد أرعبه، ففضل بلا شك ألَّا يقول

Twitter: @ketab_n

لي شيئاً، أولاً لأنني لا أستحقه، ثانياً كي لا يُعَرِّض ابنة عمه إلى الخطر.

بينما كان والداها يأملان بالحصول على تأشيرات دخول إلى كندا، فلقد ماتا بحادث سيارة عبثي في الجبل. وجدت ليلى نفسها وحيدة في لبنان حيث تشابكت العلاقات ثانية بين المجتمعات، وقد عدلت عن العودة إلى العراق حيث اعتُبِرت رسمياً ميتة، فقررت أن تجرب حظها في أوروبا.

تساءلتْ إن لم أكن ميتاً، فقامت برحلتها. في البدء، كانت مسيرتها أبسط بالنسبة إليها. وقد تزودت بمدخرات الأسرة، حطت رحالها في باريس بتأشيرة دخول سياحية وأقامت في فندق متواضع لتعمل كسكرتيرة متعددة اللغات ولتسوي وضعها.

إلّا أن المال راح يذوب، أما وظائفها فلقد اقتصرت على خدمات قصيرة بأجور سيئة جداً، واكتشفت أنها لن تنجح في المدة التي حددتها لنفسها. أملت، طويلاً، أن تحصل على أوراق نظامية؛ لكن جرت انتخابات حيث حدد سياسيون من حزب اليمين أن أصل المشاكل الفرنسية هم المهاجرون، وهؤلاء الذين بلا أوراق ثبوتية، والمسافرون غير النظاميين. انطلاقاً من هناك ابتدأ تدهور بطيء أدى إلى أن تشتغل ليلى بالسر وبأجر زهيد تلا ذلك التسول والسكن في غرف خدم إلى سكن مستولى عليه، ومن أكل السندويش إلى الحساء الشعبي الذي يُقدم مجاناً.

Twitter: @ketab_n

ـ كان الوضع لا يُطاق، يا سعد. كنتُ خائفة طوال الوقت. كان احترام قواعد الحذر البدائية يزعجني دون أن يطمئنني: أن أظهر بمظهر لائق، ألا أكون في شبه عري، ولا محجبة كثيراً قط، كي لا أثير الأنظار المرتابة؛ أن يكون لي دائماً اشتراك في الميترو أو سيارات النقل العامة لأن المخالفة تعرضني إلى تفتيش الشرطة، تجنب شبكة الخطوط السريعة (R.E.R.) وكذلك محطات الاتصالات الكبيرة شأن «شاتليه ـ لي ـ هال»، مما يضطرني كي أذهب عند معلميَّ أن أقطع مسافات غير معقولة وطويلة جداً. لم أكن في أي مكان في سلام. أين أجلس؟ أين أنام بلا خشية؟ بينما لم أرتكب أية جريمة، كنتُ أترقب الشرطة. اشتغلت باستمرار، يا سعد، اشتغلت كي أبقى حية، اشتغلت كي لا ألفت نظر أحد، وفوق كل شيء، اشتغلت كي لا أمرض.

أخيراً، وقد ازداد حذرها، وشعرت بأنها مطاردة، قررتِ المجيء إلى هنا، في الشمال، لتهرب إلى إنكلترا.

ـ لم اعد أعرف أي مسار أتبع، الهرب أو تسوية الوضع، سلكتها كلها لأنني كنتُ أطرد من كل مكان. هنا، أشعر كذلك بعدم الأمان، فعليَّ أن أراقب دائماً ما حولي وأن أبقى يقظة ومستنفرة. انظر، هذا هو المكان الوحيد الذي أسكن فيه: أن أكون متنبهة.

ـ تعالي معي إلى إنكلترا، يا ليلى.

ـ أينما ذهبتَ لن أفارقك مطلقاً.

أخذتني إلى السكن الشاغر المحتل حيث تقيم. في الطريق،

Twitter: @ketab_n

رويت بدوري رحلتي الطويلة وقد سكت عن مرحلة صقلية التي تتضمن علاقتي مع فيتوريا لأنني قدرتُ أن لا فائدة من أن أحْدِث عند ليلى غيرة ماضية.

فأبعد من المدينة والقرى، كان السكن، الضائع في الريف الموحل، مؤلفاً من أبنية إدارية قديمة وكذلك مساكن سابقة لعمال تحول استعمالها منذ إفلاس الموقع. احتله المسافرون غير النظاميين وهم يأملون ببعده أن يوفر لهم طمأنينة نسبية.

في بناية ليلى، كانت تسكن كل غرفة أسرة أفريقية من خمسة أشخاص إلى سبعة. كان لليلى غرفة صغيرة جداً، وتلك ميزة حصلت عليها، مقابل ذلك، كانت تنظف مراحيض الطابق، ولم يكن ذلك بعمل سهل لأن المقر لم يعد متصلاً بالمجاري العامة، فكان عليها أن تحمل سطولاً برائحة كريهة إلى قعر حقل. كان هناك مطبخ جماعي ارتجله السكان في الممر بموقدين وبثلاثة أحواض من البلاستيك لأنه لم يكن هناك مطبخ أصلاً في تلك المجموعة من المكاتب. لم يكن هناك حمامات رشاشة على الإطلاق. كانت الامكانية الوحيدة للاغتسال ولجلي الأطباق ولغسل الملابس تقتصر على أنبوب سقاية حُوِلَ عن العداد بالقرب من الطريق، فكان يستخدمه كل فرد تحت السلم المعتم. من وقت إلى آخر، كان من الممكن الاستفادة من بضع دقائق للكهرباء، إذا وجد أفريقي ماهر مطلع يتلاعب بالخطوط.

كان المقر يطن بالأصوات واللغات والروائح الغريبة؛ فأوقات

Twitter: @ketab_n

كل واحد تختلف من ساعات النوم وساعات الحديث وساعات الممارسات الجنسية. فإذا اشتكى أحدهم اقتصر الجواب دائماً على هذا الأمر: «من أراد أن يكون في بيته فليعُد إلى بلده!»

همست ليلى في أذني وهي تبتسم لي بحنان:

ـ بابل، دائماً بابل...

بالرغم من هذا الجو المحيط بنا، فلقد أمضينا ليلة رائعة. أنا وليلى في غرفتها الصغيرة جداً، على سرير من الكرتون، فتصرفنا كما لو كنا متزوجين وتذوقنا أول فترة لنا معاً. لقد أرجع جسدانا ما كنا قد فقدنا، أي صبانا والعذوبة والمتعة والمستقبل. كنا سعيدين كما لم نكن حتى الآن مطلقاً تحت النجوم التي لم تكن كوة النافذة الضيقة ترينا إياها.

في الصباح، كانت ليلى ترتعش سعادة بين ذراعيَّ.

أما أنا، فأحسست أنني بطل حكاية سيطرتُ أخيراً عليها.

جاءتنا الأيام التالية بطمأنينة عظيمة وبصفاء بالغ. بينما كان لدينا مئة سبب لنحزن ـ كان المطر يهطل بلا انقطاع، والشرطة تشدد نداءاتها بالقرب من المرفأ، لم يكن لدينا مال ولا طعام والمنزل يعج بالصراصير بين الروائح النتنة والنفايات ـ، كنا أنا وليلى نعيش أحلى أيام الغرام فوق بحر هادئ.

كانت تذهب صباحاً لتعمل عند مطرزة تُشغلها مقابل بضعة قروش وتعطيها خبز الليلة الفائتة، أما أنا فرحت أبحث عن عمل متواضع وأتعقب سبل أخذ مركب إلى إنكلترا.

Twitter: @ketab_n

كنتُ قد روضت بولين، وسيلة الاتصال بشويلشر، وهي امرأة حمراء الشعر، وذات بشرة بيضاء كالحليب، ومزاج حاد وأشد تقلباً من ورقة الشجر في مهب الريح والتي كانت في مبنى مسبق الصنع تعطره القهوة المغلية جداً وتساعد بولين الأشخاص الذين بلا أوراق نظامية على تعبئة الأوراق المطبوعة الرسمية. وبحجة أن لديها شهادة ممرضة، كانت تعالج أيضاً، وفق امكانياتها الضعيفة، الأشخاص الأسوأ وضعاً بيننا.

كانت بولين تقدرني، لأنني لم أكن أسبب لها أية مشكلة على وجه التحديد، كما كنت أخفف مشاكلها الأكثر صعوبة، وذلك حين يجب خلع أحذية عالقة بالأرجل منذ أسابيع وحين يجب تنظيف الأجسام حول الجروح وحين لا يريد مسلم خجول أن يتعرى أمام امرأة.

بالمقابل، كانت بولين تسدي لي النصائح كي أقتات وأتجنب رجال الشرطة وأعد رحيلي المحتمل. كانت ابنة رجل دين بروتستانتي ولم تعد تؤمن بالله لكنها تؤمن بالضيافة. فالظلم يغيظها.

ـ لا سيما ظلمك، يا سعد، ذاك الذي تعانونه أنتم، بلا أوراق نظامية، لأن لا أحد يريد أن يرى مصيبتكم. فالفقر هو منزل بطبقات. في الأعلى، في الطبقة الرفيعة، هناك العاطل من العمل؛ إنه الفقير الطارئ، العامل الذي حُرم من وظيفته بسبب الظروف؛ لنكن واضحين، الجميع يحبونه، العاطل عن العمل، فيتعاطفون معه، لأن فقره يزعجنا قليلاً ما دام موقتاً. تحته، في الطبقة الأدنى، هناك الفقير المستحِق، ذاك الذي

Twitter: @ketab_n

يشتغل لكن أجره لا يكفي ليعيش؛ يقبل الناس هذا الفقير بود، وقد ينصحونه بألّا يقبل عملاً بأجر منخفض مطلقاً، والكل يصمت لأنه ليس بمعتوه القرية- إنه أبله المجتمع، فهو يقدم لنا المتعة الثابتة بأن يُشعرنا بأننا أذكى منه. وفي الأسفل، في الطبقات المنحطة، هناك الفقراء بسبب عدم تلاؤمهم، والمتسكعون، والشحاذون، هؤلاء الذين يُظهرون عدم مقدرتهم على العمل أو عدم تلاؤمهم مع المجتمع؛ هؤلاء لا يرعبوننا لأنهم يقصون أنفسهم من النظام، فيمدونه بالقوة والدعم. هناك في المنزل، الأشخاص الذين يُثيرون الخوف ويبعثون القلق هم الفقراء غير النظاميين، هؤلاء الذين بلا أوراق ثبوتية، والمسافرون خلسة شأنك، تحتلون الأقبية والسلالم والباحة، هؤلاء المهاجرون الاقتصاديون الذين يهربون من بلد، حيث، كما يبدو، لا يوجد عمل هناك. من يبرهن على ذلك أولاً، من؟ كيف يتدبرون أمورهم هؤلاء الذين بقوا هناك؟ ألم يأتوا بالأحرى ليسرقونا؟ إنهم مجرمون! وفي أفضل الأحوال، طفيليون! إنهم فاسدون يعيشون بالرغم من كل شيء: عدم الشرعية، الهشاشة، تقلبات الطقس القاسية، الخطر، الجهل باللغة! إنهم ناجون مشبوهون... لأن معاصريَّ يفضلون التفكير بالفقراء الأغبياء على التفكير بالذين يحسنون تدبير أمورهم، إنهم يفضلون الأغبياء على الشجعان. فالأشخاص الذين على شاكلتك يُزعجون، فيشيحون وجوههم عنهم ويفضلون أن ينسوا أنهم هنا، فلا يبحثون عن حلول لهم. ما داموا يتدبرون أمورهم وحدهم، فلماذا يساعدونهم؟ وإن كانت

Twitter: @ketab_n

حياتهم بالغة القسوة، فهي أفضل من حياتهم هناك، أليس كذلك؟ وإلَّا لرحلوا إلى بلادهم، أليس كذلك؟ حسناً، فليسكتوا، لا نريد أن نسمعهم ولا أن نراهم وسننسى حضورهم... فليعيشوا بتكتم شخص ميت. هنا، يا عزيزي سعد، يوجهون لك أسوأ الإهانات وهي اللامبالاة. يتصرفون كأنك لست هنا، كأنك لا تعاني البرد، كأن الدماء لا تسيل حين تُجرح. من هنا تبدأ الهمجية، يا سعد: حين لا يعود يتعرف الإنسان إلى ذاته في الآخر، حين يشيرون إلى صنف تحت مصاف الإنسان وحين يصنفون الجنس البشري بطريقة تسلسلية، فيقصون بعضاً من البشرية. أما أنا، فلقد اخترت دائماً الحضارة ضد الهمجية. وما دام هناك «أشخاص يحق لهم أن» و«أشخاص لا يحق لهم أن» فالهمجية قائمة. أعرف أن ما أقوم به من أجلك قد يعرضني لخمس سنوات من السجن. لا يهم! بل لحسن الحظ! أن يزجني الهمجيون في السجن! لن يغلقوا فمي! وسأعاود الكرة حين أخرج! فالحضارة تخون ذاتها حين تشير إلى «الآخرين»، إلى «الأدنى جودة»، إلى «المتطلعين إلى التقدم». ليس هناك حضارة جديرة بهذا الاسم تطلب شهادات ولادة.

وسط خطبها، كانت بولين، الواقعية جداً، تثقب خراجاً متقيحاً أو تنادي عمدة لتصرخ في قصبات صدره بخصوص هؤلاء الذين بلا مأوى. ذات يوم، أرسلت لي غمزة من عينها وانحنت نحوي وأمرتني أن أتأكد من أن لا أحد قادماً ولا يمكن لأحد أن يسمعنا ودستْ مغلفاً تحت يدي.

Twitter: @ketab_n

ـ خذ، يا سعد. بطاقتان للذهاب هذا المساء إلى عرض راقص.

ـ شكراً.

ـ هل سبق أن رأيتَ عرضاً راقصاً؟

ـ لقد رقصت في حفلات الزواج في بلدي. كما رقصت كثيراً في القاهرة.

ـ كلّا، أحدثك عن باليه للرقص الحديث، أخرجها أحد مبدعي الرقص المعاصر؟

ـ لا أعرف ذلك.

ـ ستذهب إلى هناك هذا المساء. بعد العرض، تذهب إلى الكواليس لترى جورج، وهو نفسه برازيلي مهاجر. إنه ينتمي إلى تنظيمنا. وسيفسر لك كيف، بعد عدة أيام، ما إن ينتهوا من عرضهم حتى ينقلكما، أنت وليلى، إلى إنكلترا.

ـ حقاً؟

ـ حقاً! مع ذلك، كان بودي أن أبقيك بالقرب مني، فأنت تنفعني هنا.

لم أقطع الكيلومترات التي تفصلني عن المسكن قط بأسرع مما فعلت. قصصت كل شيء على ليلى وضحكنا وبكينا معاً.

ذهبنا، مساءً، إلى المسرح الواسع والحديث حيث يُقدَّم العرض. نادراً ما جعلني شيء بهذا الجمال في منتهى التعاسة. شعرنا بصدمة، أنا وليلى، من رؤية أناس بالغي الروعة، أحرار، بلا قيود، خفيفي الوزن

Twitter: @ketab_n

كأنهم يطيرون ويحركون هذه الأجساد برشاقة لم يعد يعوقها أي قيد، ما عدا الجاذبية الأرضية. أدركنا أننا لسنا هكذا مطلقاً وأننا لن نكون هكذا بتاتاً وأننا منهكان، مسنَّان، متعَبان، وأننا نسينا أن باستطاعتنا أن نعيش ونتحرك ونتنفس لمجرد شعورنا بسعادة بسيطة وهي العيش والحركة والتنفس أننا لم نكن نجد ذاكرتنا الهاربة إلّا أثناء مطارحتنا الغرام، من خلال بعض الحركات. كنا فاغري فمينا، ودموعنا على شفا عيوننا، شعرنا معاً أننا يائسان ومعزيان.

في الكواليس، استقبلنا جورج، وهو أحد الراقصين، بجسم حيوان كاسر وبشعر أشعث يختلط فيه البني بالأشقر بشكل فوضوي، ثم استحم بالحمام الرشاش وشرح لنا بالتفصيل طريقة العمل في الأيام التالية.

حين عدنا إلى السكن، بعد ساعات كثيرة من المشي، وقد خدرنا التعب والانبهار، تمددنا وقد اختلطت أذرعنا وسيقاننا، ودون أن نستطيع النوم، ابتسمنا للسقف حتى الفجر.

لا شك أنني غفلت في الصباح لأن ليلى أيقظتني فجأة.

ـ سعد، لنهرب. أتوسل إليك. لنهرب إلى طرف الحقل، لقد سمعت سيارة.

ـ هيا، أتظنين ذلك؟ انتظري حتى أذهب إلى النافذة.

جمعت حوائجها. أدركتُ بعدة ثوان أنها كانت على حق: كانت سيارات تتابع في الأفق.

Twitter: @ketab_n

ـ لنرحل.

دون أن أنتظر، أمسكت كيسي وسلكنا الممر ونزلنا السلم بصمت.

سألتها:

ـ هل نطلق الإنذار؟

ـ أجل. اذهب إلى الأمام. سأهتم بذلك.

انطلقتُ إلى الخارج، تحميني البناية من سيارات الشرطة وشرعتُ أركض عبر الحقول.

لا شك أن ليلى قد اضطرت إلى أن تزعق لتنبه كل واحد لأنه قد حدث هرج ومرج في البناية. في البنايات الأخرى، الأقرب إلى الطريق، كانت الشرطة قد قفزت. دون أن ألتفت، تابعت ركضي بأقصى سرعة حتى تقطعت أنفاسي كي أبحث عن حماية في الغابات.

كنت أقول في نفسي لاهثاً:

ـ حبذا أن تلاقيني بسرعة.

لكنني بالرغم من آمالي، فإن جزءاً من ذاتي قد أدرك ما حدث. حين أطلقت ليلى الإنذار، بسبب الضجة التي أحدثتها، قد عجلتْ في تدخل القوى وأفشلت هربها. مع ذلك، كنت أريد أن أقتنع أنني على خطأ، تكورت في حفرة وقلبي يخفق وانتظرت.

انبعث صراخ وصيحات. قاومتِ الأفريقيات بشجاعة. تلا ذلك

Twitter: @ketab_n

أصوات انفجار. لا بد من أن رجال الشرطة قد ألقوا قنابل غازية. أو أحرقوا غرفاً.

ثمة صفق أبـواب. صفارات إنـذار. انطلاق سيارات. هدير محركات يتضخم ثم يتلاشى بعيداً.

لم ترجع ليلى بتاتاً.

لقد فهمت.

في حفرتي من العشب والطين، انتظرت حتى الظهر. ثم عدت إلى السكن، فكان كما تخيلته، لا يزال الدخان ينبعث منه لأنه تأكسد.

لم يكن أحد موجوداً فيما حوله.

ذهبت مساءً عند بولين، ليس إلى مقرها المسبق الصنع الذي كان مغلقاً، ولكن إلى عنوانها الشخصي. ما إن لمحتني من نافذتها، حتى طلبت مني أن آخذ الباب الخلفي، باب الحديقة، بتكتم. بدت منهكة ومشغولة.

ـ سعد، لقد نجوتَ!

ـ أخشى أن أكون الوحيد.

ـ أعرف أن ليلى قد جرى توقيفها.

في المساء، ضاعفت اتصالاتها الهاتفية. ثم أتت، شعثاء الشعر، ونظرتها تعبة لتعلمني الحقيقة.

ـ سيكون تصرفهم مع ليلى أسوأ لأنها حاولت أن تنظم وضعها الإداري، أما الآخرون فسيرسلون إلى مركز الاحتجاز.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا؟ ماذا سيفعلون لها؟

ـ إنهم يتصرفون بسرعة كبيرة مع النساء لأنهم يخافون أن يؤسسن أسرة.

ـ ماذا سيفعلون لها؟

ـ كن شجاعاً، يا سعد.

ـ ماذا؟

ـ سيعيدونها إلى العراق خلال ثلاثة أيام.

انهرتُ على بلاط المطبخ. هل كان ذلك بسبب الجوع والعطش والانفعال؟ ما أهمية ذلك، لم تعد قواي تتحمل سماع المزيد.

آوتني بولين عندها، وقد خبأتني في السقيفة، حتى اليوم المتفق عليه مع جورج. كانت بولين عنيدة ومتسلطة، دون أن تترك لي أي هامش أتصرف فيه، طلبتْ مني أن أتبع وحدي المخطط السابق المعد لكلينا.

حددت بولين قائلة:

ـ على كل حال، يقتصر العرض من الآن فصاعداً على شخص واحد. لقد أصبح الوضع في منتهى الخطورة. فالحكومات والدوائر تريد أن تعطي انطباع القوة وتشدد الرقابة.

عشية رحيلي، كي أغتسل من شجوني وخيباتي، شعرت بالحاجة إلى القيام بعملية تنظيف طويلة فطلبت منها الأذن كي أبقى قليلاً في غرفة حمامها. كنتُ أعرف أنني سأستهلك ساعات كثيرة دون أن

Twitter: @ketab_n

أشرب وآكل وأقضي حاجاتي. بعد تأدية صلاتي وحمامي الرشاش، استفاد والدي من ذلك كي يزورني على البلاطات الملونة.

ـ يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، لقد عدتُ. ظننتُ أنك قد وصلتَ بطريقة سعيدة إلى نهاية رحلتك وها أنت... آه، لماذا لا تجري الأمور في الحياة على أحسن حال كما يحدثِ في الكتب؟ عند هوميروس، مثلاً، ينتهي أوليس بمعانقة بينيلوب و...

ـ يا أبي، اتركني أنت وهوميروس. دعني وشأني.

ـ يا ابني، حدثني كيفما تشاء، فإنني لا أستحق أكثر، لكن، من فضلك، تحدث باحترام عن العباقرة العظماء.

ـ شيء واحد يبدو لي أكيداً هو أن شاعرك هوميروس كان أعمى!

ـ آه نعم، لماذا؟

ـ كان يرتجل حكايات لها معنى لأنه بسبب عينيه المفقوءتين، لم يكن يرى العالم كما هو، ولكن كما يروى له.

ـ هذه هي المرة الأولى التي لست متأكداً فيها بمتابعتك، يا ابني.

ـ كما ترى، يا أبي، تحدثني عن الكتب التي تحبها، تلك الروايات ذات النهايات السعيدة أو حل عقدة عادل، أستنتج أن الكتاب هم دجالون. يسعون إلى أن يسوّقوا لنا العالم على غير ما هو عليه، أي منتظماً، عادلاً، أخلاقياً. إنه غش واحتيال! يجب أن تُمنع كتبهم عن الأولاد، أن تُحَظَّر قراءتها، إنهم يجعلون الحياة أكثر تعاسة وعدمية لأنهم كانوا قد أقنعونا أنها يمكن أن تكون جميلة. فبسببهم، كل مرة

Twitter: @ketab_n

نسقط فيها من درجة أو نتخبط في البراز، بكلمة أخرى، في أغلب الأحيان، نشعر بأننا مذنبون. نلوم أنفسنا على إخفاقنا لأنه كان علينا أن ننجح. هذا خطر!

ـ أنت لا تفهم شيئاً، يا سعد. فالكُتاب لا يرسمون العالم كما هو، ولكن يرسمون عالماً كما يمكن للناس أن يصنعوه.

ـ إن بطلك أوليس الذي يستعيد بينيلوب وبطلتك بينيلوب التي ما زالت تحب أوليس، هذا وهم وخيال.

ـ آه نعم؟ وحبيبتك ليلى حية، هل هذا وهم؟

ـ كلّا، لكننا مفترقان.

ـ ليس هناك حكاية جيدة بدون فراق.

ـ أريد أن أعيش حياتي، لا أن أعيش حكاية.

ـ اعتمد على الحياة لتغني حكاياتك.

ـ يا أبي، دعني وشأني! كفى فلسفة!

ـ إن لم يكن المرء بحاج دائماً إلى أبيه، فإنه بحاجة دائماً إلى الفلسفة.

ـ حسناً، لقد فهمت ما تسميه بالفلسفة: إنها الوسيلة التي تجعلنا نتحمل الفظاعة.

ـ هل تعرف منهجاً أفضل؟

قطعت بولين جدالنا إذ ذكرتني بحلول ساعة ذهابنا إلى المرفأ.

Twitter: @ketab_n

صحبتني إلى هناك بسيارتها ثم أخذتني إلى المقهى حيث ينتظرني جورج.

في لحظة افتراقنا، قبلتني بولين ودست ورقة بين أصابعي.

ـ هيا يا سعد، خذ هذا العنوان. أرسلته لي ليلى توّاً من بغداد حيث وجدت حاسوباً. في هذه الرسالة الإلكترونية، تعطيك هذا الاتصال، وهو ابن عم لها كانت تأمل لقاءه في لندن. إنها تطلب منك أن تتابع سفرك وتضيف أنها ستلحق بك. فمن خلال رابطتنا، إذا أردت، يمكنك أن تبقى على اتصال بها.

Twitter: @ketab_n

١٥

ها قد تم الأمر. في غرفة بثلاثة أسرة، حيث يتناوب ستة رجال لينام كل واحد بدوره، أسكن في «سوهو»، في لندن، في إنكلترا. عندي سقف. يقع على علو عشرين سنتمتراً من وجهي، بالضبط خلف ورق الجدران الذي ينفك لصاقه، فهذه الغرفة الخشبية تحت سقف مائل ترغمني على مراقبة حركاتي حين أتمدد على فراشي، فأعيش مقوس الظهر كي لا أغامر بالوقوف وسط الغرفة.

حين أشرب كأس شاي بارد بمذاق أقحوان عتيق، أنظر إلى النهار يبزغ من الكوة. ولا يرغب النهار في الشروق، شأني في النهوض، فهو تعب، منهك، مصاب بالتهاب المفاصل، كئيب؛ إنه يتساءل أمن المجدي نفعاً أن يضيء السطوح الرطبة والسوداء واللامعة بالتلوث الدهني؛ فهو يعرف أنه حين يضيء بخشونة، يزيل عن «سوهو» الجاذبية الليلية التي تسبغها عليا أضواء النيون القرمزية اللون واللافتات الأنيقة والستائر البنفسجية اللون لمتاجر الخلاعيات؛ فسيكشف عن القذارة وعن السناج وعن الشقوق التي تُظهر تعب الجدران، إنه سيوقظ روائح

Twitter: @ketab_n

صناديق القمامة وسيثير روائح التقيؤ أمام الإعلانات وسينشط عطر الزفت الحاد وسينشر على الشوارع النفس النتن الذي تَبعثه الأقبية بمجرد أن يفتح بائعو عصير الليمون أبوابهم الأرضية الصغيرة ليسلموا هكتارات ليترات البيرة.

انزلقت خارج فراشي، بدون صوت كي لا أزعج الأفغانيين وأحرص على أن أمكث أقل وقت ممكن على البساط المنحوت بدوائره المشبوهة ولبستُ بعض الثياب ثم، وقد قطعت الباب، تعلقت بدرابزين الدرج المتأرجح كي أنزل السلم والذي تئن درجاته تحت خطواتي. كي أخرج، يجب أن أخلع زراً يخور شأن كرسيٍ كهربائيٍ ويسدد بمصراعه ضربات كثيرة في الأكتاف.

في الخارج، وصلت إلى شارع ضيق جداً حتى إن مصارعاً ضخم الجسم لا يستطيع المرور فيه. فلندن التي رسخت فيَّ تربكني. لم تصف لي أغاتا كريستي هذا النوع من الأماكن؛ لا شك أن ديكنز قد تطرق إلى هذا الوصف، لكنني لم أقرأ ديكنز لأن صدام حسين لم يمنعه.

وصلت إلى علامة حجرية حيث كنتُ أحب الجلوس حين أستيقظ، وأنا آكل كعكة من الحبوب، وهي وجبتي الأساسية. حولي، كانت عاهرات من كل الأعمار ومن كل الأجناس، وقد خربت زينتهن، يغادرن مكان عملهن ليغصن داخل درج الميترو. شرع المتسكعون الفقراء في نومهم النهاري ووصل شبان يابانيون بتمام البهاء، ببناطيلهم المكوية على الثنايا، وبأيديهم الدليل السياحي، ليزوروا العاصمة البريطانية.

Twitter: @ketab_n

في تلك الساعة لم تفتح المطاعم أبوابها بعد؛ شأن امرأة فوجئت وهي تتبرج، تقدم في واجهاتها الحزينة صحون اليخنة التي ابتكرها الناس على سطح الكوكب، وفن تحضير البقايا، أي طبخ النفايات من اللحم المأخوذ من عند اليونانيين، وأرزاً بالكاري من عند الهنود، وأطباقاً مختلطة من عند الأتراك وقد ظهرت على واجهات تلك المطاعم صورها الملونة العتيقة والذي طغى من الآن فصاعداً اللون الأخضر على بقية الألوان الكالحة، شأن عفونة على طبق حُفظ طويلاً في الثلاجة. كان الصينيون وحدهم يقدمون أطعمة ببعض النشاط، لكن يبدو كل شيء زائفاً، انطلاقاً من صغار الخنازير القرمزية التي تفيض على طاولات العرض وحتى الصحون التي هي من مادة الصمغ في المدخل. هناك المعكرونة العريضة اللماعة وكذلك قرنبيط الشتاء اللماع وفطائر فيتنامية لماعة محشوة بالأرزّ وبط لماع وكذلك فطائر مقلية من الموز.

ـ إذاً، يا ابني، هذه هي الجنة؟

جابهني والدي، وقد جلس على النبع. ابتسمت له.

ـ ما رأيك في ذلك؟

ـ أنا؟ أتريد رأي أبيك؟ حقاً؟

ـ أجل.

ـ يُخيل لي أنك لم تترك البلد، يا ابني، على كل حال لم تغادر بابل. هنا بابل. بابل اللغات، بابل المطابخ، بابل الأجناس، ولكي نبقى

Twitter: @ketab_n

في بلدنا، يمكن أن نشير إلى سَدوم وعامورة. ألم تلاحظ أن في هذا الحي، حيث تُمثَّل كل التقاليد والأعراف الأكثر تنوعاً، ولها تعرفتها الخاصة يقوم اللوطيون بتسيير آليات العمل أما الذكور العاديون فهم فقراء بائسون يسيرون بمحاذاة الجدران.

ـ إلى أين تريد أن تصل؟

ـ إن ابن عم ليلى، هذا الذي يساعدك هنا، منظف مخزن الخلاعات، لا يعرفك إلّا إلى غرباء!

ـ طبعاً، لست بحالة وحيدة. يوجد كثير من المهاجرين في إنكلترا.

ـ هذا يعني أنك لم تلتقِ بالسكان الإنكليز، لكنك تعرفت على المهاجرين إلى إنكلترا!

كان شرطي يطوف بالقرب منا، بارد الطبع، ووجهه منقط ببقع حبوب، وهو يتمختر بطريقة يريد أن يطمئن كل فرد، وهو يعرض كأشياء اصطناعية قبعته ومسدسه على ردفيه البارزين.

ألقى عليه والدي نظرة مريبة: ففي نظره، يجب على ممثل قانون حقيقي أن يَظهر مثيراً للخشية أكثر من هذا الرجل.

ـ ماذا تنوي أن تفعل، يا سعد؟

ـ أن أستمر في العيش أولاً. وأن أنصرف للبناء بعد ذلك. لقد وعدني ابن العم بعمل متواضع غير نظامي، بالقرب من المحطة. مقابل مئتي أورو، يستطيع أن يؤمن لي بطاقة إقامة زائفة؛ يمكن بعد ذلك

Twitter: @ketab_n

الحصول على عمل رسمي. حين سأرى ذلك بوضوح أكبر، سأنهي دراستي للقانون وسأتزوج ليلى.

رفع والدي كتفيه، يائساً من سعة المهمة. شعرت بالرغبة في تهدئته وفي فهمي.

ـ إنك تفكر، يا أبي، على الطريقة القديمة. تفكر على طريقة هوميروس. فمنذ ثلاثة آلاف سنة، كان هناك رجل، يُدعى أوليس، حلم بالعودة إلى بلده بعد حرب أبعدته عنه. أما أنا، فحلمت أن أترك بلدي الذي دمرته الحرب. بالرغم من أنني سافرت وصادفت آلاف العوائق والصعوبات خلال تلك الرحلة الطويلة، فلقد أصبحت على عكس أوليس. إنه عاد، إنني أرحل. لي الذهاب، وله العودة. إنه يلاقي المكان الذي أحبه؛ أما أنا، فأبتعد عن الفوضى التي أمقتها. كان يعرف أين مكانه، أما أنا فأبحث عن المكان الذي يلائمني. كان كل شيء محلولاً بالنسبة إليه، بسبب أصله، فلم يكن عليه إلّا أن يعود إلى الوراء، ثم يموت سعيداً، وهو ملك شرعي. أما أنا، فسأبني بيتي بعيداً عن بلدي، في الخارج، في مكان مختلف. كانت رحلته الطويلة المعروفة بالأوديسة تشكل دورة حنين، أما سفري فهو رحيل ينفخه المستقبل. كان أوليس على موعد مع ما كان يعرفه. أما أنا فعلى موعد مع ما أجهله.

ـ إنك تطارد حلماً، يا ابني، ولكن في انتظار ذلك، ليست حياتك بحلم.

Twitter: @ketab_n

ابتسمت. فألح قائلاً:

ـ إذا كان دافع السفر هو عدم الرضى، فهل ستكون راضياً؟ هل ستتوقف يوماً.

إن هدف السفر، يا أبي، هو أن يحط المرء حقائبه ويعلن: ها هنا. إذاً ها أنا أعلن لك هذا: أتوقف، هذا هو المكان الذي أنشده.

وقد جلست على النبع، خلعت حذاءيَّ المطاطيين لأبلل قدميَّ في الماء.

أثناء ذلك، كان أبي يتفحص مظهر ملابس ثلاثة مخنثين متنكرين بملابس نساء، بسيقانهم الطويلة جداً والمشدودة بكعوب عالية براقة.

ـ انظر، هل رأيت، يا أبي؟ عندي ثؤلولة جديدة تحت رجلي.

ـ مم؟

ـ كيف تقول في لغتك الرفيعة «عندي ثؤلولة جديدة تحت رجلي؟»

ـ «إن قلق الحاج قد حفر علامته تحت الراحة التي تجابه الدروب».

هل أنت متأكد من أنه قلق جديد؟

ـ آه كلّا، لقد أصبتَ! إنها القديمة، أقدم واحدة، تلك التي لا أتخلص منها. كثيراً ما حككت، حفرت...

ـ إنها صامدة ما دمتَ لم تكتشف اسمها.

ـ لقد سميتها «الغضب» و«الانتقام».

Twitter: @ketab_n

ـ يا لها من أخطاء. ابحث جيداً. ابحث بشكل أفضل. أوجد ما يلتصق بجلدك، ما لا يتركك مطلقاً، يا ابني، ما هو في داخلك لن يتخلى عنه.

نظرت إلى الثؤلولة الوحيدة، تلك التي قاومت كل شيء، وأنا أنفخ عليها، لفظت أخيراً اسمها الحقيقي، وهو ما كان اسمي ويحددني، سميتها: «سعد».(*)

(*) كنا قد أشرنا في بداية الرواية إلى أن المؤلف يعني بالأمل كلمة سعد وهو الاسم الذي يحمله البطل. (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

العراق في عهد صدام حسين

- ١٧ تموز ١٩٦٨: إثر «الثورة البيضاء»، قام حزب البعث بانقلاب ووصل إلى السلطة. أصبح حسن البكر رئيس جمهورية العراق.
- ١٩٧١: انتُخب صدَّام حسين نائباً لرئيس الجمهورية بعد أن أبعد منافسيه.
- ١٩٧٩: خلف صدَّام حسين حسن البكر الذي استقال «لأسباب صحية»، فأصبح وهو في الثانية والأربعين، رئيساً لجمهورية العراق.
- ٢٢ أيلول ١٩٨٠: شن صدَّام حسين حرباً على إيران التي يحكمها المولىّ (شيوخ الشيعة). دامت تلك الحرب القاتلة حتى عام ١٩٨٨ وانتهت بانتصار إيران.
- ١٩٨٨، عملية «الأنفال»: وهي إبادة جماعية نُظِمت ضد قسم من السكان العراقيين، الأكراد.
- ٢ آب ١٩٩٠: اجتاح العراق الكويت. أحدث رد الفعل

Twitter: @ketab_n

الدولي حرباً ثانية في الخليج. توقف القتال في ٢٨ شباط ١٩٩١.

- ١٩٩١/٢٠٠٣: تعرض العراق لحظر دولي سبب نتائج كارثية. يتحدثون عن أكثر من مليون ميت بالرغم من برنامج الأمم المتحدة الذي نادى «البترول مقابل الغذاء».
- ٢٠ آذار ٢٠٠٣: بعد اعتداءات ١١ أيلول ٢٠٠١ وفي إطار مكافحة الإرهـاب، تم اجتياح العراق من قبل الولايات المتحدة مع بعض الحلفاء بدون قرار موافقة من الأمم المتحدة.
- ٩ نيسان ٢٠٠٣: سقوط بغداد.
- أول أيار ٢٠٠٣: انتهت رسمياً الحرب الثالثة للخليج، وهي حرب سريعة جداً.
- ٢٨ حزيران ٢٠٠٤: عم السلام في المناطق الرئيسة للبلد وسُلمت السلطة إلى حكومة موقتة، لكن العراق بقي يجابه عنفاً متعدد الأشكال من عصابات وحركات لا يمكن السيطرة عليها.
- ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٦: إثر دعوى ومحاكمة، شُنق صدَّام حسين.

بينما تزايدت الاعتداءات وحروب الشوارع، سحب غالبية أعضاء الائتلاف قطعاتهم. تم دعم الجيش الأميركي في عام ٢٠٠٧.

Twitter: @ketab_n

«خريطة رحلة سعد»

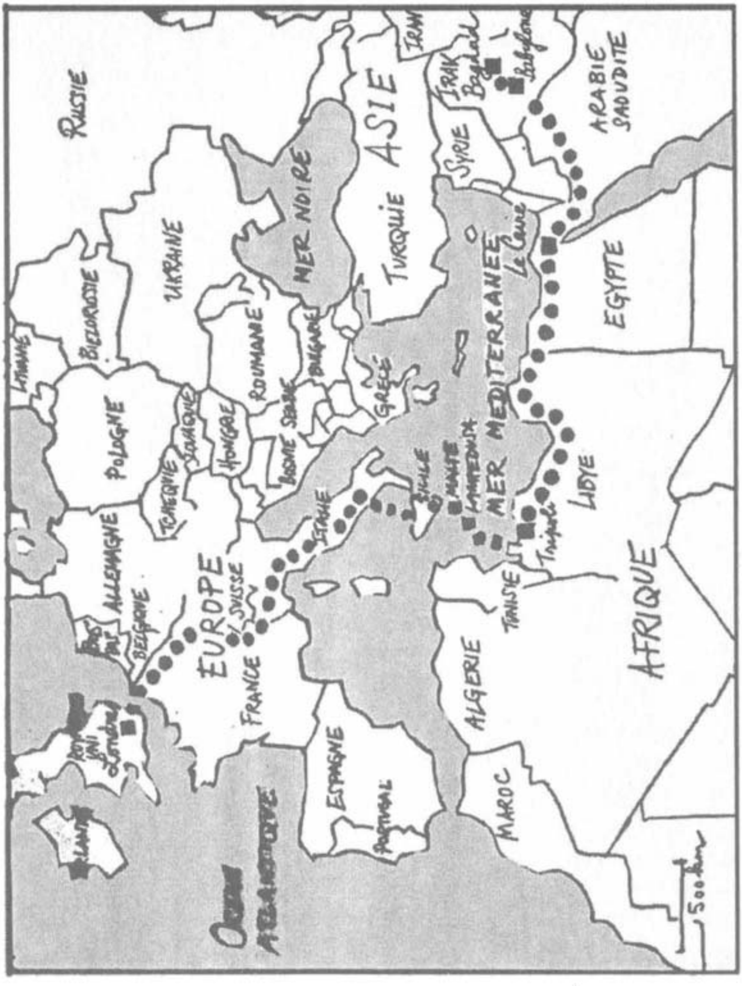

Le voyage de Saad

Twitter: @ketab_n

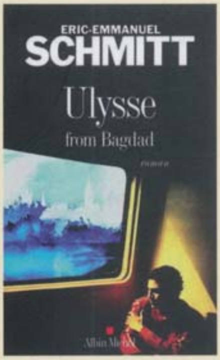

يريد سعد أن يترك بغداد والفوضى التي تعم فيها ليهاجر إلى أوروبا، إلى الحرية، إلى المستقبل. ولكن كيف سيقطع الحدود بدون دينار في جيبه؟ فشأنه شأن أوليس بطل أوديسة هوميروس يجابه العواصف، ينجو بعد أن غرق مركبه، يفلت من مهربي الأفيون، يصم أذنيه عن غناء الحوريات، وعليه أن يبتعد عن إغراءات الغرام. تبدو لنا الرحلة تارة عبثية، مضحكة وطوراً مأسوية. تبدأ رحلة سعد التي لا عودة منها...

إن الكاتب إريك إيمانويل شميت يمزج بمهارة السياسة بسحر الشرق، فيروي قصة أليمة لبلد، ويبعث بفرح الأشباح ويجعلها تتحدث، تختلط المأساة بروعة الخيال ونزواته.

بعد دراسة موسيقية في كونسرفتوار مدينة ليون تابع إريك إيمانويل شميت الدراسة في معهد المعلمين العالي، ١٩٨٠ ــ ١٩٨٥.

تخرج أستاذاً في الفلسفة عام ١٩٨٣ وناقش أطروحته، عام ١٩٨٦، بعنوان ***ديدرو والميتافيزيقا*** (وصدرت عام ١٩٩٧ في كتاب بعنوان ***ديدرو أو فلسفة الإغواء***، عن دار ألبان ميشال).

ISBN 978-614-432-458-5
9 786144 324585

Avec le soutien du
CNL
Centre national du livre